السنن النفسية لتطور الأمم

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

عادل زعيتر

الطبعة الثانية

دار المعارف بمصر

١٩٥٧





مقدمة المترجم

يَسِيحُ الفيلسوف الاجتماعىُّ غوستاف لوبون فى الأرض كثيراً فيَضَعُ فى سنة ١٨٨٤ كتابَه الخالد « حضارةَ العرب » ، ويَضَع فى سنة ١٨٨٧ كتابَه الخالد « حضاراتِ الهند » ، وفى سنة ١٨٨٩ يُعَزِّزهما بثالث ، يُعَزِّزهما بكتاب « الحضارات الأولى » ، ونترجم السِّفرين الأَوَّلَيْن اللذين هما أهمُّ من السِّفر الثالث ، ومن السِّفر الثالث هذا ننقل إلى العربية الجزءَ الخاصَّ باليهود ، وهو أطرف أجزائه .

وفى تأليف تلك الكتب يعتمد لوبون على ما لاحَظَ فى رِحْلاتِه وترَصد ، ومن تلك الكتب ، على الخصوص ، يستنبط ما بَدَا له من سُنَن الاجتماع فيَضَعُ فى سنة ١٨٩٤ كتابَ « السُّنَن النفسية لتطور الأمم » ، ويضع فى سنة ١٨٩٥ كتابَ « روح الجماعات » ، وفى كلا الكتابين يَتَحرر لوبون من جميع المذاهب الاجتماعية فينتهى إلى نتائجَ مخالفةٍ لِما أَلِفَه العلماء من المبادئ والآراء فيُعَدُّ ، بحقٍ ، مُجَدِّداً فى علم النفس وعلم الاجتماع ، إماماً مُوَجِّهاً فيهما .

وعالج لوبون جميع الموضوعات التى تناولها بالبحث فى كُتُبه ببراعةٍ ودقة فوَصَل إلى حقائقَ رائعةٍ ، وامتاز لوبون فى ذلك بمعرفته للإنسان وتعبيره عما يُوحِى به العقلُ والذوق السليم من المناحى ، وظهر لوبون فى كلِّ ما كَتَب عبقريًّا مبتكراً

حُرّ الفكر مستقلاً لَبِقاً إلى الغاية ، ولذلك كان من الصواب أن قِيل : « لا جِدال فى أن لو بون أعظمُ عالمٍ نفسىّ فرنسىّ فى الزمن الحاضر بما تَذَرَّع به من صبر وما اتّفق له من بصيرة نَفَذَ بها روحَ العصر » .

وفى كتاب « السُّنَن النفسية لتطور الأمم » بحث لو بون فى صفات العروق النفسية و تَغَيُّر أخلاقها ومراتبها ، وفى تفاوت الأفراد والعروق ، وفى تكوين العروق التاريخية، وفى كون عناصر الحضارة مظهراً خارجياً لروح الأمة ، وفى تَحَوُّل النُّظُم والمعتقدات والفنون ، وفى تأثير المبادئ فى حياة الأمم ، وفى تأثير الدِّيانات فى تطور الحضارات ، وفى شأن العظماء فى تاريخ الأمم ، وفى ذُوِىِّ الحضارات وانطفائها .

و يَغدُو مبدأ تساوى الأفراد والعروق الذى بَشَّر به فلاسفة القرن الثامنَ عشرَ من العقائد الثابتة لدى أكثر شعوب أوربة على الخصوص ، ويَبْلُغ هذا المبدأ من النفوذ والتأثير فى هذه الشعوب ما قُلِب به العالَمُ الغربىُّ رأساً على عَقِب ، وعلى هذا المبدأ تقوم نظريات الاشتراكية ، وعلى ما دلّ عليه العلم الحديث من وَهْنٍ فى ذلك المبدأ لم يَجْرُؤ أحد على مناهضته سوى قليل من العلماء ، ولاح لو بون على رأس هؤلاء فبَيَّن فى كتابه « السُّنن النفسية لتطور الأمم » أن الحضاراتِ كلما تقدمت تفاوتت الشعوب والأفراد وأن البشرية تَسِيرُ إلى التفاوت لا إلى المساواة ، ومما وَجَده لو بون أن العروق تختلف فيما بينها بما تشتمل عليه من صَفْوة الرجال ، وأن الحضاراتِ تُؤَدِّى إلى تفاوتِ الأفراد بالتدريج من الناحية الذهنية ، وأن الأمم كلما تَقَدَّمَت فى ميدان الحضارة تَفَاوَت الجنسان فيها بنِسْبة هذا التقدم .

وكتابُ « السُّنن النفسية لتطور الأمم » عظيمُ الشأن ، وهو لهذا العِظَمِ اتَّفق له من الأثر البالغ فى أقطاب السياسة ما رَأَوْا معه اتخاذه خَيْرَ رفيق لهم ، حتى إن

رئيس جُمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، ثيودُور رُوزْفِلْت ، كان يستصحبه فى حِلّه وترْحاله مستلهماً إياه فى سياسته كما صَرّح بذلك غيرَ مرة .

وأروعُ كُتُب لوبونَ الاجتماعيةِ هو ما وَضَعه قبل الحرب العالمية الأولى ، وما وَضَعه لوبونُ بعد تلك الحرب اعتمد فيه على مؤلفاته السابقة مكرِّراً ما جاء فيها من المبادئ والنظريات على العموم ، وقد نقلنا إلى العربية مُعْظم تلك المؤلفات ، ولا سيما « حضارةُ العرب ، وحضاراتُ الهند ، واليهودُ فى تاريخ الحضارات الأولى ، وروحُ التربية ، وحياة الحقائق . . . » ، فرأينا أن نُتِمّ عملنا فنترجم كتاب « السُّنن النفسية لتطور الأمم » وكتابَ « روح الجماعات » أيضاً ، وهذا ما قُمْنا به فعلاً ، فبذلك نكون قد أدخلنا إلى المكتبة العربية أُمّهاتِ كتب لوبون التاريخية والاجتماعية والنفسية .

وكان لوبون قد وَضَع كتاب « الإنسان والمجتمعات وتاريخهما وأصولهما » فى مجلديْن قبل سِياحاته العظيمة وقبل تأليفه كتاب « حضارة العرب » وغيره من تلك الكتب ، فاستند فى كُتُب الحضارات تلك إلى بعض القواعد المُقَرّرة فى ذلك الكتاب ، وقد كُنّا راغبين فى ترجَمة ذلك الكتاب أيضاً لو لم نرَ أن لوبون غَيّر كثيراً من آرائه وأفكاره فيه بعد رِحْلاته تلك وعند تأليفه للكتب التى نقلناها ، وفى هذه الكتب المترجمة ، ومنها كتابُ « السُّنن النفسية لتطور الأمم » على الخصوص ، تَجِدُ عَرْضاً وتلخيصاً لِما فى كتاب « الإنسان والمجتمعات » ذلك من مبادئ مُعدَّلةٍ ، فلا اضطرارَ إلى ترجَمته إذَنْ .

وفى سنة ١٩١٣ يترجم المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا كتابَ « السُّنن النفسية لتطور الأمم » هذا بعُنوان « سِرّ تطور الأمم » ، والموضوعاتُ الاجتماعية كانت فى

ذلك الحين ، كما هي الآن ، غيرَ مطروقة كثيراً ، ونقابل بين الأصل الفرنسيّ وتلك الترجمة فنجد أن زغلول باشا ، وإن بَذَل جُهْداً مشكوراً في المحافظة على المعاني ، لم تَخْلُ ترجَمته تلك من التّجَوُّز والعُجْمة والغموض ، فلذلك ، ولنَفَاد ما طبعه زغلول باشا من نسَخ ترجَمته ، ولِما وَجَدْتُ من ضرورة ترجَمة كتاب « السُّنن النفسية لتطور الأمم » ترجَمةً تتساوق هي وما ترجمتُه من كتب لوبون في السنين الأخيرة على الخصوص معتمداً على النصّ الفرنسيّ الأخير الذي تُوُفِّي لوبون مُعَوِّلاً عليه ، نقلتُ هذا الكتاب النفيس على الوجه الذي أَعْرِضه به على القراء ، والله المُوَفِّق .

« نابلس » عادل زعيتر

مُقدِّمة المؤلف في الطبعة الثانية عشرة

تطبيق ما جاء في هذا الكتاب من المبادئ
على بعض حوادث الحرب الأوربية

نُشِر هذا الكتاب للمرة الأولى منذ عشرين سنة ، ولم تَنَلْه يَدُ التغيير قَطّ في تلك الأثناء ، وكانت غايتُه تعيينَ بعض السُّنَن النفسية لتطور الأمم .

وما كان ليُفْتَرضَ حينئذٍ أن انقلاباً عالميًّا سيجيء مصدِّقاً لِما اشتمل عليه هذا الكتاب من السُّنَن التي استنبطها فيلسوفٌ من عُقْدَة التاريخ .

وتدلُّ تلك السُّنَن على أن عدداً قليلاً من العوامل النفسية الثابتة يسيطر على حياة الأمم فضلاً عن سيطرة بعض المؤثِّرات التي هي وليدة تقدم الحضارة ، ويُرَى من خلال الزمان والمكان تأثيرُ تلك السُّنَن في كلِّ زمان ومكان ، وكان لتلك السُّنَن الأثَرُ البالغ في قيام أعظم الدول وسقوط هذه الدول .

ولم تكن القُوَى النفسيةُ التي لها ذلك التأثيرُ الكبير صادرةً عن العقل ، وهذه القوَى هي التي تسيطر على جميع العقول ، وفي الكتب وحدَها تجِدُ أن المعقول يَقُود التاريخ .

وإذْ كانت عِلَلُ ما يملأُ حياةَ الأمم من اصطراع غريبةً عن العقل فإنك ترى أن أيَّ تقدم في العلم لا يُلَطِّف ضَرَاوَته ، وعلى ما تُبْصِر من نموِّ العقل باتساع أُفق المعرفة تَجِدُ المشاعرَ والأوهام والشهواتِ التي سَيَّرَت الناس منذ دَوْر الكهوف الأولى ظلت ثابتةً كما هي ، فالحقُّ أنه لا دَوْرَ للحقد والحبِّ والحرص والطمع والعُجْب .

والأممُ ، وهى لا كبيرَ تأثيرٍ للعقل فيها ، مُسَيَّرةٌ بأخلاق عِرْقها ، أى بمجموع المشاعر والاحتياجات والعادات والرَّغَبات التى هى دعائمُ روحها الأساسية ، وتَمُنُّ هذه الروح القومية على الأمم بثبات دائم مع تَقَلُّبات الحوادث على الدوام .

وهنا نَلْمِس سِرَّ التاريخ ، وهنا نَلْمِس القُوَى الخفيةَ التى تُوَجِّه مجراه .

والعِرْقُ بالحقيقة هو الذى يُعَيِّن الوجهَ الذى تسير به الأمم بفعل الحوادث وتقلبات البِيئة .

وتهيمن روحُ العروق على مقادير الأمم حين تسيطر على النُّظُم والقوانين وعلى عزائم الطُّغاة .

وتُعِينُ معرفةُ روح العروق على حلِّ ألغاز التاريخ ، وتُخْبِرنا معرفةُ روح العرق بأسباب العظمة والانحطاط وبالعلةِ فى تمازج أمم وعجز أمم عن ذلك ، والعِرْقُ هو حجر الزاوية الذى يقوم عليه توازن الأمم ، والعِرْقُ هو الذى يُعَيِّن الحدَّ النفسىَّ لطموح الفاتحين ولِما يبتدعونه من أَخْيِلة العظمة والتَّصَدُّر .

* * *

وشأنُ العِرْق يَرْسُخ فى حياة الأمم رسوخاً عظيماً على الدوام ، فلا يَجُوز جهلُه ، وعلى ما تراه من بيان الكتب الدينية القديمة لقوة هذا الشأن تُبْصِر الثوريين الغافلين عن الماضى يجادلون فى هذه القوة .

بَيْدَ أن على مَنْ يرغب فى اكتناه مبدأ العِرْق أن يَعْرِف ما أسفر عنه علم الحياة الحديثُ من الاكتشافات .

ويكفى الاصطراعُ الأوربىُّ لإثبات خطأ النظريين الذين يحاولون إنكار روح العروق ، ومصدرُ هذا الاصطراعِ الرئيسُ بالحقيقة هو ادعاء إحدى الأمم بالصدارة

لِمـا افترضته من خِصال عِرْقها فاعتقدت أنها مَدْعُوَّةٌ إلى السيطرة على العالم ، ومن أسباب هذا الاصطراع أيضاً ما كان من الحقد الموروث المُفَرِّق بين أمم مختلفة الأصول كالنمسويين والصرب والروس على الخصوص .

وينشأ ذلك الاصطراعُ ، بوجهٍ خاصّ ، عن الأوهام التى نَبَتَت فى روح مؤرخى الألمان ومؤلفيهم بفعل تصورهم لمبدأ العِرق تصوراً خاطئاً .

ووقع ذلك التصورُ فى زمن كان نقص المعارف الأنْترُوبولوجية فيه يؤدى إلى الظن بأن بعض العروق فى أوربة ظلّ خالصاً من شائبة الاختلاط مع تعاقب القرون .

ولو لم تظلّ الأفكار التى نشأت عن النظريات الوهمية قائمةً بعد نَقض هذه النظريات ما وجدتَ خطأً كهذا باقياً فى أيامنا ، والحقُّ أن ما أدَّت إليه الأنتروبولوجيةُ الدقيقة من ملاحظات يُثْبِتُ عدَم وجود عروق خالصة لدى الأمم المتمدنة .

أَجَلْ ، لا يزال كثير من البقاع فى إفْريقيَّة وآسية مشتملًا على عروق خالصة ، غير أن أوربة لا تحتوى سوى ما سَمَّيْتُه بالعروق التاريخية ، وهذه العروق التاريخية هى وليدة انصهاراتٍ مختلفة نشأت عن مصادفاتِ الهجرة والفتوح ، وإذا كانت صفات هذه العروق النفسيةُ الموروثة قد غَدَتْ كثيرة الثبات فلأن حواصلَ مثل تلك الانصهارات قد خضعت فى قرون كثيرة لحياة جامعة منطوية على نُظُم مشتركة وعلى مصالحَ مشتركةٍ بوجهٍ خاصّ .

وإذ تكررت مؤثِّراتٌ كتلك منذ الدور الذى تخلصت فيه الأمم من مغازى الفتح ، فانتهت إلى الوَحدة السياسية ، فإنها أوجبت حدوثَ أخلاقِ العروق الحاضرة ، واليومَ قد توَطَّدت هذه الأخلاقُ لدى مُعْظم الأمم وإن لم يَرجِـع زمن ظهورها إلى أجيال ما قبل التاريخ .

وإذ أن صفاتِ العروق النفسيةَ متباينةٌ أشدَّ التباين فإنها تتأثر تأثراً مختلفاً بفعل المؤثِّرات الواحدة ، وفى الغالب ينشأ عن ذلك عدمُ تفاهم مُطْلَق ، و بدا عدمُ التفاهم هذا منذ أدَّتْ سهولة الصلات السريعة إلى تَمَاسٍّ الأمم .

وكانت النتيجة الأولى لهذا التقارب هى إظهارَ الفروق النفسية التى تَفْصِل بين الأمم وما ينشأ عن ذلك من تباين فى إدراك الأمور

وأتَت الحرب الأوربية بدليلٍ آخرَ على درجة مايمكن أن يكون من تباينٍ نفسىّ بين أمم ذات حضارة واحدة فى الظاهر صاحبةِ أفكارٍ متقابلة منذ طويلِ زمنٍ حائزةٍ لبعض المصالح المتماثلة .

وتلك الأممُ غيرُ متعارِفة بالحقيقة ، وليست حكوماتُها أحسنَ معرفةً لها من ذلك مع ما يُزَوِّدُها به من المعلومات سفراؤُها وملحقوها العسكريون ووثائقُها الكثيرة .

وكانت ألمانية تجهل روحَ إنكلترة ، ولم يكن جهل فرنسة لروح ألمانية أقلَّ من ذلك ، وخَفِيَتْ نفسية سكان البلقان على مُعْظم السياسيين الأوربيين ، فاقترف هؤلاء السياسيون أفدحَ الأغاليط لِما كان من تفسيرهم لتلك النفسية بأفكارهم التى هى أفكارُ رجال متمدنين ، فلروح العروق من الحدود ما يتَعَذر اقتحامه .

وعدمُ الإدراك ذلك لأنه يسود ما بين مختلف الأمم من صِلاتٍ ، ونحن لأننا نَوَدُّ أن نحكم فى أمر تلك الأمم بمشاعرنا وأفكارنا الشخصية ، كان من الصعب أن يُبْصَرسَيْرُ الأمم الأجنبية وسادتها فى حالٍ ما ، ولنا فى الحرب الأوربية عِدَّةُ أمثلة ، ومنها أن ما لدى أولياء الأمور بألمانية من غفلة نفسية أدى إلى تأليب بلادٍ كإنكلترة وإيطالية عليها ظَانِّين أن هذه البلادَ مما يجب أن يُعْتَمد على صداقته أو حِياده .

وما كان لروح التُوتُون (الألمان) النفعية أن تُبْصِر أن احترام إمضاء المعاهدات ، الذى هو أساسُ جميع الحياة التجارية بإنكلترة ، مما يوجب قيامَ هذه الأمة المسالمة ضدَّ ألمانية وأن اضطرار بلجيكةَ الضعيفةِ إلى الدفاع عن نفسها يَحْمِلها على الوقوف فى وجه قاهرها القوىِّ .

وعدمُ إدراكٍ مثلُ هذا تَجَلَّى فينا أيضاً ، فقد نَسِينا ما يكون لروح الأموات من السلطان الهائل على الأحياء فاعترانا الدَّهَشُ من صَوْلة تلك الجيوش الهمجية التى حَرَّقَتْ المدنَ والآثارَ بدمٍ بارد وقتلت السكانَ العُزْلَ من السلاح بدمٍ بارد ، وما كان الألمان فى ذلك إلا مُكَرِّرين أعمالَ أجدادهم فى ذلك ، نعَمْ ، لاح أن الحضارة ألَانَتْ طبائعَ الألمان ، بَيْد أن ما كان مَنْسِيًّا من القسوة فى أيام السِّلْم ، لِتَعَذُّر إبدائه ، لم يَزُلْ ، فظلَّ التُّرَاثُ سليماً .

* * *

ومن الطبيعىِّ أن تظلَّ المُعْضِلةُ التى أثارها اختلاف العروق وما يَنْجُم عنه من نفورٍ باقيين بعد الحرب ، فيكونَ أشدُّ المصاعب فى المستقبل تعديلَ زُمَر الأمم المتحاربة فى جميع أوربة ، ولا سيما بلادُ البلقان .

وتبدو صعوبة تلك المُعْضِلة عند النظر إلى وَحدة الدين واللغة والمصالح بأشدَّ مما قد تبدو فى قيام القومية على العِرْق وإن كان على وجهٍ أبسطَ من ذلك فى هذه الحال ، ومما يُؤْسَف عليه فى أمرِ دوام السِّلْم الأوربية القادمة أن كان من النادر اجتماعُ هذه العناصر الأربعة فى أمة واحدة .

وسيظلُّ تباين العروق ، لطويلِ زمنٍ ، مصدرَ اصطراعٍ بين الأمم الناقصة التمدن على الخصوص ، كأمم البلقان التى لم يَسْطِعْ شىء أن يُسَكِّن أحقادها المتأصلة .

ولا يُؤَثِّر الزمان فى تباين العروق إلا بأقصى البطوء ، وإذا لاح أحياناً تَغَيُّرُ أمة فإن بعض الأحوال لا يَلْبَث أن يكشف أن هذه التغيرات لم تكن فى غير الظاهر ، وأنها لم تتناول غيرَ ما فى الشخصية من النواحى الثانوية .

ولا تكفى تَقَلُّباتُ البيئة ولا الفتوحُ لتغيير روح الشعب ، ولا يمكن تَحَوُّل الشعب إلا بالتوالد المكرَّر ، وما كانت الأرض ولا النُّظُم ولا الدِّيانة لتغير روحَ العِرْق .

على أن التوالد لا يكون مؤثراً إلا إذا وقع بين أمم ذاتِ نفسية متقاربة ، ولا يكون التوالدُ إلا مُضِرًّا بين أمم ذات نفسيةٍ شديدةِ الاختلاف ، ولا يكون لتزاوج البِيض والسُّود والهندوس والپُورُوج (أصحابِ الجلود الحُمْر) نتيجةٌ سوى انحلال ما فى حصائل هذا التزاوج من عناصر الثبات النفسىِّ الموروث ، وذلك من غير إحداث ما يقوم مقامها ، وتظلُّ قيادة الأمم المُوَلَّدة ، كأمم المكسيك وأمم الجُمهوريات الإسپانية الأمريكية ، أمراً متعذراً لأنها مُوَلَّدَة فقط ، وقد أثبتت التجرِبة أن أىَّ نظام أو تربية لم يَقْدِر على إخراج هذه الأمم من الفوضى .

* * *

قلنا آنفاً إن من أسباب الحرب الأوربية الرئيسة هو ما تَسَرَّب فى أدمغة الألمان بالتدريج من الفكر القائل إن الألمان قومٌ عَالُون أُعِدُّوا لفتح العالم .

وإنى ، حين درست فى أحد فصول هذا الكتاب أمرَ انتشار الأفكار وتأثيرِها فى حياة الأمم ، بَيَّنْتُ كيف أن الفكر لا يُتِمّ أن يكون ذا سلطان على طبقات الأمة العميقة فيَغْدُوَ كالسيل المنهمر بعد أن يلازم المِنْطقةَ النظرية المُتَحولةَ للرأى الصِّرْف ، وهنالك لا يستطيع الزعماء الذين أَبْدَوْه أن يَسُدُّوا مجراه ، والزعماء هم الذين يأتون

بناحية الفكر المجردة ، والجماعةُ هى التى تُحَوِّل الفكر إلى أعمال .

وبذلك الجهاز قام اعتقادُ ألمانية الحديثةِ بأفضليتها كما قامت عبادتها للقوة ، وما انفكتْ كَتِيبةٌ من الأساتذة والفلاسفة والكُتَّاب والجمعيات الوطنية تَنْشُر فى ألمانية مَثَلَ الصدارة الأعلى والتعطشَ إلى الفتح منذ خمسين سنة .

وببطء ، ولكن مع قوةٍ ، نفَذَتْ تلك النظرياتُ فى روح الشعب الألمانىّ فلم تَنْشَبْ أن صارت من العقائد ذاتِ المَسْحة الدينية، وما فَتِئَتْ ألمانية تبدو قانعةً بأن الله دعاها إلى تجديد العالم واستغلاله .

نمَا ذلك المعتقد ، واتفق له من القدرة ما شَهَرَ الإمبراطورُ به الحربَ فى زمنٍ لو نَظَرَ فيه إلى أن أسطوله أدنى من أسطول إنكلترة لرأى عدم استعداده لها ولوَجَدَ أن الانتظار خيرٌ من الإقدام عليها لا ريب .

* * *

وأظهرت الحوادث الحاضرة صوابَ كثير من المبادئ الأخرى المعروضةِ فى هذا الكتاب ، ومن ذلك أننى حين درستُ ما تَمَّ فى القرون القديمة من مختلف الفتوح ، ولا سيما فتحُ الرومان لبلاد اليونان ، سألتُ عن استطاعة بعض المَلَكات المتوسطة ، إذا ما تَصَرَّف فيه مثلٌ عالٍ قوىٌّ ، أن يمنح إحدى الأمم قدرةً على تقويض حضاراتٍ رفيعة عند ما يكون نُمُوُّ هذه الحضارات الذهنىُّ قد أبطل صفاتِ الخلق .

والمستقبلُ سيخبرنا بقدرة ألمانيةَ على تحقيق تلك السُّنَّة التاريخية التى وَرَدَها كثير من البلدان القديمة كمصرَ وفارسَ واليونانِ وإيطالية ، إلخ .

أَجَلْ ، إنك لا تَجِدُ خلفاء للعظماء الذين شَرُفَتْ بهم ألمانية فيما مضى ، بَيْدَ أن ألمانية عَلِمَت نظامَ المراتب ، وأنها عَرَفَت أن تنتفع بجميع قُوَاها مهما صَغُرَت ، وأنها استطاعت بفضل نظامها الحربيِّ الشديدِ أن تجعل من نَقْع أبنائها المتوسطين كتلةً هائلة مهدِّدة لسَلْم العالم .

وفى المستقبل ستكون مُعْضِلة الحياة لدى الأمم ذاتِ الحضارات الرفيعة أن تُنَضِّد فوق ثَقافتها الذهنية تربيةً للخلق صارمةً وتدريباً للإرادة على الخصوص ، تَيْنِكَ القُوَّتَيْن القادرتين على ضمان استقلال الأمم .

ومما قلته غيرَ مرة فى هذا الكتاب ، وفى كتب لاحقة أخرى ، أن قوة الأمم بأخلاقها لا بذكائها ، والذكاء يساعد على البحث فى أسرار الطبيعة والانتفاع بقُوَاها ، والأخلاقُ تُعَلِّمُ السَّيْرَ ومكافحةَ ضروب الاعتداء بنجاح .

* * *

ومن رُكام خفيٍّ موروث تتكون صفات الخلق التى يتألف من مجموعها ما للأمة من روح قومية ، ومن هذه الصفات تتركب مجموعةٌ ثابتة من المشاعر والتقاليد والمعتقدات مشترعةٌ فى غضون الأجيال لضروراتٍ تَخْضَع لها حياة كلِّ أمة .

ويتطلب بناء الروح القومية عِدَّةَ قرون على العموم ، وإذا ما رَسَخَت الروح القومية ظَلَّت فى مَأْمَن من كلِّ مَسٍّ طويلَ زمنٍ ، وقد حَبِطَ عمل الثورة الفرنسية الكبرى فى تغيير روح فرنسة على ما تذرعت به هذه الثورة من أقسى الوسائل ، فلم تُعَتِّم مؤثِّرات الماضى أن بَدَتْ ثانيةً فأدت إلى أكثرَ من رَجْعَةٍ بعد دور الانقلابات .

وحوادثُ مهمةٌ كهذه تترك بعضَ الأثر فى روح الأمة لا ريب ، غير أن التحولات لا تكون عميقة إلا بفعل تَقَلبات البيئة .

وقد ألمعتُ إلى سبب ذلك فى هذا الكتاب بأن ذكرتُ وجودَ عناصرَ ثانويةٍ بجانب جهاز روح العِرْق الأساسىِّ تُوجِبُ ظهورَ شخصيات جديدة ، ولنا فى الثورة الفرنسية وفى الحرب الأوربية أمثلةٌ كثيرة على ذلك .

وفى هذه الحرب ظَهَرَ تحولُ الشخصيات ذلك واضحاً إلى الغاية ، وبدا ذلك التحول فى فرنسة بغتةً ، ففيها صرتَ تُبْصِر أقسى الثوريين قد غَدَا من ذوى الحمية الوطنية ، وفيها صرتَ تبصرُ أشدّ الناس وَجَلاً قد غَدَا من ذوى الإقدام ، وفيها صرتَ تُبصِر الأحزابَ المتناحرة قد جَمع بينها فكرٌ عامّ .

وما كان التحولُ أقلَّ عُمْقاً من ذلك فى إنكلترة ، وإن كان أكثرَ تُؤَدةً ، فقد عَدَلَت إنكلترة التى هى أشدُّ الأمم تمسكاً بالتقاليد عن كلِّ نَفْرة من الحياة العسكرية ونَسِيَت منازعَها إلى الحرية متخذةً روحاً جديدة ملائمة لمقتضيات الساعة ، والحقُّ أن ملاءمةَ أحوال العيش المفاجئةِ لا تكون إلا وئيدةً فى أمة استقرت روحُها بعواملَ موروثةٍ كُرِّرتْ زمناً طويلاً على معنًى واحد .

أَجَلْ ، يَمْنَح ذلك الثباتُ فى الروح القومية الأمةَ قوةً عظيمة ، ولكنه قد يصبح شُؤْماً عليها إذا ما استقرّ كثيراً فيها ، فالأممُ التى لا تَقْدِر على ملاءمة مقتضيات العيش الجديدة تَنْحَطُّ لعدم المرونة .

ومن الطبيعىِّ أن تتضمن الملاءمةُ اكتسابَ أفكارٍ جديدة ومشاعرَ جديدة ، ومن ثَمّ طبائع جديدة ، والتحولاتُ التى تنشأ على هذا الوجه لا تدوم إلا إذا

ثَبَتَت ما دامت وليدةَ تقلباتِ البيئة ، وكلٌّ يعلم درجةَ انزواء الشخصيات التى صَدَرت عن تلك الرواية الثَّوْرية الفاجعة ، فلما هدأت تلك الزَّوْبَعة لم يلبث أولئك الذين نعتهم الأُسطورة بالجبابرة ، لِما اقترفوا من أقسى أعمال القتل نصراً لغَرَضهم ، أن عادوا من أبناء الطبقة الوسطى المسالمين والتجار الهادئين والموظفين الوادعين و بَدَوْا أولَ من دُهِش من التحول الذى طرأ على روحهم .

ومما لا مراء فيه أن تَحَوُّل الشخصيات الذى أدت إليه الحرب الأوربية سيكون ذا نتائجَ أكثر دواماً من ذلك لمَسِّ جميع المصالح فى الحاضر وتهديدِها فى المستقبل ، وسيكون التهديدُ القادم هـذا عاملاً قويًّا فى تحويل روح كثير من الأجيال .

وسيظلُّ التهديد قائماً زمناً طويلاً لا ريب ، وستُكرَّر الحروب بين الأمم ذات الروح والأمانى والاحتياجات المتباينة حتماً ، وستَعْقِب المنافساتُ الاقتصادية المُنازعاتِ الحربيةَ فى المستقبل مناوبةً .

وقد بَدَتْ ضروراتٌ جديدة فتجب ملاءمتُها خَشْيةَ الزوال .

وهل يدوم بعد السِّلْم ما فرضته الحربُ من الاتحاد ؟ وهل يُغْلَق إلى الأبد دورُ الانقسامات السياسية والدينية المُقَدَّر ؟ وهل نرى ظهور الأحقاد الفظيعة التى أوجبها المتفيهقون المشؤومون المُضَحُّون بمصلحة الوطن فى سبيل مآربهم الشخصية ؟ إن إلغاء المنازعات الداخلية هو شرطٌ أساسىٌّ لحياتنا القومية ، ونحن نكون عاجزين عن مقاتلة أعدائنا فى الخارج إذا ما وَجَب علينا أن نقاتل أعداءنا فى الداخل .

وإذا ما وازنت خصائلُ عرقنا مساوئَه قرّر اتجاهُه مصيرَه ، ولا حياة لنا بغير محالفات متينة فى الخارج وسِلْمٍ ثابتة فى الداخل ، وما ينبغى لمجتمع لا يتمتع بالسّلْم الداخلية أن يعيش طويلَ زمنٍ ، وارْجِعِ البصرَ إلى أغارقة القرون القديمة فإلى بُولونيي الزمن الحديث تجِدِ الأممَ التى لم تَعْرِف أن تَكُفّ عن انقساماتها قد غَرِقَت فى العبودية وأضاعت حتى حقّها فى أن تكون ذاتَ تاريخ .

مايو ١٩١٦

المقدمة
مبادئ المساواة في الزمن الحاضر
وعوامل التاريخ النفسية

ظهور مبدأ المساواة وتقدمه – نتائجه – ماذا كلف تطبيقه – تأثيره الحاضر في الجماعات – المسائل التي نعالجها في هذا الكتاب – البحث عن أهم العوامل في تطور الأمم العام – أيشتق هذا التطور من النظم ؟ – أليس لعناصر كل حضارة من نظم وفنون ومعتقدات إلخ . أسس نفسية خاصة بكل أمة ؟ – مصادفات التاريخ والسنن الثابتة .

تقوم حضارة كلِّ أمة على عدد قليل من المبادئ الأساسية ، ومن هذه المبادئ تُشْتَقُّ نُظُمها وآدابها وفنونها ، وهذه المبادئ تتكون ببطء كبير كما أنها تزول ببطء كبير ، وهي إذا غَدَتْ من الأغاليط الواضحة لدى أصحاب النفوس المُثقَّفة منذ زمنٍ طويل ظَلَّت عند الجماعات من الحقائق التي لا جِدال فيها واستمرت على عملها في أعمق طبقات الأمم ، والمبدأ الجديد ، وإن صَعُب فَرْضُه، لا يقلُّ فرضه هذا صعوبةً عن القضاء على مبدأ قديم ، فالبشرُ يَتَشَبثون تشبثاً قاطعاً بالمبادئ الميتة والآلهة الميتة على الدوام .

ولم يَـكَدْ يمرُّ قرنٌ ونصفُ قرن على الزمن الذي قَذَف العالمَ فيه بمبدأ المساواة بين الأفراد والشعوب فلاسفةٌ جاهلون كلَّ الجهل لتاريخ الإنسان الفطريِّ واختلافِ مزاجه النفسيِّ وسُنَن الوِراثة .

وقد انجذبت الجماعاتُ إلى ذلك المبدأ كثيراً فلم يَلبَث أن رَسَخ فى نفوسها وآتى أُكلَه ، أى أنه زَعْزَع أُسُسَ المجتمعات القديمة وأدى إلى أشدِّ الثَّوْرات هَوْلاً ، ورَمَى العالَمَ الغربىّ فى سلسلة من الاضطرابات العنيفة التى تستحيل معرفةُ مَدَاها .

ومما لا ريب فيه أن بعض الفروق التى تَفْصِل بين الأفرادِ والعروق كانت من الوضوح بحيث لا تحتمل الجَدَل الجِدِّىّ ، ولكنه اعْتُقِد بسهولةٍ أن هذه الفروقَ هى وليدةُ اختلاف فى التربية ، وأن الناس يُولَدون متساوين صالحين ، وأن النُّظُم هى التى أفسدتهم ، ولذلك بَدَا الدواء بسيطاً ، وهو أن تُجَدَّدَ النُّظُم ويُمْنَحَ الناسُ تعليماً واحداً ، وهكذا لم تَعتَمّ النُّظُمُ والتعليم أن صارا تِرْياقَ الديموقراطيات الحديثة ووسيلَة معالجة التفاوت المناقض للمبادئ الخالدة التى هى آخرُ الآلهة فى الزمن الحاضر .

وقد تقدم العلمُ بالحقيقة فأثبت فساد نظريات المساواة وأنه لا يمكن مَلء الهُوَّة النفسية التى أوجدها الماضى بين الأفراد والعروق إلا بتراكم الوِراثة البطىء إلى الغاية ، ومما دَلَّنا عليه علم النفس الحديث بجانب دروس التجرِبة القاسية هو أن النُّظُم والتربية التى تلائم بعض الأفراد والأمم تكون بالغةَ الضرر لأفراد آخرين وأممٍ أخرى ، وليس مما يَقدِر عليه الفلاسفة أن يُبْطِلوا مبادئ سَرَتْ فى العالم إذا ما قالوا بفسادها ، فالفكرُ يتبع سَيْرَه المُخَرِّب ، ولا شىء يَعُوق مجراه ، وهو فى ذلك كالنهر الزاخر الذى لا يَحْبِسه سَدٌّ .

ومبدأ مساواة الناس الوهمىّ ذلك هو الذى قَلَب الدنيا وأحدث فى أوربة ثورةً عظيمة وأوقع أمريكة فى حرب الانفصال الدامية وساق جميع المستعمرات الفرنسية إلى حال محزنة من الانحطاط ، ولا تَجِدُ عالِماً نفسيًّا ولا سائحًا ولا رجلاً سياسيًّا على

شيء من الثّقافة لا يعلم خطأ ذلك المبدأ ، وقليلٌ من هؤلاء من يَجْرُؤ على مكافحته مع ذلك .

ويداوم مبدأُ المساواة على نُمُوِّه ، وهو لا يزال بعيداً من دخوله دورَ الأفول ، وباسم هذا المبدأ تزْعُم الاشتراكية، التى تُعَبِّدُمُعْظَمَ أمم الغرب عما قليلٍ كما يظهر، أنها تَنْشُر ألويةَ السعادة بين هذه الأمم ، وباسم هذا المبدأ أيضاً تطالِب المرأة بمثل حقوق الرجل وبمثل تعليمه غافلةً عن الفروق النفسية العميقة التى تَفْصِلها عنه ، والمرأةُ إذا ما كُتِب لها النصر فى ذلك جعلت من الأوربىِّ بَدَوِيّاً لا منزل له ولا أُسْرَة .

ولا تبالى الأمم بما أسفرت عنه مبادئُ المساواة من الانقلابات السياسية والاجتماعية مطلقاً ، كما أنها لا تبالى بما تتمخض عنه هذه المبادئ من نتائجَ أشدّ خطراً من تلك ، واليوم غَدَت الحياةُ السياسية لرجل الدولة من القِصَر بحيث لا يبالى هذا الرجل بها أكثر من مبالاة الأمم تلك ، على أن الرأى العامّ صار صاحب السيادة فأصبح من المتعذر عدمُ اتِّباعه .

وليس لأهمية الفكر الاجتماعية مقياسٌ حقيقىٌّ غيرُ ما يكون له من السلطان على النفوس ، وليس لدرجة ما فى الفكر من الصواب أو الخطأ نفعٌ إلا من الناحية الفلسفية ، والفكرُ الصائب أو الخاطئ ، إذا ما اكتسب فى الجماعات طَوْرَ المشاعر ، وَجَب أن يُخضع بالتتابع لجميع النتائج التى تَصْدُر عنه .

إذَنْ ، يُسَار إلى تحقيق خيال المساواة الحديث بطريق التعليم والنُّظُم ، ونحن حين نَزْعُم تقويمَ ما فى سُنَن الطبيعة من جَوْر بفضل التعليم والنظُم ، نحاول أن نَصُبَّ فى قالَبٍ واحد أدمغةَ زنوج المارْتِينِيك والغُوَادْلُوب والسِّنِغَال وأدمغةَ عرب الجزائر وأدمغةَ سكان آسية ، ومما لا شكّ فيه أن تحقيق هذا الخيال أمرٌ متعذرٌ ،

ولكن التجربة وحدَها هى التى تكشف عما فى الأوهام من خطر ، والعقلُ يبدو عاجزاً عن تحويل عقائد الناس على الدوام .

وغايةُ هذا الكتاب هى وصفُ الأخلاق النفسية التى تتألف منها روح العروق ، وبيانُ كيفية اشتقاق تاريخ الأمة وحضارتها من هذه الأخلاق ، ونحن ، إذ نَدَع الجزئياتِ جانباً ، أو لا نلجأ إليها إلا عند الضرورة ، تسويغاً للمبادئ المعروضة ، نبحثُ فى تكوين العروقِ التاريخية ومزاجها النفسىّ ، أى فى العروق المصنوعة التى تكونت منذ أزمنة ما قبل التاريخ بفعل مصادفات الفتوح أو بفعل الهجرة أو بفعل التحولات السياسية، ونسعى فى إثبات صدور تاريخها عن ذلك المزاج النفسىّ ، وسنحاول اكتشافَ سَيْر الأفراد والأمم نحو المساواة أو ميلِ الأفراد والأمم إلى التفاوت مقداراً فمقداراً ، وسنرى بعد ذلك : هل تكون العناصرُ ، التى تتألف منها الحضارة ، أى الفنونُ والنُّظُم والمعتقدات ، مظاهرَ مباشِرةً لروح العروق وأن هذه العناصر لا تستطيع أن تنتقل من أمة إلى أخرى لهذا السبب ؟ ثم نختم كتابنا بأن نسعى فى تعيين الضرورة التى تَذْوِى بها الحضاراتُ وتنطفئ ، وقد أسهبتُ فى إيضاح هذه المسائل فى كتبى عن حضارات الشرق فلا أصنع فى هذا الكتاب غيرَ إجمالها .

وأوضحُ انطباع اتفقَ لى من سياحاتى البعيدة فى مختلف البلدان هو أن لكلّ أمة مزاجاً نفسياً ثابتاً ثباتَ صفاتها التشريحية فتُشتَق منه مشاعرُها وأفكارها ونُظُمها ومعتقداتها وفنونها ، ومما اعْتَقَدَه تُوكْفيلُ وغيرُه من المفكرين المشهورين وجودُ سبب تطور الأمم فى نُظُمها ، وترانى أرى العكسَ فأرجو أن أُثبت أن للنُّظُم فى تطور الحضارات تأثيراً ضعيفاً إلى الغاية ، فالنُّظُمُ معلولاتٌ فى الغالب، وهى قلما تكون عِلَلاً .

ولا مِرَاء فى أن هنالك عواملَ مختلفةً تعَيِّن تاريخَ الأمم ، وأن التاريخَ مملوء

بأحوال خاصة و بعوارضَ كانت وكان من الممكن أَلّا تكون ، بَيْدَ أنه يوجد بجانب هذه المصادفات وهذه الأحوال العارضة سُنَنٌ عظيمة ثابتة تُوَجِّه سَيْر كلٍّ حضارة ، وأكثرُ هذه السُّنَن شمولًا وأشدُّها قسراً هو ما يصدر عن مزاج العروق النفسيّ ، وما حياة الأمة ونُظُمُها ومعتقداتها وفنونها إلا لُحْمَةٌ ظاهرة لروحها الخفية ، وما على الأمة التى تَوَدُّ تحويل نُظُمها ومعتقداتها وفنونها إلا أن تُحَوِّل روحها فى بدء الأمر ، وما على الأمة التى ترغب فى دخول حضارة إلا أن تُدْخِل إلى هذه الحضارة روحَها أيضاً ، وليس هذا ما يُعَلِّمه التاريخُ لا ريب ، غيرأننا سنثبت بسهولةٍ أن التاريخ يكون قد خُدِع بظواهرَ باطلةٍ حينما يُسَجِّل مزاعمَ مخالفةً لهذا .

وقد حاول المصلحون الذين تعاقبوا منذ قرن أن يُبَدِّلوا كلَّ شىء ، أى أن يُبَدِّلوا الآلهةَ والأرض والناس ، وهم لم يستطيعوا صنع شىء فيما أثبته الزمان من الأخلاق المتأصلة فى روح العروق .

ويخالف مبدأُ الفروق الثابتة التى تَفْصِل بين الأشخاص مبادئَ الاشتراكيين المعاصرين مخالفةً تامة ، وليس مما تستطيعه معارف العلم أن تَحْمِل رُسُلَ العقيدة الحديثة على ترك الأوهام ، وما جهود هؤلاء الرُّسُل إلا وجهٌ جديد لما تَشُنُّه البشرية من حرب صليبية لنيل السعادة : لنيل كَنْز هِسْپِرِيد الذى ما فَتِئَت الأمم تبحث عنه منذ فجر التاريخ ، وربما لم تكن أوهام المساواة أقلَّ قيمةً من الأوهام القديمة التى سَيَّرَتْنا فيما مضى لو لم تصطدم بصخرة التفاوت الطبيعيِّ المنيعة ، والتفاوتُ مع الهرم والموتِ جزءٌ من المظالم الظاهرة التى ترى الطبيعةَ مملوءةً بها فلا بُدَّ للإنسان من معاناتها .

الباب الأوّل

صِفاتُ العُروقِ النفسيّة

الفصل الأول

روح العروق

كيف يقسم الطبيعيون الأنواع – تطبيق مناهجهم على الإنسان – وجه العيب فى التقسيم الحاضر للعروق البشرية – أسس التقسيم النفسى – المثل المتوسطة للعروق – كيف يؤدى البحث إلى تبين تلك المثل – العوامل النفسية التى تؤدى إلى تعيين مثال العرق المتوسط – تأثير الأجداد والأبوين – ما عند أفراد العرق من أسس نفسية مشتركة – تأثير الأجيال الغابرة العظيمة فى الأجيال الحاضرة – أسباب هذا التأثير الرياضية – كيف امتدت الروح الجامعة من الأسرة إلى القرية فإلى المدينة فإلى الإقليم – محاسن مبدأ المدينة ومضاره – الأحوال التى يتعذر معها تكوين روح جامعة – مثال إيطالية – كيف حلت العروق التاريخية محل العروق الطبيعية .

يستند الطبعيون فى تقسيمهم للأنواع إلى مشاهدتهم بعضَ الصفات التشريحية التى تظهر منتظمةً ثابتة بالوراثة ، واليومَ نَعْلَم أن هذه الصفاتِ تتحول بتبدّلاتٍ غيرِ محسوسة تتراكم وِراثةً ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأزمنة التاريخية القصيرة وحدَها أمكننا أن نقول إن الأنواع لا تتغير .

وحين طُبِّقَت مناهج الطبيعيين فى التقسيم على الإنسان أظهرتْ لنا أمثلةً متمايزة ، وهى حين استندت إلى الصفات التشريحية الواضحة ، كلون البَشرة وشكل الجمجمة وحجمها ، أمكنها أن تُقرِّر اشتمال الجنس البشرىّ على أنواع مختلفة متغايرة إلى الغاية متباينةِ الأصول على ما يحتمل ، ويرَى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن هذه الأنواع هى العروق فقط ، ولكن الأمرَ هو ، كما قيل بحقٍ ، « أن الزِّنْجِىَّ والقَفْقاسىَّ ،

إذا كانا من فصيلة الحَلَزُون ، يُقَرِّرُ علماء الحيوان بالإجماع أنهما نوعان مختلفان لا يمكن أن يُولَدا من زوجيْن افترقا عنهما بالتدريج » .

ولا تحتمل تلك الصفات التشريحية ، ولا سيما التى يمكن أن تنالها يدُ التحليل ، غيرَ تقسيماتٍ عامة موجزة ، ولا يظهر اختلافها إلا فى الأنواع البشرية البادية التباين كالبِيض والزنوج والصُّفْر مثلاً ، غير أن هنالك أمماً كثيرة التشابه من الناحية الجُثْمانيَّة شديدةَ الاختلاف فى شعورها وسَيْرها ، ومن ثَمَّ فى حضاراتها ومعتقداتها وفنونها ، أفيمكن أن يُنْظَم الإسپانىُّ والإنكليزىُّ والعربىُّ فى زمرة واحدة ؟ أَلَا تبدو الفروق النفسية بينهم لكلٍّ ذى عينين ؟ أَلَا تُقْرَأ هذه الفروق فى كل صفحة من تاريخهم ؟

وقد أُرِيدَ ، عند عدم الاختلاف فى الصفات التشريحية ، أن يُسْتَند فى تقسيم بعض الشعوب إلى عناصرَ مختلفة كاللغات والمعتقدات والزُّمَر السياسية إلخ ، بَيْد أن تقسيماتٍ كهذه مما لا يَقِف أمام سلطان البحث .

وما عَجَز التشريح واللغات والبِيئة والزُّمَر السياسية عن تقديمه من عناصر التقسيم عَرَضه علينا علمُ النفس ، وعلمُ النفس هذا يدلُّ على أنه يوجد خلفَ نُظُم كلِّ أمة وفنونها ومعتقداتها وانقلاباتها السياسيةِ ما يَصْدُر عنه تطور هذه الأمة من صفات خُلقية وذهنية ، ومن مجموع هذه الصفات يتألف ما يُسَمَّى روحَ العِرْق .

ولكلِّ عِرْق مزاجٌ نفسىٌّ ثابتٌ ثباتَ بِنْيتِه التشريحية ، ولا نرى مايدعو إلى الشكِّ فى وجود نَسَب بين المزاج النفسىِّ وتركيب الدماغ ، ولكن العلم لم يَبْلُغ من التقدم ما يُمكِّنه به هذا التركيب ، ولذلك يتعذر علينا اتخاذُه أساسًا للبحث ،

وهذا إلى أن معرفة ذلك التركيب لا تُغَيِّر شيئاً من وَصْف المزاج النفسيّ الذى يُشْتَقُّ منه فتبديه لنا المشاهدة .

والصفاتُ الُخلقية والذهنية التى يتألف من اقترانها روح الشعب هى عُنوانٌ لخلاصة ماضيه وتُراث أجداده وعوامل سَيْره، وفى بعض الأحيان تلوح تلك الصفات أولَ وهلةٍ كثيرةَ التقلب لدى أفراد العرق الواحد ، غير أن البحث الدقيق يدلُّ على اتصاف مُعْظم أفراد هذا العِرْق فى كلِّ وقت بصفاتٍ نفسية مشتركة ثابتةٍ ثباتَ الصفات التشريحية التى تُتَّخَذ فى تقسيم الأنواع ، والصفاتُ النفسية كالصفات التشريحية تنتقل بالوِراثة انتقالًا منتظماً مستمرًّا .

ويتألفُ من اجتماع تلك العناصر النفسية التى تُشاهَدُ لدى جميع أفراد العِرْق ما نرى من الصواب تسميتَه بالخُلق القَوْمىِّ ، ومن مجموع تلك العناصر يَتَكونُ المثالُ المتوسط الذى نتمكن به من تعريف الشعب ، ونحن إذا ما أخذنا اتفاقاً ألفَ فرنسىّ أو ألفَ إنكليزىّ أو ألفَ صينىّ فإننا نَجِدُ بينهم اختلافاً كبيراً ، ومع ذلك نراهم حائزين ، بما وَرِثوه عن عِرْقهم، صفاتٍ مشتركةً يمكن أن يستعان بها لتكوين مثالٍ فرنسىّ أو إنكليزىّ أو صينىّ مماثل للمثال الخيالىِّ الذى يَعْرِضه العالِم الطبيعىُّ عندما يَصِف الكلبَ أو الفرسَ وصفاً عامًّا ، وإذا ما طُبِّق مثلُ هذا الوصف على أجناس الكلب أو الفرس فإنه لا يشتمل على غير الصفات المشتركة بين هذه الأجناس، لا على الصفات التى يَتَميَّز بها كلٌّ جنس من هذه الأجناس .

والمثالُ المتوسطُ للعِرْق ، الذى هو شىء من الكِبَر ومن التجانس لهذا السبب ، يكون من الوضوح بحيث يَستقرُّ بنفس الباحث من فَوْره .

ونحن إذا زُرْنا شعباً غريباً أبصرنا أن الصفاتِ الوحيدةَ التى يمكن أن تَقِف

نَظَرنا هى الصفاتُ المشتركة بين جميع سكان البلد المُطافِ فيه لتكرارِها باستمرارٍ ، ونحن تَفُوتنا الفروق الفردية فيه لتكرارها القليل، ونحن ، فضلًا عن تمييزنا الإنكليزىّ أو الإيطالىّ أو الإسپانىّ عند أول نظرة ، لا نَلْبَث أن نَعْزُو إلى هؤلاء بعضَ الصفات الُخلقية والذهنية التى هى عينُ الصفات الأساسية المذكورة آنفاً ، ونحن نرى الإنكليزىّ أو الغَسْكونىّ أو النُّورْمَنْدىّ أو الفِلامَنْدىّ من مثالٍ حَسَن الاستقرار بذهننا فيمكننا وصفُه بسهولة ، وهذا الوصفُ يكون ناقصاً فى الغالب غيرَ صحيحٍ فى بعض الأحيان عند تطبيقه على الشخص المنفرد ، وهو يكون تامًّا عند تطبيقه على مُعْظم أفراد عِرْقٍ من تلك العروق ، وما يكون فى ذهننا من جُهْد لاشعورىّ لتعيين المثال الُجثْمانىِّ والنفسىِّ فى أمةٍ ما هو فى جوهره عينُ المِنْهاج الذى يُقَسِّم العالِمُ الطبيعىُّ به الأنواعَ .

ولذلك التماثل فى المزاج النفسىِّ عند مُعْظم أفراد العِرْق الواحد أسبابٌ فزيولوجية بسيطة جدًّا، و بيانُ الأمر أن كلّ إنسان لا يُمَثِّل بالحقيقة ثَمَرة آبائه القريبين فقط، بل يُمَثِّل ثَمَرةَ عِرْقه أيضاً، أى جميعَ سلسلة أجداده ، وقد أحصى العالِم الاقتصادىُّ مسيو شِيسُون مقدارَ ما يجرى فى عروق كلِّ فرنسىّ من الدماء فوجد أنه دَمُ عشرين مليوناً من معاصرى سنة ١٠٠٠ ناظراً إلى اشتمال كلِّ قرن على ثلاثة أجيال ، ومن قوله : « إن سكان كلِّ ناحية أو كلِّ إقليم يشتركون فى أجدادهم بحكم الضرورة إذَنْ ، و إن أولئك السكان من طِينةٍ واحدة وذوو طابع واحد ، و إنهم صائرون ، دائماً، إلى المثال المتوسط بفعل تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التى لم يكونوا غيرَ حَلَقاتها الأخيرة ، فنحن أبناء آبائنا وعِرْقِنا معاً، وليس الشعور وحدَه هو الذى يجعل لنا من الوطن أُمًّا ثانية ، بل الخواصُّ الُجثْمانيةُ والوِراثةُ تُؤَدِّى إلى ذلك أيضاً » .

والمؤثِّراتُ التي يَخْضَع لها الفرد وتُوَجِّه سَيْرَه ثلاثةُ أنواع ، فالنوعُ الأول ، وهو أهمُّها لا ريب ، هو تأثيرُ الأجداد ، والنوعُ الثانى هو تأثير الآباء القريبين ، والنوعُ الثالث ، وهو الذى يُعْتَقد أنه أقوى العوامل مع أنه أضعفُها على العموم ، هو تأثيرُ البِيئات ، وإذا عَدَوْتَ الانقلاباتِ المفاجئةَ العميقة التى تَحْدُث فى المحيط وَجَدْتَ البيئاتِ ، وما تنطوى عليه من مختلف المُؤَثِّرات الفزياوية والأدبية التى يخضع الإنسان لها ما دام حيًّا ولا سيما فى إبّان تربيته ، لا تؤدى إلى غير تغيير ضئيل ، والبِيئاتُ لا تُؤثِّر بالحقيقة إلاَّ عند ما تَرْكُمها الوِراثة فى صعيدٍ واحد زمناً طويلاً.

والإنسانُ ، مهما كان صُنْعه ، يُمَثِّل عِرْقه فى كلِّ وقت وقبل كلِّ أمرٍ إذَنْ ، ويتألف روحُ العِرْقِ من اجتماع ما يأتى به أفراد البلد الواحد من الأفكار والمشاعر حين يُولَدُون ، وهذه الروحُ ، وإن كانت خفيةً فى جوهرها ، ظاهرةٌ كثيراً فى آثارها ، وهى تسيطر على تطور الأمة بالحقيقة .

ويمكن تشبيه العِرْق بمجموع الخَلِيَّات التى يتألف منها ذو الحياة ، ووَجْهُ الشَّبَه هو أن حياةَ مليارات الخَلِيَّات هذه قصيرة جدًّا ، وأن حياة الجسم الذى يتكون من اجتماعها طويلة إلى الغاية إذا ما قِيسَت بتلك الحياة ، وأن لتلك الخَلِيَّات حياةً شخصية وحياةً مشتركة فى الجسم الذى يتركب منها ، وأن لكلّ فرد فى العِرْق الواحد أيضاً حياةً قصيرة جدًّا وحياةً مشتركة طويلة إلى الغاية ، فهذه الحياة الطويلة هى حياة العِرْق الذى وُلِد منه ذلك الفرد فيساعد على دوامه ، وهو تابع له على الدوام .

إذَنْ ، يجب عَدُّ العِرْق موجوداً دائماً مُحَرَّراً من الزمان ، ولا يتركب هذا الموجود الدائم من الأفراد الأحياء الذين يتألف منهم فى زمن معين فقط ، بل يتركب أيضاً من سلسلة الأموات الذين كانوا أجداداً له ، ولا بُدَّ من الامتداد إلى العِرْق فى

الماضى وفى المستقبل معاً لإدراك معناه الحقيقى ، وإذ كان الأمواتُ أكثرَ من الأحياء بما لا يُحْصَى فإنهم أقوى من الأحياء بما لا يُحْصَى ، والأمواتُ يسيطرون على دائرة اللاشعور الواسعة ، تلك المِنْطقةِ الخفيَّةِ التى يَصْدُر عنها جميعُ مظاهر الذكاء والأخلاق ، والشعبُ مُسَيَّرٌ بأمواته أكثرَ مما بأحيائه ، وبالأموات وحدَهم يقوم العِرْق ، والأموات فى القرن بعد القرن هم الذين أوجدوا أفكارَنا ومشاعرنا ، ومن ثَمَّ جميع عوامل سَيْرنا ، والأجيالُ الغابرة تَفْرِض علينا أفكارَها فضلاً عن مزاجها الجُثْمانىّ ، والأمواتُ وحدَهم هم سادة الأحياء بلا جِدال ، ونحن نَحْمِل وِزْرَ خطايا الأموات ونقتطف ثمرة فضائلهم .

ولا يتطلب تكوينُ مزاج الأمة النفسىّ مثلَما يتطلبه تكوين أنواع الحيوان من العصور الجيولوجية الطويلة التى لا يُحْصَى لها عَدٌّ ، ومع ذلك فهو يحتاج إلى زمنٍ غيرِ قليل ، فقد اقتضى إحداثُ ما تتألف منه روح عرقنا من المشاعر والأفكار انقضاءَ أكثرَ من عشرة قرون مع ضَعْف ما انتهى إليه عِرْقنا من ذلك حتى الآن (١) ، ومن المحتمل أن كان عملُ ثورتنا الكبرى المهمُّ هو تعجيل هذا التكوين بالقضاء تقريباً

---

(١) هذا الزمن ، وإن كان طويلا فى حولياتنا ، قصير بالحقيقة ، وذلك لاشتماله على ثلاثين جيلا ، ودور قصير كذلك إذا ما كفى لتثبيت بعض الأخلاق فذلك لأن العلة الواحدة تؤدى إلى نتائج عظيمة جداً عندما تسير على وتيرة واحدة بعض الزمن ، ومما تثبته الرياضيات أن العلة ، إذا ما تكررت زمناً طويلا فى معنى واحد ، زادت معلولاتها بنسبة هندسية (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ إلخ .) على حين لا تختلف العلة إلا على نسبة حسابية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ إلخ .) ، فالعلل هى لوغارتمات المعلولات ، وفى المسئلة المشهورة القائلة بتضعيف حبات القمح فى مربعات الشطرنج يكون رقم مراتب هذه المربعات لوغارتمة عدد حبات القمح ، وقل مثل هذا عن القروض ذات الفوائد المركبة حيث يكون النماء فى جعل السنين لوغارتمة رأس المال المتجمد ، ولمثل هذه الأسباب يعبر عن معظم الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية متماثلة تقريباً ، وفى كتاب آخر وجدت أنه يمكن التعبير عن هذه المنحنيات من الناحية التحليلية بمعادلة القطع المكافىء أو القطع الزائد ، ويرى صديق العلامة مسيو شيسون إمكان التعبير عنها فى الغالب بالمعادلة ذات الأس المتغير .

على ما كانت فرنسة مجزأةً بينه من القوميات الصغيرة كالپيكار والفلامان والبُورْغُون والغَسْكون والبريتان والپرُوفنْسيِّين إلخ . وهَيْهاتَ أن يكون هذا التوحيدُ قد تمّ ، وذلك لكثرة العروق التى تتألف منها والتى تؤدى بحكم الطبيعة إلى أفكار ومشاعرَ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف ، فترانا نظلُّ ضحيةَ الانقسامات التى لا تَعرِفها الأمُ الأكثر تجانساً منا كالإنكليز مثلاً ، ولدى الإنكليز تُبْصِر السكسونىّ والنُورْمندىّ والبريطانىّ القديمَ قد انتهَوْا بالتمازج إلى تأليفِ مثالٍ كثير التجانس متماثلِ السِّيَر ، ولم يَلْبَث الإنكليز بفضل هذا الامتزاج أن اكتسبوا الأُسُسَ الجوهرية الثلاثة لروح الأمة ، وهى : وَحدة المشاعر ووَحدة المصالح ووَحدة العقائد ، والأمةُ إذا ما بلغت ذلك اتفق جميعُ أبنائها بالغريزة على جميع المسائل المهمة وعاد لا يَبْدُو فيها كبيرُ شِقاقٍ .

ووَحدة المشاعر والأفكار والمعتقدات والمصالح ، التى هى وليدةُ رواسبَ بطيئةٍ موروثة ، تمنح مزاجَ الأمة النفسىّ تجانساً وثباتاً عظيمين ، وهى تَمُنُّ على هذه الأمة بقوة كبيرة ، وفيها سرُّ عظمةِ رومة فى القرون القديمة وعظمةِ إنكلترة فى أيامنا ، وإذا ما غابت الروحُ القومية انحلت الأمة ، وكانت خاتمةُ شأن رومة يومَ أضاعت تلك الروح .

وتلك الشبكةُ من المشاعر والأفكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التى تتألف منها روحُ الزمرة قد وُجِدَت ، دائماً ، لدى جميع الأمم على درجات متفاوتة لا ريب ، غير أن نُمُوَّها التدريجىّ وقع بأقصى البطوء ، ولم تَشْمَلْ روحُ الزمرة جميعَ سكان البلد إلاّ مؤخراً بعد أن كانت مقصورةً على الأُسْرَة فى البُداءة فامتدت بالتدريج إلى القرية فإلى المدينة فإلى الإقليم ، وهنالك ، فقط ، ظهرت فكرة الوطن وَفْقَ ما نُدْركها به

اليوم ، وهى لم تَغْدُ ممكنةً إلا بعد أن تكونت الروح القومية ، وما ارتقى الأغارقة قَطُّ إلى ما فوق فكرة المدينة ، وقد ظَلَّتْ مدنُهم متحاربةً ، على الدوام ، لأن بعضها كان أجنبيًّا عن بعض فى الحقيقة ، ولم تَعْرِف الهندُ غيرَ وَحدة القرية منذ ألفى سنة ، فتَجِدُ فى هذا سِرَّ خضوعها باستمرارٍ لسادةٍ من الأجانب الذين انهارت دولهم الموقتة بسهولةٍ كالتى قامت بها .

وفكرةُ المدينة ، وإن كانت بالغةَ الضَّعْف من الناحية العسكرية كوطنٍ مَحْض ، بالغةُ القدرة من حيث تقدمُ الحضارة ، وروحُ المدينة ، وإن كانت أصغرَ من روح الوطن ، أكثرُ إنتاجاً منها فى بعض الأحيان ، وقد أثبتت لنا أَثينَة فى القرون القديمة وفلورنْسة والبُنْدقيَّة فى القرون الوسطى درجةَ ما يمكن أن تَصِل إليه زُمَرُ الناس الصُّغْرَى فى ميدان الحضارة

وإذا حَدَث أن قَضَت المدن الصغيرة أو الأقاليمُ الصغيرة حياةً مستقلة زمناً طويلاً فإنها لا تُعتِّم أن تحوز روحاً تبلغُ من الثبات مايتعذر معه تقريباً أن تمتزج بروح المُدُن والأقاليم المجاورة فتؤلفَ روحاً قومية ، وإذا أمكن حدوثُ امتزاجٍ مثلِ هذا ، أى حينما لا تكون العناصر المتقابلة كثيرةَ الاختلاف ، فإن ذلك لا يكون من عمل يوم واحد ، بل من عمل القرون، ولا بُدَّ من ظهور رجال من طِرازِ رِيشِلْيو وبِسْمارْك لينجزوا مثلَ هذا العمل ، وهم لا يُتِمُّونه إلَّا بعد أن يكون قد نَضِجَ منذ زمن طويل ، وقد يَتَّفِق لبلدٍ ، كإيطالية ، أن يصير دولة واحدة بغتةً بفعل بعض العوامل الشاذة ، ولكن من الخطأ أن يُعتَقد أن ذلك البلد ينال بهذا روحاً قومية ، وأنت إذا أبصرتَ البيمُونْتىَّ والصِّقِلِّىَّ والبُنْدُقىَّ والرومانىَّ إلخ ، فى إيطالية ، فإنك لا تُبْصِر الإيطالىَّ فيها .

ومهما يكن أمرُ العِرْق الذى يُبْحَثُ فيه اليوم ، وسواء أكان هذا العِرْق متجانساً أم غيرَ متجانس ، فإنه يجب أن يُعَدَّ عِرقاً مصنوعاً على الدوام ، لا عِرْقاً طبيعيًّا ما دام قد تَمَدَّن ودخل ميدانَ التاريخ منذ زمن طويل ، واليومَ لا تَجِدُ العروقَ الطبيعية إلا عند الهَمَج ، وعند الهَمَج وحدَهم تستطيع أن تُبْصِر أمماً خالصةً من كلِّ اختلاط ، وأما مُعْظم العروق المتمدنة فعروقٌ تاريخية .

ولا نَشْغَلْ أنفسنا الآن بأصول العروق ، وليس من المهمِّ أن تكون العروق قد كوَّنَتْها الطبيعة أو كوَّنها التاريخ ، وإنما الذى يُهِمّنا هو أخلاقُ هذه العروق التى تمَّت فى ماضٍ طويل ، وهذه الأخلاقُ إذْ أُمْسِكت فى قرونٍ بفعل أحوالِ عيشٍ واحدة ، وهذه الأخلاقُ إذْ تراكمت بالوِراثة ، اكتسبتْ مع الزمن ثباتاً وعَيَّنَتْ مِثالَ كلِّ أمة .

الفصل الثاني

حدود تغير أخلاق العروق

تغير أخلاق العروق ، لا ثباتها ، هو القاعدة الظاهرة — أسباب ذلك — ثبات الأخلاق الأساسية وتغير الأخلاق الثانوية — تشبيه الأخلاق النفسية بصفات الحيوان الثابتة والمتغيرة — تؤثر البيئة والأحوال والتربية فى الأخلاق النفسية الثانوية فقط — ممكنات الخلق — أمثلة فى أزمنة مختلفة — رجال الهول — ماذا كانوا يصنعون فى أدوار أخرى — كيف تثبت الأخلاق القومية على الرغم من الثورات — أمثلة مختلفة — الخلاصة .

دراسة تطورِ الحضارات بدقة هى التى نُبْصِر بها وحدَها ثباتَ مزاج العروق النفسىّ ، والذى يظهر أولَ وَهْلةٍ هو أن القاعدة العامة فى التغير لا فى الثبات ، والحقُّ أن تاريخ الأمم يَحْفِز إلى افتراضنا أن روح هذه الأمم تخضع أحياناً لتحولات سريعة جدًّا عميقةٍ إلى الغاية ، أفلا يلوح فى ذلك التاريخ فَرْقٌ عظيم بين أخلاق الإنكليزىّ أيام كُرُومْويل وأخلاقِهِ فى الوقت الحاضر مثلًا ؟ ألا يبدو الإيطالىُّ المعاصرُ الحَذِر الفَطِن مختلفاً أشدَّ الاختلاف عن الإيطالىِّ المندفع المفترس الذى يدلنا عليه بِنْفِنُوتُوسِلِّينِى فى مُذَكِّراته ؟ وإذا لم نذهب بعيداً فاقتصرنا على فرنسة جاز لنا أن نقول : ما أكثر ما اعتور الأخلاقَ فيها من تغيُّرات ظاهرة فى قليلِ قرون ، بل فى سنين ! وأىُّ المؤرخين لم يُسَجِّل ما فى أخلاقها القومية من فروق بين القرن السابعَ عشرَ والقرنِ الثامنَ عشرَ ؟ أفلا يُخَيَّل إلى الناظر وجودُ عالَمَ بين

أخلاق رجال العهد الغِلاظ وأخلاق عبيد نابليون الوُدَعاء ؟ هؤلاء هم أولئك ، وقد بَدَا تَغَيُّرهم تغيراً تامًّا فى بضع سنين .

ونحن ، لكى نوضح أسبابَ هذه التغيرات ، نذكر قبل كلِّ شىء أن النوع النفسىَّ هو كالنوع التشريحىِّ مؤلفٌ من عدد قليل من الصفات الأساسية الثابتة التى تتجمع حولها صفاتٌ ثانوية متغيرة متحولة ، وذلك كالمُرَبِّى الذى يُحَوِّل بِنْيَة الحيوان الظاهرةَ والبستانىِّ الذى يُغَيِّر منظر النبات فلا يَتَبين ذلك من ليس له إلمامٌ بالأمر ، مع أن المربىَ والبستانىَّ لم يؤثرا فى غير الصفات الثانوية لذلك الحيوان وذلك النبات ، والصفاتُ الأساسية تميلُ ، دائماً ، إلى الظهور ثانيةً فى كلِّ جيل جديد على الرغم من كلِّ حيلة .

وللمزاج النفسىِّ كذلك صفاتٌ أساسية ثابتة كصفات الأنواع التشريحية ، غير أن للمزاج النفسىِّ صفاتٍ ثانويةً سهلةَ التغير أيضاً ، وهذه الصفاتُ الثانوية هى التى يمكن البيئاتِ والأحوالَ والتربيةَ وما إليها من مختلف العوامل أن تُغَيِّرها بسهولة .

وكذلك يجب أن يُذْكر الأمرُ الجوهرىُّ القائل إن المزاج النفسىَّ لكلِّ واحد منا يشتمل على بعض الممكنات الُخلقية التى لا تُهَيِّئ الأحوالُ لها فرصةَ الظهور فى كلِّ وقت ، فإذا ما حَدَثَت هذه الأحوال ظهرت فى الحال شخصيةٌ جديدة موقتة ، وذلك ما تمكن ملاحظتُه فى أدوار الأزَمات الدينية والسياسية الكبيرة من تحولات خُلقية عَرَضيَّةٍ كالتى يُخَيَّل بها تَحَوُّلُ الطبائع والأفكار والسلوك وكلُّ شىء ، ويكون كلُّ شىء قد تَحَوَّل فى الحقيقة كما يتحول بغتةً وجه البحيرة الهادئة الذى تُثِيرُه العاصفة ، ومن النادر أن يدوم هذا الاضطراب زمناً طويلًا .

ولتلك الممكنات الُخلقية التى تحققت بفعل بعض الحوادث الاستثنائية يبدو لنا

صانعو الأزَمات الدينية والسياسية الكبرى من جوهر أعلى من جوهرنا وأنهم نوع من العمالقة وأننا أبناؤهم المُنْحلُّون ، ولم يكن أولئك إلا رجالًا مثلَنا مع ذلك ، ولم يكن أولئك إلا أناساً قد أثارت الأحوال ما فيهم من الممكنات الخُلقية الخفية فى كلِّ واحد منا ، انْظُرُوا مثلًا إلى « جبابرة العهد » الذين وَقَفوا أمام أوربة المُدَجَّجة بالسلاح وكانوا يرسلون خصومهم إلى المِقْصلة لأقلِّ معارضة ، انْظُرُوا إلى هؤلاء الجبابرة الذين كانوا فى الأساس من أبناء الطبقة الوسطى الصالحين المسالمين ، من أولئك الذين يُحْتَمَل فى الأوقات العادية أن ينقطعوا إلى دراستهم أو يَنْزَوُوا فى غرفتهم أو يَلْزَموا مكتبهم فيقْضُوا حياةَ هدوء واعتزال ، فهم لِمَا وقع من الحوادث الخارقة للعادة التى هَزَّت فى دماغهم بعضَ الخليَّات المُعَطَّلة فى الأيام العادية بَرَزوا بتلك الوجوه الهائلة التى لا يُدْرِكُ أمرَها الخلَف ، ولو ظهر رُوبِسْپير بعد مئة سنة لكان قاضياً نزيهاً من قضاة الصلح محبًّا لقِسِّيسه، ولو ظهر فُوكْيه تَنْفيل بعد مئة سنة لكان قاضياً للتحقيق متصفاً بأكثرَ مما فى زملائه من الغِلْظة والغَطْرَسة الملازمتين لأبناء مِهْنته ، ولكن مع تقديرٍ لغيْرته فى تَعَقُّب المجرمين ، ولو ظهر سان جُوسْت بعد مئة سنة لبدا معلماً ماهراً من معلمى المدارس ولصار محلَّ احترام رؤسائه ولغدا فخوراً بأوسمة الأكاديمية التى كان لا بُدَّ له من نيلها فى نهاية الأمر، ومما يؤيد صحة هذه الافتراضات بما فيه الكفاية ما صَنَعه ناپليون من وحوش الهَوْل الذين لم يَبْقَ لهم من الوقت ما يَضْرِب بعضُهم فيه رقابَ بعض ، فقد أصبح معظم هؤلاء من رؤساء الدواوين والجُباة والقُضاة والمديرين ، وذلك لأن الأمواج التى أثارتها العاصفة وهى التى تكلمنا عنها آنفاً كانت قد هَدَأَت ولأنَّ البحيرة المضطربة عاد إليها وجهها الهادئ .

ويَسْهُل عليك أن تَجِدَ صُوَراً جديدة لأخلاق العِرْقِ الأساسية حتى فى أشدِّ

الأدوار اضطراباً وأغربها تغييراً للشخصيات ، وهل كان النظام المركزيُّ الاستبداديُّ المتحكم الذى جاء به يعاقبتُنا الأشداء يختلف بالحقيقة عن النظام المركزيِّ الاستبداديِّ المتحكم الذى قالت به المَلَكية فى خمسةَ عشرَ قرناً فأصّلته فى النفوس تأصيلاً عميقاً ؟ وخَلَفَ جميع ثورات الأمم اللاتينية يَعُود إلى الظهور، على الدوام، ذلك النظامُ العنيد ، ذلك الاحتياجُ المتأصل إلى الخضوع ، وذلك لِما فيه من إجمالٍ لغرائز العِرْق اللاتينيِّ ، ولم يكن ما اتَّفق لبوناپارتَ من مجدِ الفتوح وحدَه هو الذى جعله سيداً ، و بوناپارت حينما حَوّل الُجمهورية إلى دكتاتورية كانت غرائز العِرْق الموروثةُ تَتَجلى كل يوم بأشد مما هى عليه ، ولو لم يظهر هذا الضابط العبقريُّ لـكفى لذلك أيُّ مغامر كان ، وتمضى خمسون سنة فلم يكن على وارث اسمه إلّا أن يُرِىَ نفسه لينال أصواتَ أمةٍ تَعِبة من الحرية متعطشةٍ إلى العبودية ، وليس بُرُومِيرُ (الشهر الثانى من السنة الُجمهورية) هو الذى صنع ناپليون ، بل روحُ العِرْق الذى أخذ يَرْكَع تحت قدمه الحديدية[1] .

و إذا كان تأثير البيئات فى الإنسان يظهر كبيراً فلِما للبيئات من فعلٍ فى العناصر الثانوية المؤقتة أو فى ممكنات الُخلق التى تكلمنا عنها ، وفى الحقيقة لا تكون التغييرات عميقة ، و بيانُ ذلك أن أكثر الناس دَعَة إذا ما عَضَّه الجوع بَلَغ من القسوة

---

(١) قال تاين : « ما كادت حركة ناپليون الأولى تبدو حتى خر الفرنسيون له سجداً طائعين ، وقد ثابر الفرنسيون على ذلك كطبيعة فيهم ، فكنت تبصر فى الأصاغر ، كالفلاحين والجنود ، وفاء حيوانياً له ، وكنت تبصر فى الأكابر ، كالأعيان والموظفين ، تذللا بزنطياً له ، وما كنت ترى فى الجمهوريين أدنى مقاومة له ، بل وجد بين هولاء أحسن آلات لسلطانه ، ومن هؤلاء الشيوخ والنواب ومستشارو الدولة والقضاة والإداريون من كل درجة ، وهو لم يلبث أن اكتشف تحت مواعظهم فى الحرية والمساواة حبهم للسلطة والصدارة ولو كانوا مرؤوسين ، وذلك فضلا عما أبصره فى معظمهم من ميل إلى المال ورغبة فى اللذات ، ولا تجد غير فرق صغير بين نواب لجنة السلامة العامة من جهة والوزير والمدير ووكيل المدير فى العهد الإمبراطورى من جهة أخرى ، فالرجل فى الجهتين هو هو ولكنه ذو ثوبين : ثوب بسيط فى الأولى ومطرز فى الثانية » .

ما يدفعه إلى اقتراف جميع الجرائم ، حتى إلى افتراس نظيره فى بعض الأحيان ، أفيقال ، والحالةُ هذه ، إن خُلقه الأصلىّ قد تَغَيّر ؟

وإذا حَدَث أن مقتضياتِ الحضارة حَفَزَت أناساً إلى أقصى الغِنَى وما يوجبه الغِنى من المعايب حتماً ، وأنها أوجدت فى أناس آخرين احتياجاتٍ عظيمةً من غير أن تجعل لهم وسائلَ لقضائها ، فإن الذى يَنْجُم عن هذا هو استياء وقلق عامّ يُؤثِّران فى السَّيْر ويُثيِران انقلاباتٍ من كلِّ نوع ، بَيْدَ أن أخلاقَ العِرْقِ الأساسيةَ تتجلى فى ذلك الاستياء وفى هذه الانقلابات ، ومن هذا القبيل ما كان من تَمَزّق إنكليز الولايات المتحدة فى حربهم الأهلية وإبدائهم فى ذلك من العناد والنشاط العظيم مثلَ ما يبدونه اليوم فى شَيْد المدن والجامعات والمصانع ، فخُلُقُ أولئك لم يتغير فى ذلك ، وإنما الذى تَغَيَّرَ هو الموضوعاتُ التى طُبِّق عليها ذلك الخُلق .

ونحن ، حين نبحث بالتتابع فى مختلف العوامل التى تُؤَثِّر فى مزاج الأمم النفسىّ ، نرى أن هذه العوامل تَمَسُّ نواحىَ الخُلق الثانويةَ الموقتة دائماً ، لا عناصرَه الأساسية ، أو أنها لا تَمَسُّ هذه العناصرَ إلا بعد رُكام وراثىّ بطىء .

ولا نستنتج مما تقدم أن صفاتِ الأممِ النفسيةَ لا تتغير ، بل نستنتج فقط أن هذه الصفاتِ ذاتُ ثبات كالصفات التشريحية ، ولهذا الثبات تتغير روح العروق فى غُضُون القرون رويداً رويداً .

الفصل الثالث

نظام مراتب العروق النفسي

يقوم التقسيم النفسى ، كالتقسيمات التشريحية ، على عدد قليل من الصفات الثابتة الأساسية — تقسيم العروق البشرية النفسى — العروق الأولى — العروق الدنيا — العروق الوسطى — العروق العليا — — العناصر النفسية التى يوجب اجتماعها هذا التقسيم — أهم هذه العناصر — الخلق — الأدب — يمكن تغيير الصفات الذهنية بالتربية — صفات الخلق ثابتة ، ويتألف منها العنصر الثابت فى كل أمة — شأن هذه الصفات فى التاريخ — سبب عدم تفاهم مختلف العروق وعدم تأثير بعضها فى بعض — أسباب تعذر حمل أمة متأخرة على انتحال حضارة راقية .

إذا ما درسنا فى كتاب تاريخ طبيعىّ أُسُسَ تقسيم الأنواع وَجَدْنا من فوْرنا أن الصفاتِ الثابتةَ الأساسية التى يُعَيَّن بها كلُّ نوع هى قليلةٌ جدًّا ، فتكفى بضعة أسطر لعَدِّها .

وعلةُ ذلك هو أن العالِم الطبيعىّ لا يبالى بغير الصفات الثابتة غيرَ ناظرٍ إلى الصفات المؤَقّته ، مع أن الصفاتِ الأساسيةَ تَجُرُّ سلسلةً من الصفات الأخرى وراءها حتماً .

وقُلْ مثلَ ذلك عن الصفات النفسية للعروق ، ونحن إذا سلكنا سبيل التفصيل وَجَدْنا ما لا يُحْصيه عدٌّ من الاختلافات الدقيقة بين أمة وأخرى و بين شخص وآخر ، ولكننا إذا نظرنا إلى الصفات الأساسية وحدَها لم نرَ غيرَ عدد قليل منها

فى كلِّ أمة ، والأمثلةُ فقط ، والأمثلةُ هى ما نأتى به عما قليل ، هى التى تدلنا بوضوحٍ على تأثير هذه الصفات الأساسية القليلة فى حياة الأمم .

ولا يمكن عَرْضُ تقسيم نفسىّ للعروق إلا بالبحث المُفَصَّل فى روح مختلف الأمم ، وهـذا وحدَه يتطلب عدَّةَ مجلدات ، وترانى أقتصر لذلك على بيان خطوطها الـكبيرة .

و إنى ، حين أنظر إلى ما فى العروق البشرية من الصفات النفسية العامة فقط ، أرى إمكانَ تقسيم هذه العروق إلى أربعة أقسام ، وهى : العروق الابتدائية والعروق الدنيا والعروق الوسطى والعروق العليا .

والعروقُ الابتدائية هى التى لا تَجِدُ فيها أىَّ أثرٍ للثَّقافة ، وهى التى ظَلَّتْ فى الدور القريب من الحيوانية والذى جاوزه أهل عصر الحجر المنحوت من أجدادنا ، ومن العروق الابتدائية فى الوقت الحاضر نذكر الفِيُوجِيِّين والأستراليين .

وترى فوق العروق الابتدائية العروقَ الدنيا التى يُعَدُّ الزنوجُ عُنواناً لها على الخصوص ، وفى هذه العروق تَجِدُ بَصِيصَ حضارةٍ ، و بَصِيصَ حضارةٍ فقط ، وهذه العروق لم تُجَاوِزْ قطُّ وجوهَ الحضارة الغليظة ، و إن ورِثتْ حضاراتٍ راقيةً بفعل المصادفة ، كما اتفق لأهل سان دُومِنْغ .

ونذكر من العروق الوسطى الصينيين واليابانيين والمغول والأممَ الساميَّة ، فالعربُ والآشوريون والمُغولُ والصينيون واليابانيون أبدعوا نماذجَ حضاراتٍ راقية لم يجاوزها غير الأوربيين .

ويجب أن تُذْكَر الأممُ الهندية الأوربية بين العروق العليا على الخصوص ، وهذه الأمم هى التى أثبتَتْ قُدْرَتها على الاختراعات العظيمة فى الفنون والعلوم

والصِّناعة سواءٌ أفى عصر اليونان والرومان القديم أم فى الأزمنة الحديثة ، ولهذه العروق ترى الحضارةَ مدينةً بما انتهت إليه اليوم من المستوى العالى ، ومن أيدى هذه العروق خَرَجَ البخار والكهرباء ، وأقلُّ هذه العروق ارتقاءً ، كالهندوس على الخصوص، قد بَلَغ فى الفنون والآداب والفلسفة درجةً لم يَصِلْ إليها المُغُول والصينيون والساميُّون قَطُّ .

وليس من الممكن خَلْطُ ما بين الأقسام الأربعة المذكورة ، فالهُوَّةُ النفسية التى تَفْصِل بعضَها عن بعضٍ تظلُّ واضحة ، والصعوبةُ كلُّ الصعوبة فى تقسيم تلك الأقسام إلى أقسام أخرى ثانوية ، أجَلْ ، إن الإنكليزىَّ والإسپانىَّ والروسىَّ من الأمم العليا ، وترى الفروق بين هؤلاء عظيمةً جدًّا مع ذلك .

ويجب لتعيين تلك الفروق أن يُؤْخَذ كلُّ شعبٍ على حِدَةٍ وأن تُوصَف أخلاقه ، وهذا ما سنفعله بعدَ قليلٍ فى أمر شعبين فنُطَبِّق عليهما مِنْهاجَنا مُثْبِتين أهميةَ نتائجه .

والآن لا نستطيع أن نفعل غيرَ الإشارة باختصارٍ إلى طبيعة العناصر الرئيسة النفسية التى نتَمَكن بها من التفريق بين العروق .

ولا احتياجَ إلى الذهاب إلى الهَمَج الخُلَّص لنَجِدَ العروقَ الابتدائية والدنيا ما دامت الطبقاتُ الأوربية السفلى تَعْدِل الفطريين،والذى يُشَاهَد لدى تلك العروق على الدوام هو عجزُها عن التعقل ، أى عجزُها عن أن تَضُمَّ فى دماغها الأفكارَ التى أسفرت عنها الأحاسيسُ الماضية ، أو الألفاظَ التى تدلُّ على هذه الأفكار ، إلى الأفكارِ التى هى وليدة الأحاسيس الحاضرة ، وذلك للمقابلة بين الأفكارَيْن ولتَبَيُّن ما بينهما من تشابه واختلاف ، وعن هذا العجز عن التعقل تنشأ سرعةُ

تصديقٍ عظيمةٌ وفُقْدانٌ تامٌّ لروح النقد ، وفى الإنسان الراقى تَجِدُ العكس ، وفى الإنسان الراقى تَجِدُ قدرةً عظيمة على ضَمٍّ بعض الأفكار إلى بعض وعلى استخراج النتائج منها ، وفى الإنسان الراقى تَجِدُ مَلَكةَ النقد وروحَ الدقة ناميتين إلى الغاية .

وكذلك تتصف العروق الابتدائية والدنيا بضعف الانتباه وضَعْف التأمل إلى أقصى حدّ ، وبُنُموٍّ مَلَكةَ التقليد وبعادة استخراج النتائج العامة الفاسدة من الأحوال الخاصة وبالعجز عن ملاحظة ما يؤدى إليه الترَصد من النتائج المفيدة وبالعجز عن استنباط هذه النتائج ، وبتقلبٍ كبير فى الأخلاق وبغفلة عظيمة ، ووَحْيُ الساعة الحاضرة هو دليل هذه العروق ، وهى ، كعيسو (العيص) الذى هو مثالُ الرجل الابتدائىّ ، تَبيعُ مختارةً حقَّها فى البِكْرِيَّة القادمة فى مقابل صَحْنٍ حاضر من العدس ، وإذا ما عارض الإنسانُ عاجلَه بآجله وكان ذا هَدَف فسار وراءه بثبات فإنه يكون قد بلغ شأواً بعيداً من الرقىّ .

ومن شأن العجز عن البَصَر بالنتائج البعيدة للأعمال ، ومن شأن العَطَل من كلّ دليل إلا دليلَ الساعة الحاضرة ،أن يكون الفردُ ، والعرقُ أيضاً ، محكوماً عليهما بالبقاء فى طور منخفض جدًّا ، والأممُ ، كُلّما عَرَفت أن تَضْبُط غرائزها ، أى كلّما اكتسبت عزماً ، أى كلما استطاعت أن تسيطر على نفسها ، تكون قد أدركت أهمية النظام وضرورةَ التضحية بالنفس فى سبيل مَثَل عالٍ والارتقاء إلى الحضارة ، ولو وجب تقدير مستوى الأمم الاجتماعىّ فى التاريخ بمقياس وحيد لكانت درجةُ قابليةِ تلك الأمم للسيطرة على اندفاعاتها اللّاتَنَبُّهِيَّة هى ذلك القياسَ كما أرى ، والرومانُ فى القرون القديمة ، والإنكليزُ والأمريكيون فى الزمن الحديث ، هم عُنوانُ الأمم التى اتفقت لها تلك

الصفةُ إلى أبعد حَدّ ، وفى هذه الصفة تَجِدُ سِرّ عظمة هذه الأمم .

ومن اجتماع العناصر الروحية المختلفة المذكورة آنفاً ونُمُوِّها نُمُوًّا متقابلاً يتألف من الأمزجة النفسية ما يُسْتعان به فى تقسيم الأفراد والعروق .

ومن تلك العناصر الروحية ما هو خاصٌ بالخُلق ومنها ما هو خاصٌ بالذكاء .

وتختلف العروقُ العليا عن العروق الدنيا بالخُلق كما تختلف عنها بالذكاء ، وبالخُلق ، على الخصوص ، تختلف بعض الأمم العليا عن بعض ، ولهذا الأمر أهميةٌ اجتماعية عظيمة ، فيجب بيانه بوضوح .

يتألف الخُلق من امتزاج مختلف العناصر التى يُطْلِق عليها علماء النفس المعاصرون اسمَ المشاعر عادةً ، وذلك على نِسَبٍ مختلفة ، ومن بين تلك العناصر ذات الشأن المُهِمّ أذكرُ الثباتَ والنشاطَ وقابليةَ ضبط النفس بوجهٍ خاصّ ، أى الصفاتِ المُشْتَقةَ من الإرادة ، ومن عناصر الخُلق الأساسية نذْكُر الأدبَ أيضاً ، وإن كان الأدبُ خلاصةَ مشاعرَ مركبةٍ ، وأَقْصِد بكلمة الأدب احترامَ القواعد التى تقوم عليها حياة المجتمع ، وتدلُّ حيازة الأمة أدباً على حيازتها قواعدَ ثابتةً للسَّيْر وعدمِ ابتعادها عنها ، وتختلف هذه القواعد باختلاف الأزمنة والبلدان ، ويلوح الأدبُ بهذا أنه كثير التغير ، والأدبُ كثير التغير بالفعل ، غير أنه يجب أن يكون أدبُ الأمة فى زمن مُعَيّن غيرَ متغير ، وإذ كان الأدبُ وليدَ الخُلق ، لا الذكاء ، لا يكون وطيداً إلا إذا صار وِراثيًّا ، ومن ثَمّ غيرَ شعوريّ ، وعظمةُ الأمم بوجهٍ عامّ خاضعةٌ لمستوى أدبها على الخصوص .

وقد تتغير الصفات الذهنية بالتربية تغيراً قليلاً ، وتتفلت الصفاتُ الخُلقية من سلطان التربية تفلتاً تامًّا تقريباً ، وعند ما تُؤثِّر التربية فى الصفات الخُلقية لا يكون

هذا التأثير إلا عند ذوى الطبائع المحايدة الذين يكادون يكونون عاطلين من الإرادة والذين يَسْهُل عليهم أن يميلوا إلى حيث يُسَاقُون ، وترى هذه الطبائع المحايدة لدى الأفراد ، وهى قلما تُرى فى أمة بأَسْرها ، وهى إذا وُجِدَت فى الأمة لا يكون وجودها ذلك إلا فى أيام انحطاطها .

ومن السهل أن تنتقل اكتشافات الذكاء من أمة إلى أخرى ، وأما الصفات الخُلقية فلا تنتقل ، وهذه هى العناصرُ الأساسية الثابتة التى يختلف بها مزاج الأمم العليا النفسىُّ ، وتُمَثِّل الاكتشافاتُ المدينةُ للذكاء تُرَاثَ البشرية المشترك ، ويتألف من صفات الخُلق ومساوئه فى كلِّ أمة تُرَاثُ هذه الأمة الخاص ، ويُعَدُّ الخُلق كالصخرة الثابتة التى تَلْطِمها الأمواج يوماً بعد يوم فى عِدَّة قرون قبل أن تتمكن هذه الأمواجُ من ثَلْم أطرافها ، ويَعْدِل الخُلق عنصرَ النوع الراسخ وزَعْنَفَةَ السمك ومِنْقارَ الطير ونَابَ الضَّارى .

وخُلق الأمة ، لا ذكاؤُها ، هو الذى يُعَيِّن تطورَها فى التاريخ ويُنَظِّم مصيرَها ، وهو يُوجَد ، دائماً ، خَلْفَ الأهواء الظاهرة للمصادفة العاجزة وللعناية السُّبْحانية الوهمية وللقَدَر الحقيقىِّ الذى يُسَيِّرُ الرجال فى أعمالهم وَفْقَ مختلف العقائد .

وللأخلاق نفوذٌ ذو سلطان قوىّ على حياة الأمم ، على حين يبدو الذكاء ذا نفوذٍ ضعيف فى الغالب ، أَجَلْ ، كان للرومان فى دور الانحطاط ذكاء أرفعُ من ذكاء أجدادهم الأشداء ، بَيْدَ أنهم كانوا فى ذلك الدور قد أضاعوا صفاتهم الخُلقية من ثبات ونشاط وعناد واستعداد للتضحية فى سبيل مَثَلٍ عالٍ ومن احترامٍ وثيق للقوانين ، أى أضاعوا هذه الصفاتِ التى كانت سبب عظمة أجدادهم ، وبفضل الخُلق يَضَع ستون ألف إنكليزىٍّ تحت نِيرهم ٢٥٠ مليونٍ هندوسىٍّ ،

مع أن كثيراً من الهندوس يَعْدِل الإنكليزَ ذكاءً على الأقل ، ومع أن كثيراً من الهندوس يفوق الإنكليزَ إلى ما لا حَدَّ له من الذوق الفنيِّ وعُمْقِ المباحث الفلسفية ، وبالُخلق غدا الإنكليزُ على رأس أعظم إمبراطورية استعمارية عَرَفها التاريخ ، وعلى الُخلق تقوم متانة المجتمعات والنُّظُم والإمبراطوريات ، والُخلق هو الذى يجعل الأمم تَشْعُر وتَسِير ، والأممُ لم تَظْفَر قَطُّ بكبيرِ طائلٍ من إعمال عقلها وقَدْحِ زناد فكرها كثيراً[1] .

ومن مزاج العروق النفسيِّ يُشْتَقُّ تصورُها للعالَم وللحياة ومن ثَمَّ سيرها ، وسنأتى بأمثلة على ذلك عما قليل ، والفردُ ، إذْ يَتَأثرُ بالأمور الخارجية من بعض الوجوه ، يُحِسُّ ويعمل على وجه يختلف عما يَشْعُر به الأفراد الذين لهم مزاجٌ نفسيٌّ مختلف عن مزاجه ويُفَكِّرون فيه ويصنعونه ، وهذا يؤدى إلى النتيجة القائلة إن الأمزجة النفسية القائمةَ على مُثُل شديدة الاختلاف لا يدرك بعضُها كُنْهَ بعض ، وما كان من تنازع العروق المتأصل مصدرُه ما بين هذه العروق من تناقض فى

---

(١) مصدر ما تجده من ضعف كبير فى كتب علماء النفس المحترفين ومن فائدة عملية قليلة فيها هو أنهم حصروا جهودهم فى دراسة الذكاء مهملين دراسة الخلق إهمالا تاماً تقريباً ، ولم أر غير مسيو ريبو فى كتابه النفيس « منطق المشاعر » من استطاع أن يبين أهمية الخلق وأن يحقق أن الخلق هو الأساس الحقيقىّ للمزاج النفسى ، ومن الإصابة قول ريبو : « إنما الذكاء وجه ثانوى فى التطور النفسى ، والخلق هو المثال الأساسى ، وكأنى بالذكاء يؤدى إلى الهدم إذا ما بلغ درجة عالية من النمو » .

وإلى دراسة الخلق يجب أن تتجه الهمم كما أحاول بيانه هنا ، وذلك إذا ما أريد وصف روح الأمم المقارن ، وعلم مهم يشتق منه التاريخ والسياسة كهذا العلم لم يكن موضع بحث جدى قط ، وكان يعسر علينا أن ندرك علة ذلك لو لم نعلم أنه لا ينال إلا فى الأسفار الطويلة ، لا فى المختبرات ولا فى الكتب ، ولا شىء يبشر بأنه سيكون محل عناية علماء النفس المحترفين مع ذلك ، واليوم ترى هؤلاء العلماء يتركون ، بالتدريج ، دائرة اختصاصهم لينصرفوا إلى مباحث علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء .

الأخلاق ، ومن المتعذر فهمُ شيء من التاريخ ما لم يَقُمْ في الذهن ، دائماً ، ذلك المبدأ القائل إن العروق المختلفة لا تَقْدِر على الشعور ولا على التفكير ولا على السير على طِراز واحد فلا يدرك بعضُها أمرَ بعض لهذا السبب ، ومما لا شكّ فيه أن في لغات مختلف الأمم ألفاظاً مُشاعَة فتَظُنّ هذه الأمم أن هذه الألفاظَ مترادفةٌ ، بَيْد أن هذه الألفاظَ المُشاعة تُثِير من المشاعر والخيالات وطُرُز التفكير ما يباين التي تساور سامعيها ، ولابدَّ من العيش بين أممٍ ذاتِ مزاج نفسيّ مخالف لمزاجنا مخالفةً محسوسة لتَبَيُّن مَدَى الهُوَّة التي تَفْصِل بين أفكار مختلف الأمم ، حتى لو وقع الاختيار في تلك الأمم على أناس نالوا تربيتنا ويتكلمون بلغتنا ، ويُمْكِنَ الباحثَ ، من غير أن يحتاج إلى بعيدِ الأسفار ، أن يستجليَ ذلك عند تحقيقه الفرق النفسيّ الكبير بين الرجل المتمدن والمرأة ولو كانت هذه المرأةُ عظيمةَ التعليم ، وقد يكون هذان ذَوَيْ مصالحَ متماثلةٍ ومشاعرَ متماثلةٍ ، ولكنهما لا يتشابهان في تسلسل أفكارهما أبداً ، فهما قد فُطرا على مِثالَيْن بَلَغا من التباين ما يتعذر أن يتأثَّرا معه على وجه واحد بالأمور الخارجية ، وما بين منطقهما من اختلافٍ يكفي لإحداث هُوَّةٍ بينهما لا يمكن اقتحامُها .

وما بين مزاج مختلف العروق النفسيّ من هُوَّة يوضح لنا السببَ في أن الأمم العليا لم تُوَفَّق قَطُّ لحمل الأمم المتأخرة على اعتناق حضارتها ، وما كان من الرأي الشائع القائل إن التعليم يمكنه أن يُحَقِّق مثل هذا الأمر هو من أشأم الأوهام التي صدرت عن نظريِّ العقل الصِّرْف ، ولا مِراءَ في أن التعليم يَمْنَح الشخصَ الذي وُضِع في أدنى درجات السُّلَّم البشريّ جميعَ ما لدى الأوربيّ من المعارف بفضل ما يكون عند أحطِّ الأفراد من الذاكرة التي لم تكن مقصورة على الإنسان ، ومن

السهل أن يُجْعَل من الزِّنْجِيِّ أو اليابانيِّ محامياً أو حاملًا لشهادة البكالوريا ، بَيْدَ أن ذلك لا يعطيه سوى طِلاء سطحيّ غيرِ مُؤَثِّر فى مزاجه النفسيِّ ، وإنما الذى يَعْجِز التعليم عن مَنْحه إياه هو ما يَتَّصِفُ به الغربيون من وجوه تفكيرٍ ومنطق ، ومن أخلاقٍ على الخصوص ، لصدوره عن الوِراثة وحدَها ، وقد يَجْمَع ذلك الزِّنْجيُّ أو اليابانيُّ جميع الشهادات الممكنة ، ولكنه لا يرتقى إلى مستوى الأوربيِّ العاديِّ مطلقاً ، ومن السهل أن يُلَقَّن الزنجيُّ فى عشرِ سنين مِثْلَ ما يُلَقَّنه الإنكليزيُّ الحَسَنُ الثَّقافة ، ولكن قد لا تكفى عِدَّةُ قرونٍ لأن تَجْعَل منه إنكليزيًّا حقيقيًّا ، أى رجلًا يسير كالإنكليزيِّ فى مختلف أحوال الحياة التى يُوضَعُ فيها ، وليس فى سوى الظاهر تغييرُ أمةٍ للغتها أو مزاجها أو معتقداتها أو فنونها بَغْتَةً ، وتغييراتٌ كهذه لا تكون حقيقيةً فى الأمة إلا إذا استطاعت هذه الأمة أن تُحَوِّل روحها .

الفصل الرابع

تفاوت الأفراد والعروق التدريجي

يكون التفاوت بين أفراد العرق الواحد بنسبة ارتقاء هذا العرق — ما بين أفراد العروق المتأخرة من مساواة نفسية — يجب تقدير الفروق بين العروق بالمقابلة بين طبقاتها العليا ، لا بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى — يؤدى تقدم الحضارة إلى زيادة التفاوت بين الأفراد ، وإلى زيادته بين العروق — نتائج هذا التفاوت — الأسباب النفسية التى تحول دون اتساعه كثيراً — أفراد العروق العليا كثيرو التفاوت ذكاء وقليلو التفاوت أخلاقاً — كيف توجب الوراثة رجوع الأفضليات الفردية فى العرق إلى مثاله المتوسط — تؤيد المشاهدات التشريحية ما بين العروق والأفراد والجنسين من التفاوت النفسى التدريجى .

لا تمتاز العروق العليا من العروق الدنيا بصفاتها النفسية والتشريحية وحدَها ، بل تمتاز منها باختلاف العناصر التى تتألف منها أيضاً ، وفى العروق الدنيا يكون جميع الأفراد من أىّ الجنسين على مستوًى نفسيٍّ متماثل تقريباً ، وَهؤلاء الأفرادُ ، لِما بينهم من تشابهٍ ، تَجِدُهم عُنواناً للمساواة التامة التى يَحْلُمُ بها الاشتراكيون فى الوقت الحاضر ، و بالعكس تَجِدُ السُّنَّةَ عند العروق العليا فى تفاوت أفراد هذه العروق وجِنْسَيْها تفاوتاً عقليًّا .

وكذلك لا يُقَاس مَدَى الفروق بين الأُمم بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى ، بل بالمقارنة بين طبقاتها العليا ، فالهندوسُ والصينيون والأُور بيون لا يتفاوتون بطبقاتهم الوسطى

إلا قليلًا ، وهم بالعكس يتفاوتون بطبقاتهم العليا تفاوتاً عظيماً .

وكُلَّمَا تقدمت الحضارةُ سارت العروقُ، وكذلك أفرادُ العروق العليا على الأقل، نحو التفاوت شيئاً فشيئاً ، وتؤدى الحضارة الحاضرة إلى تفاوت الناس بالتدريج ، لا إلى تساويهم ذهنيًّا ، وذلك خلافاً لنظرياتنا فى المساواة .

والحقُّ أن من أهمِّ نتائج الحضارة من جهةٍ هو تفاوتُ العروق بعمل ذهنىّ تَفْرِضه الحضارة على الشعوب التى بلغت درجة رفيعة من الثَّقافة فيَعْظُم كلَّ يوم ، وهو من جهة أخرى إحداثُ تفاوت تدريجىّ فى مختلف الطبقات التى يتألف منها كلٌّ شعب متمدن .

وتقضى شروط التطور الصِّناعىِّ الحديث على الطبقات الدنيا فى الأمم المتمدنة بالعمل الضَّيِّق الذى يَحُطُّ ذكاءها بدلاً من تنميته ، ومنذ مئة سنة كان العاملُ صانعاً حقيقيًّا قادراً على صنع أية آلة كالساعة مثلاً ، واليومَ غدا العامل صانعاً بسيطاً لا يصنع غيرَ قطعة واحدة فيَقْضِى حياتَه فى ثَقْب الثُّقُوب المتماثلة أو صَقْلِ الأداة ذاتِها أو سَوْقِ الآلة نفسِها ، وهذا ما يوجب هُزَالَ ذكائه بسرعة ، وعكسُ ذلك أمرُ المستصنِع أو المهندس الذى تَضْغَطه الاكتشافاتُ والمنافسة فتَحْفِزه إلى جَمْع عدد من المعلومات وروحِ المبادرة والاختراعِ يزيد عما كان يجمعه منذ قرنٍ بدرجات ، وإذ كان دماغُه يعمل باستمرارٍ على هذا الوجه فإنه يخضع للسُّنَّة المسيطرة على جميع الأعضاء ، أى أنه ينمو مقداراً فمقداراً .

وكان تُوكْفيل قد أشار إلى ذلك التفاوت التدريجىِّ بين الطبقات الاجتماعية فى زمن كانت الصِّناعة فيه بعيدةً من درجة التقدم التى انتهت إليها اليوم فقال : « كلما أُوغِلَ فى تطبيق مبدأ توزيع الأعمال غدا العاملُ أشدَّ ضَعفاً وأضيقَ عقلاً

وأقلَّ استقلالاً مما كان عليه ، وكُلَّما تقدمت الصِّناعة تقهقر الصانع ، فزاد ما بين العامل وربِّ العمل من فَرْق » .

واليومَ يُمْكِن عدُّ الأمة العليا من الناحية الذهنية كهَرَمٍ مُدَرَّجٍ يتألف من أعرض أقسامه طبقاتُ الشعب الدنيا و يتألف من درجاته العليا طبقاتُ الشعب الذكية[1] ، وتتألف ذِرْوتُه من صَفْوَة قليلة من العلماء والمخترعين والمتفننين والكتَّاب ، وهذه الزمرةُ الأخيرة ، و إن كانت صغيرةً ، إذا ما قِيسَتْ ببقية الشعب ، هى ما يقوم عليه وَحده مستوى البلد فى سُلَّم الحضارة الذهنيِّ ، وتكفى إزالتها لزوال كلِّ ما فيه مَجْدُ الأمة ، ومن الصواب قول سان سِيمُون : « إذا ما أضاعت فرنسة بغتةً الخمسين الأُوَل من كلٍّ من علمائها ومتفننيها ومستصنعيها وزُرَّاعها غَدَتْ جسماً بلا روح وجُثَّةً بلا رأس ، وهى إذا أضاعت جميع موظفيها لم يُصِبها من وراء ذلك غيرُ ضرر يسير » .

وكلَّما تقدمت الحضارة زاد التفاوت بين أقصى طبقات الشعب ، و يَعْظُم هذا التفاوت على نسبةٍ هندسية فى زمنٍ ما ، ولو سار الزمن طليقاً ولم تَعُقْه عوامل الوراثة لَرُئيت المسافةُ بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من الناحية الذهنية قد عَظُمَت

---

(١) قلت الذكية ، ولم أضف إلى قولى كلمة المتعلمة ، وذلك لأن من الخطأ الخاص بالأمم اللاتينية أن يفترض وجود مطابقة بين التعليم والذكاء ، فالتعليم يقتضى حيازة مقدار من الذاكرة ، وهو لا يقتضى لتحصيله أية صفة من صفات الحصافة والتأمل والمبادرة وروح الاختراع ، وليس من القليل أن تجد أناساً حاملين لشهادات كثيرة مع كبير غباوة ، على حين تبصر أفراداً كثيرين قليلى التعليم رفيعى الذكاء ، ولذلك تكون طبقات الهرم العليا مؤلفة من عناصر مستعارة من جميع الطبقات ، وتشتمل كل مهنة على عدد قليل من ذوى النفوس الممتازة ، ومع ذلك يلوح ، وفق سنن الوراثة ، أن الطبقات الاجتماعية العليا هى أكثر الطبقات احتواء على من هم من ذوى النفوس الممتازة ، وأن فى هذا سر أفضلية هذه الطبقات .

فَغدَتْ كالمسافة التى تَفْصِل الأبيضَ عن الزِّنْجِىِّ أو التى تَفْصِل الزِّنْجِى عن القرد .

بَيْد أن هنالك أسباباً كثيرة تحول دون تمام ذلك التفاوت الذهنىِّ بين الطبقات الاجتماعية ، مهما بَلَغ ، بتلك السرعة التى يمكن القولُ بها نظريًّا ، والواقعُ ، وهو أولُ تلك الأسباب ، هو أن التفاوت لا يكون إلا فى الذكاء ، وهو لا يتناول الخُلق أو يتناوله قليلاً ، ونحن نعلم أن الخُلقَ ، لا الذكاء ، هو الذى يُمَثِّل دوراً مهمّا فى حياة الشعوب ، والسببُ الثانى هو أن الجموع تَهْدِف بنظامها وقِوَامها إلى أن تصير صاحبة السلطان فى الوقت الحاضر ، وإذْ كانت الجموعُ باديةَ الحقد على الأفضليات الذهنية فإن كلّ أرِستوقراطيةٍ ذهنية مقضىٌّ عليها ، على ما يحتمل ، بأن تُقَوَّضَ بعنفٍ فى ثَوْراتٍ دَوْريَّة كلّما نَظَّمَت الجموعُ الشعبية شؤونَها ، وذلك كما قُضِيَ على طبقة الأشراف القديمة منذ قرن ، وإذا ما قُيِّضَ للاشتراكية أن تقهر بلدًا كان بقاؤها بعض الزمن موقوفاً على إزالة جميع الأفراد الذين يحوزون أفضليةً فيجاوزون المستوى المتوسط ولو قليلاً .

وإذا عَدَوْت ذينك السببين ، المصنوعين لصدورهما عن مقتضيات الحضارة المتقلبة ، وجدتَ سبباً ثالثاً أعظمَ أهميةً منهما لأنه عُنوانُ سُنَّةٍ طبيعية ثابتة ، ويقوم هذا السبب على مَنْع خِيار الأمة من الافتراق عن الطبقات الدنيا افتراقاً ذهنيّا كبيراً فضلاً عن افتراقهم عنها افتراقاً تامًّا ، والحقُّ أنك تَجِدُ ، بجانب مقتضيات الحضارة الحاضرة العاملة على تفاوت أفراد العِرْق مقداراً فمقداراً ، سُنَنَ الوِراثة الشديدة الوطأة التى تَهْدِف إلى إزالة الأفراد الذين يجاوزون المستوى المتوسطَ مجاوزةً جَلِيَّةً أو إلى إعادتهم إلى هذا المستوى المتوسط .

وهنالك مشاهداتٌ قديمة نصَّ عليها جميع العلماء الذين عالجوا مسئلة الوِراثة فتُثْبت هذه المشاهداتُ بالحقيقة أن أبناء الأُسَر الرفيعة الذكاء تَفْسُد عاجلاً أو آجلاً (عاجلاً على الأرجح) ، فيؤدى فسادها إلى زوالها التام .

إذَنْ ، لا ينال الرجلُ سموًّا ذهنيًّا كبيراً إلا ليترك خلفه ذريةً فاسدين ، والواقعُ هو أن ذِرْوة الهَرَم الاجتماعيِّ التي تكلمتُ عنها آنفاً لا تدوم إلا بما تستعيره من العناصر التي هي تحتها ، ولو حَدَث أن جُمِعَ الخيارُ كلُّهم في جزيرة منفردة لأسفر توالدهم بسرعةٍ عن ظهور عِرْقٍ مصاب بضروب الفساد ومحكومٍ عليه بالأفول من فَوْره ، ويمكن تشبيه الأفضليات الذهنية العظيمة بالنبات الذي ضَخَّمه البستانيُّ بفنِّه فلا يَلْبَث أن يموت أو يعودَ إلى مثال نوعه المتوسط إذا ما تُرِك وشأنَه ، وذلك لِمَا في نوعه المتوسط من السلطان القويِّ الذي يُمَثِّل سلسلة الأصول الطويلة .

وتدلُّ دِراسة مختلف الأمم دراسةً دقيقة على أن أفراد العِرْق الواحد ، إذا تفاوتوا في الذكاء كثيراً ، لا يتفاوتون إلا قليلاً في الخُلق الذي هو صخرة ثابتة على الرغم من الزمن كما بيَّنْت ، ولذلك يجب علينا أن ننظر إلى العرق من ناحيتين مختلفتين عند البحث فيه ، فالعرقُ من الناحية الذهنية لا قيمةَ له إلا بصفوة قليلة من الناس يَتِمُّ بفضلها ما يتفق للحضارة من تقدم في العلوم والآداب والصناعات ، والعرقُ من الناحية الخُلقية جديرٌ بأن يُنْظر إلى طبقته المتوسطة وحدَها ، والأُممُ مدينةٌ في قوتها لمستوى هذه الطبقة المتوسطة على الدوام ، والأممُ يمكنها أن تستغنيَ عن صَفْوتها الذهنية على التحقيق ، لا عن درجة معينة من المستوى الخُلقي ، وهذا ما نُوضِحه عما قليل .

وبينما يتفاوت أفراد العِرْق في غضون القرون تفاوتاً ذهنيًّا تدريجيًّا على ذلك

الوجه ترى هؤلاء الأفرادَ فى كلِّ وقت يترجحون من الناحية الخُلقية حول مثال ذلك العرق المتوسط ، وإلى هذا المثال المتوسط الذى يُرْتَقَى إليه ببطء ينتسب معظم أفراد الأمة ، وتَجِدُ هذا الأصل الأساسىّ مَكْسُوًّا لدى الأمم العليا على الأقل بطبقةٍ رقيقة من ذوى النفوس العالية ذاتِ أهميةٍ من ناحية الحضارة غيرِ ذاتِ أهميةٍ من ناحية العرق ، وتزول تلك الطبقة الرقيقةُ فتتجدد ، دائماً ، على حساب الطبقة المتوسطة التى لا تتغير إلا رويداً رويداً ، وذلك لأن التغيراتِ الدقيقةَ تتطلب تراكماً نحو معنًى واحد فى قرون كثيرة لِتَغْدُوَ دائمة .

وقد استعنتُ بمباحثَ تشريحيةٍ صِرْفة منذ بضع سنين فانتهيتُ إلى أفكارٍ فى تفاوت الأفراد والعروق تفاوتاً أَسْتَنِد فى إثباته هنا إلى أسباب نفسية ، وإذ يؤدى كلا البحثين إلى نتائجَ واحدة فإننى أقتصر على ذكر بعض النتائج التى وصلتُ إليها فى دراستى السابقة ، وقد وفِّقْتُ لهذه النتائج من المقابلة بين ألوف من الجماجم القديمة والحديثة الخاصة بعروق مختلفة ، وإليك أهمّ ما تمّ لى :

« إذا ما نظرت إلى سلاسلَ من الجماجم ، غيرَ ملتفتٍ إلى الأحوال الفردية ، وجدتَ صِلَةً وثيقة بين حجم الجمجمة والذكاء ، وهنالك ترى أن الذى يَميز العروقَ الدنيا من العروق العليا لا يقوم على الفروق الضئيلة فى الحجم المتوسط لجماجمها ، بل يقوم على الأمر الجوهرىّ القائل إن العرق الأعلى يشتمل على عدد من الأفراد ذوى الدماغ الكثير النموّ على حين تُبْصِر العرق الأدنى عاطلاً من مثل هؤلاء الأفراد ، ولذلك تتفاوت العروق بمن فيها من الأفراد الذين يمتازون من جموعها ، لا بمجموعها ، وإذا عَدَوْتَ العروق الدنيا البالغة أقصى التأخر لم تَجِدْ فَرْقَ الجماجم المتوسط عظيمَ الاتساع بين أمة وأمة .

« وإذا قابلتَ بين جماجم مختلف العروق البشرية فى الحال والماضى أبصرتَ أن العروق التى يتفاوت حجمُ جماجمها أكثرَ من تفاوت جماجم غيرها هى العروق التى تكون أعرقَ من سواها فى الحضارة وأن العِرْقَ كلَّما تمَدَّن تفاوتَ حَجْم جماجم الأفراد الذين يتألف منهم ، ومن هنا نستنتج أن الحضارة لا تقودنا إلى المساواة الذهنية ، بل إلى تفاوت عميق على الدوام ، ولا تكون المساواة التشريحية والفِزْيولوجية إلا فى أفراد العروق الدنيا ، وإذ يتعاطى أفراد القبيلة الوحشية أعمالاً واحدة فإن الفرق بينهم يكون ضئيلاً بحكم الضرورة ، وبالعكس يكون الفرق عظيماً بين الفَلَّاح الذى لا يجاوز ما عنده من اللغة ثلاثَمئة كلمة والعالِم الذى يكون لديه مئةُ ألف كلمة وما يقابلها من الأفكار .

« وما يؤدى إليه تقدم الحضارة من تفاوت بين الأفراد يَتَجَلى بين الجنسين أيضاً ، ولدى الأمم الدنيا أو فى الطبقات السفلى من الأمم العليا يتقارب الرجل والمرأة من الناحية الذهنية ، وبالعكس كُلَّما تمَدنت الأمم تفاوت الجنسان شيئاً فشيئاً .

« وإذا قَصَرْنا المقابلة على رجالٍ ونساء متساوين سناً وطولاً ووزناً ، وذلك كما صنعتُ ، وَجَدْنا تفاوتَ الجنسين تفاوتاً مُطَّرِداً بنسبة درجة الحضارة ، وتبدو هذه الفروقُ ضعيفةً فى العروق الدنيا ، وتبدو عظيمة فى العروق العليا ، وفى الغالب لا تكاد جماجم النساء فى العروق العليا تكون أكثرَ نُمُوًّا من جماجم نساء العروق الدنيا ، وبينا تَجِدُ متوسطَ جماجم الباريسيين من أضخم الجماجم تَجِدُ متوسط جماجم الباريسيات لا يزيد حجماً على أصغر الجماجم التى تُشاهَد ، وهذه الجماجمُ

النسوية هى فى مستوى جماجم الصينيات تقريباً ، وهى لا تفوق جماجمَ نساء كَلِدُونية الجديدة إلا قليلاً[1] » .

(١) انظر إلى الرسالة التى ألفها الدكتور غوستاف لوبون فى سنة ١٨٧٩ فسماها « مباحث تشريحية ورياضية فى فروق حجم الدماغ وفيما بين هذه الفروق والذكاء من صلات » ، وقد قرظ مجمع العلوم وجمعية علم وصف الإنسان هذه المذكرة .

الفصل الخامس

تكوين العروق التاريخية

كيف تكونت العروق التاريخية – الأحوال التى تؤدى إلى امتزاج عروق مختلفة لتكوين عرق واحد – تأثير عدد الأفراد المتواجهين وتفاوت أخلاقهم وبيئاتهم إلخ – نتائج التوالد – أسباب انحطاط المولدين العظيم – تقلب ما يسفر عنه التوالد من الأخلاق النفسية الجديدة – كيف تثبت هذه الأخلاق – أدوار التاريخ الحرجة – التوالد عامل جوهرى فى تكوين العروق الجديدة ، وهو ، أيضاً ، عامل قوى فى انحلال الحضارات – أهمية نظام الطوائف – تأثير البيئات – لا تؤثر البيئات إلا فى العروق الجديدة التى هى فى دور التكوين بعد أن أوجب توالدها انحلال أخلاقها الموروثة – لا تأثير للبيئات فى العروق القديمة – أمثلة مختلفة – معظم العروق التاريخية بأوربة لا يزال فى دور التكوين – نتائج سياسية واجتماعية – لماذا أوشك دور تكوين العروق التاريخية أن ينقضى .

بَيَّنا ، فيما تقدم ، أننا لا نستطيع أن نَجِد لدى الأمم المتمدنة عروقاً حقيقيةً بالمعنى العلميِّ ، بل نَجِدُ عروقاً تاريخية فقط ، أى عروقاً كَوَّنَتها مصادفات الفتوح والهجرة والسياسة وما إلى ذلك ، ومن ثَمّ تـكونت بفعل تمازج أفرادِ مختلفى الأصول .

وكيف تنتهى هذه العروق المتباينة إلى التمازج وإلى تكوين عرق تاريخىّ ذى أخلاق نفسية واحدة ؟ هذا هو الذى نبحث فيه .

وأولُ ما نلاحظه هو أن العناصر المتواجهة اتفاقاً لا تمتزج فى كلِّ وقت ، ومن ذلك أن الشعوب الألمانية والمَجَريَّة والسلافية وغيرَها من التى تعيش فى الدولة

التسوية تؤلِّف عروقاً شديدةَ الاختلاف فلم تُبْدِ ميلاً إلى الامتزاج قطُّ ، وكذلك الإيرلنديون الذين يسيطر عليهم الإنكليز لم يختلطوا بهؤلاء قطُّ ، وأما الأممُ المنحطة تماماً ، كأصحاب الجلود الحُمْر (اليُورُوج) والأوستراليين والتَّسْمانيِّين ، فإنها تزول بسرعة عند مصاقبتها للأمم العليا فضلاً عن أمر امتزاجها بها ، وقد دلَّت التجربة على أن كلّ أمة من الأمم الدنيا تزول حتماً إذا ما واجهت أمة عالية .

وهناك ثلاثةُ شروطٍ لا بُدّ من اجتماعها لامتزاج العروق وتأليفها عرقاً جديداً يكون على شيء من التجانس : فالشرطُ الأول هو ألاَّ يكون تفاوت العروق المتوالدة كبيراً فى العدد ، والشرطُ الثانى هو ألاَّ يكون اختلاف هذه العروق فى الأخلاق عظيماً ، والشرطُ الثالث هو أن تَظَلّ هذه العروقُ خاضعةً لبيئات واحدة زمناً طويلاً .

والشرطُ الأول من هذه الشروط على جانب عظيم من الأهمية ، وذلك أن عدداً صغيراً من البِيضِ إذا ما نُقِل إلى شعب كثير العدد من الزنوج زال بعد بضعة أجيال من غير أن يترك أثراً فى دم ذراريه ، وعلى هذا الوجه غاب جميع الفاتحين الذين قهروا شعوباً كثيرةَ العدد ، ومن الممكن أن يكون هؤلاء الفاتحون قد تركوا خلفهم حضارتهم وفنونهم ولغتهم ، كما اتفق للآتين فى بلاد الغول وللعربِ فى مصر ، ولكنهم لم يتركوا دمَهم .

وللشرط الثانى من تلك الشروط كبيرُ أهميةٍ أيضاً ، وذلك أن مما لا مِراء فيه أن العروق الشديدة الاختلاف ، كالبِيضِ والسُّود مثلاً ، تمتزج فى نهاية الأمر ، غير أن ما يُسْفِر عنه مثل هذا التوالد من المُوَلَّدين هو ظهورُ شعب أحطّ من العروق التى اشْتُقّ منها بمراحل ، هو ظهورُ شعب كثير العَجْز عن ابتداع حضارة أو إدامتها ، والسببُ فى ذلك هو أن تأثير الوِراثات المتباينة يَفُك الآدابَ والأخلاق ، ومما

حَدَث أن مُوَلَّدين من البيض والزنوج ، كما فى سان دُومِنْغ ، وَرِثُوا اتفاقاً حضارةً رفيعة ، فلم تَعتَمّ هذه الحضارة أن سَقَطَت إلى دَرَكة الانحطاط ، وقد يكون التوالدُ عاملَ تقدم إذا وقع بين عروق عالية متقاربة كالإنكليز والألمان فى أمريكة ، والتوالدُ يكون عاملَ انحلال على الدوام إذا كانت تلك العروقُ متباينةً جِدًّا ، ولو كانت من العروق العالية(١) .

وتوالدُ الشعبين يَعْنِي تغييرَ مزاجهما الجُثْمانىّ ومزاجهما النفسىّ ، والتوالدُ هو الوسيلة الوحيدة لتحويل أخلاق الشعوب تحويلاً أساسيًّا ، والوِراثةُ إذ كان لا يَفُلُّها إلا الوِراثة فإنها تُؤَدّى مع الزمن إلى ظهور عِرْق جديد ذى صفات جُثْمانية ونفسية جديدة .

وتَظَلّ الأخلاقُ التى تظهر على ذلك الوجه مذبذبةً ضعيفةً إلى الغاية فى بدء الأمر ، ولا بُدّ ، لثباتها ، من رُكامٍ وِراثىّ طويل على الدوام ، وأولُ أثر للتوالد بين مختلف العروق هو القضاء على روح هذه العروق ، أى على مجموع الأفكار والمشاعر المشتركة التى تتألف منها قوة الأمم والتى لا وجودَ لأمةٍ ولا لوطنٍ بغيرها ، وذلك هو أحرج أدوار تاريخ الأمم ، وذلك هو دور البدء والتَّحَسُّس الذى لا مَناصَ من مجاوزة الجميع له ، لِما لا تَجِدُ أمةً أوربيةً غيرَ قائمةٍ على أنقاض الأمم الأخرى ،

(١) ترى البلدان التى يكثر فيها المولدون محكوماً عليها بالفوضى ، ما لم تهيمن عليها يد حديدية ، وذلك كما هو واقع فى المكسيك وكما سيحدث فى البرازيل لا ريب ، وفى البرازيل لا يؤلف البيض سوى ثلث السكان ، وأما بقية هؤلاء فمن الزنوج والخلاسيين ، ومن الصواب قول أغاسيز الشهير : « إنه يكفى الإنسان أن يكون فى البرازيل لكيلا ينكر أمر الانحطاط الذى ينشأ عن توالد لا تجد له مثيلا فى مكان آخر ، ويقضى هذا التوالد على أطيب الصفات فى البيض أو فى السود أو فى الهنود (سكان أمريكة الأصليين) على السواء ، ويؤدى هذا التوالد إلى ظهور مثال يقصر عنه الوصف لما فيه من ضعف جثمانى ونفسى » .

وذلك هو الدور المملوء بالمنازعات الداخلية و بتصاريف الدهر فلا ينقضى قبلَ استقرار الأخلاق النفسية الجديدة .

ومما تقدم ترى أنه يجب عدُّ التوالد عاملاً أساسياً فى تكوين العروق الجديدة وعاملاً قوياً فى انحلال العروق القديمة ، ومن الصواب ، إذَنْ ، أن اجْتَنَبَت الأممُ التى بلغت درجة رفيعة من الحضارة مخالطةَ الأجانب ، ولولا نظامُ الطوائف العجيبُ لرأى لفيفُ الآريين الذى استولى على الهند نفسَه غارقاً بسرعة فى جماعة السُّودِ الكبيرة التى كانت تحيط به من كلِّ جانب ولَمَا ظهرت أيةُ حضارة فى تلك البلاد العظيمة ، ولو لم يحافظ الإنكليز فى أيامنا على مثل ذلك النظام عملياً فتوالدوا هم وأبناء البلاد الأصليون لَخَسِروا إمبراطورية الهند العظمى منذ زمن طويل ، أَجَلْ ، قد تَفْقِد الأمة أشياءَ كثيرةً وتُعانِي مصائبَ كثيرة ثم تنهضُ بعد ذلك ، ولكنها تَفْقِد كلَّ شىء فلا تنهض أبداً إذا أضاعت روحها .

ويقوم التوالدُ بدَوْره المُخَرِّب ثم بدَوْره المُبْدِع ، اللذيْن تكلمت عنهما فيما تقدم ، عند ما تغدو الحضاراتُ التى تكون فى دور الانحطاط فريسةَ الغُزاة المسالمين أو المقاتلين ، ويُقَوِّض هذا التوالدُ دعائمَ الحضارة القديمة لتقويضه روحَ الأمة التى تُمْسِكها ، وهو يوجب ابتداعَ حضارة جديدة ما دامت الأخلاق النفسية القديمة للشعوب المتقابلة قد زالت ، وما دامت قد بَدَتْ أخلاقٌ جديدة فى طور التكوين بفعل أحوال الحياة الجديدة .

وفى العروق التى تكون فى دور التكوين بعد أن خَسِرَت صفاتِها الموروثةَ بوِراثات معاكسة ، وفى هذه العروق فقط ، يبدو تأثيرآخر العوامل المذكورة فى بدء هذا الفصل : يبدو تأثيرُ البيئات ، وتأثيرُ البيئات هذا ، وهو ضعيفٌ إلى

الغاية فى العروق القديمة ، عظيمٌ إلى الغاية فى العروق الجديدة ، و بيانُ الأمر أن التوالد ، حين يَهْدِمُ الأخلاقَ النفسية الموروثة التى دامت عِدَّةَ قرون ، يُحْدِث لوحًا مَلِسًا فيُقيم عملُ البيئات عليه بناءه فى قرون كثيرة ثم يُوَطِّد الأخلاقَ النفسية الجديدة ، وهنالك ، وهنالك فقط ، يكون قد تَكوَّن عِرْقٌ تاريخىٌّ جديد ، وعلى هذا الوجه تَكَوَن عِرْقُنا .

والبيئاتُ ، ماديةً كانت أو أدبية ، ذاتُ قوة أو ضَعْف بحسب الأحوال ، و بهذا نفسر السبب فى تناقض ما دار حول تأثيرها من الآراء ، وتأثيرُ البيئات يكون عظيمًا فى العروق التى هى فى دور التكوين كما رأينا ، ولكننا إذا نظرنا إلى العروق التى ثَبَتَت منذ زمن طويل بفعل الوِراثة أمكننا أن نقول إن تأثير البيئات فيها يكاد يكون صِفْرًا .

ولنا فى عدم تأثير حضارتنا الغربية فى أمم الشرق ، مع اتصالها بها منذ عِدَّة أجيال ، دليلٌ على عدم تأثير البيئات الأدبية فى العروق ، وذلك كما يشاهد لدى الصينيين المقيمين بالولايات المتحدة ، ولنا فى مصاعب التوطن دليلٌ على ضَعْف تأثير البيئات المادية ، وأهونُ على العِرْق القديم أن يَفْنَى من أن يتحول إذا ما نُقِل إلى بيئة تختلف عن بيئته اختلافًا كبيرًا سواء أكان هذا العرق بشريًّا أم حيوانيًّا أم نباتيًّا ، ومن ذلك أن غَدَت مصرُ قبرًا لفاتحيها من مختلف الأمم على الدوام ، ومصر هذه لم يَسْطِعْ أحدٌ أن يستوطنها ، ومصرُ هذه لم يَتْرُك فيها الأغارقةُ والرومان والفرس والعرب والترك وغيرُهم أثرًا من دمائهم ، والمثالُ الوحيد الذى تُبْصِره فى مصرَ هو مثال الفَلَّاح الثابت الذى تُشابه ملامحُه ملامحَ أولئك الذين نحتهم متفننو مصرَ منذ سبعة آلاف سنة على قبور الفراعنة وقصورهم .

ولا يزال مُعْظم العروق التاريخية الأوربية فى دور التكوين ، ومن المهمِّ معرفةُ ذلك لإدراك تاريخ تلك العروق ، ويكاد الإنكليزىُّ الحاضر وحدَه يُمَثِّل عِرْقاً ثَبَتَ أمرُه تماماً ، فنى الإنكليزىِّ امَّحَى البريتُونِىُّ القديمُ والسكسونىُّ والنورماندىُّ لتأليف مثالٍ جديد على شىء من التجانس ، والأمرُ فى فرنسة على العكس ، فترى فيها البرُوفَنْسىَّ يختلف كثيرًا عن البريتونىِّ ، وترى فيها الأُوفِرْنىَّ يختلف كثيرًا عن النورمندىِّ ، ومع ذلك نقول : إذا لم يوجد حتى الآن مثالٌ فرنسىٌّ متوسط فإنه يوجد على الأقلِّ أمثلة متوسطة فى بعض البقاع الفرنسية ، ومن دواعى الأسف أن كانت هذه الأمثلةُ مختلفةً أشدَّ الاختلاف فى الأفكار والأخلاق ، ومن الصعب ، إذَنْ ، أن تجدَ نُظُماً تلائم هذه الأمثلةَ على السواء ، والنظامُ المركزىُّ العنيف وحدَه هو الذى يستطيع أن يَمُنَّ عليها ببعض الأفكار المشتركة ، والمصدرُ الرئيسُ لما لدينا من فروق عميقة فى المشاعر والمعتقدات ، وما أسفرت عنه هذه الفروق من الانقلابات السياسية ، هو فيما بين الأمزجة النفسية من فروقٍ يستطيع المستقبل وحدَه أن يَمْحُوَها على ما يحتمل .

ويبدو الأمر ، دائماً ، على الوجه المذكور عند تَمَاسِّ مختلف العروق ، وتظهر المنازعاتُ الداخلية والانشقاقاتُ عنيفةً بنسبة اختلاف العروق المتواجهة ، ومن المتعذر أن تُحْمَل العروقُ الشديدة التباين على العيش بنُظُمٍ واحدة وقوانينَ واحدة كما يشهد بذلك ، فى كلِّ وقتٍ ، تاريخُ الإمبراطوريات العظمى التى تألفت من عروق مختلفة والتى تزول بزوال مؤسسها فى الغالب ، ومن الأمم الحديثة تجدُ الهولنديين والإنكليزَ وحدَهم قد وُفِّقُوا لفرض سلطانهم على شعوب آسيوية تختلف عنهم اختلافاً كبيرًا ، ولكنهم لم يَصِلُوا إلى ذلك إلا لأنهم عَرَفوا كيف يحترمون طبائعَ هذه

الشعوب وقوانينَها تاركين لها إدارةَ نفسها بنفسها فى الحقيقة مقتصرين على جزء من الضرائب وعلى ممارسة التجارة وحفظ الأَمْن .

وإذا عَدَوْتَ هذه الاستثناءاتِ النادرةَ وجدتَ أن جميع الإمبراطوريات الكبيرة المشتملة على أمم متباينة لم تَقُمْ إلا بالقوة وأنها تزول بالعنف ، والأمةُ ، لكى تنشأ فتدومَ ، لا بُدَّ لها من أن تَتَكون على مَهْلٍ بامتزاج عروق قليلة الاختلاف مقداراً فمقداراً وبتوالدِ هذه العروق فيما بينها توالداً مستمراً وبعيشِها على أرض واحدة وبمعاناتِها تأثيرَ بيئات واحدة وبإذعانها لنُظُم واحدة ومعتقدات واحدة ، وهكذا تستطيع هذه العروقُ المختلفة أن تؤلف أمة متجانسة بعد مرور بضعة قرون .

وكلما تقادم العالمَ استقرت العروق فيه شيئاً فشيئاً ، وغدا تحولُها بالامتزاج نادراً مقداراً فمقداراً ، وكلما تقدمت البشرية سِناً شَعَرَت بِثِقَل الوراثة وصعوبةِ التحول ، ولذا يمكننا أن نقول إن دور تكوين العروق التاريخية فى أوربة سينقضى بعد قليل .

الباب الثانى

كيف تتجلى الأخلاق النفسية للعروق في مختلف عناصر الحضارات

الفصل الأول

عناصر الحضارة مظهر خارجي لروح الأمة

عناصر الحضارات مظاهر خارجية لروح الأمم التى أوجدتها – تختلف أهمية هذه العناصر باختلاف الأمم – تمثل الفنون والآداب والنظم إلخ ، شأناً أساسياً بحسب الأمم – أمثلة عن المصريين والأغارقة والرومان فى القرون القديمة – يمكن أن يكون لمختلف عناصر الحضارة تطور مستقل عن سير هذه الحضارة العام – أمثلة من الفنون – ما تدل عليه الفنون – تعذر الاستدلال على مستوى الحضارة بأحد عناصرها فقط – العناصر التى تكون بها أفضلية الأمة – قد تكون العناصر الشديدة الانحطاط فلسفياً عالية جداً من الناحية الاجتماعية .

يجب أن يُعَدَّ مختلف العناصر ، التى تتألف منها الحضارةُ ، من لغاتٍ ونُظُمٍ وأفكار ومعتقدات وفنون وآداب مظهرًا خارجيًّا لروح الذين أبدعوها ، بَيْد أن أهمية هذه العناصر تبدو متفاوتة إلى الغاية بتفاوت الأزمان والعروق ما دامت عُنوانَ روح الأمة .

واليوم لا تجِدُ كتاباً باحثاً فى الآثار الفنية من غير أن يُبْدِىَ هذه الآثارَ تَرْجُماناً صادقاً لأفكار الأمم ومعبرًا مهمًّا عن حضاراتها .

ولا ريب فى أن الأمر على هذا الوجه فى الغالب ، ولكن الأمرَ بعيدٌ من أن يكون قاعدةً مطلقة فيطابقَ رقيُّ الفنون رقيَّ الأمم الذهنيَّ فى كلِّ وقت ، فإذا كانت الآثار الفنية لدى بعض الأمم أهمَّ مظهر لروحها فإن مِنَ الأمم مَنْ بلغتْ

درجةً رفيعةً جدًّا فى سُلَّم الحضارة مع بقاء شأن الفنون ثانويًّا عندها ، ولو قُضِىَ علينا بأن نكتب تاريخًا لحضارة كلِّ أمة غيرَ ناظرين إلى غيرِ عنصر واحد لوجدنا اختلافَ هذا العنصر بين أمةٍ وأمة ، أى لوجدنا الفنونَ أحسنَ وسيلة لمعرفة بعضِها كما نجِدُ النُّظُمُ أو الجندية أو الصِّناعة أو التجارة أظهرَ ما نَتَبينُ بها غيرَها ، وهذا أمرٌ يجب تقريره قبل كلِّ شىء لِمَا نستطيع أن ندركَ به ، فيما بعد ، ما السببُ فى أن مختلف عناصر الحضارة كان عُرْضَةً لتحولات متفاوتة بانتقاله من عِرْق إلى آخر .

ولنا فى المصريين والرومان من أمم القرون القديمة عِدَّةُ أمثلةٍ بارزة على ذلك التفاوت فى نشوء مختلف عناصر الحضارة ، حتى فى مختلف الفروع التى يتألف منها كلٌّ واحد من هذه العناصر .

وانْظُرْ إلى المصريين ، قبل كلِّ شىء ، ترَ الآدابَ عندهم ضعيفةً جدًّا فى كلِّ وقت ، وترَ فَنَّ التصوير عندهم هزيلًا جدًّا ، وترَ فَنَّ البناء وصنعَ التماثيل أسفر عندهم عن أنفس الآثار ، فلا تزال مبانيهم تثير إعجابنا ، ويَصْلُح ما تركوه لنا من التماثيل ، كتماثيل الكاتبِ وشيخِ البلد وراحوتب ونفرت آرى وغيرِ ذلك ، أن يُتَّخذ نماذجَ حتى فى زماننا ، وما استطاع الأغارقة أن يجاوزوا مستوى تلك التماثيل إلا لوقتٍ قصير .

وبجانب المصريين نذكر الرومانَ الذين مَثَّلوا دورًا كبيرًا فى التاريخ ، والرومانُ لم يكن ليَعُوزهم المُرَبُّون ولا النماذجُ ما وُجِدَ المصريون والأغارقة خلفهم ، والرومانُ لم يستطيعوا أن يبتدعوا فنًّا خاصًّا بهم مع ذلك ، ومن المحتمل أنك لا تُبْصِر أمة أبدت من قلة الإبداع ما أبداه الرومان فى منتجاتهم الفنية ، والرومانُ كانوا لا يبالون

بالفنون إلا قليلاً ، والرومان كانوا لا ينظرون إلى الفنون إلا من جهة النفع فلا يَرَوْنها إلا ضَرْباً من سِلَع الاستيراد المشابهة للمحاصيل الأخرى كالمعادن والعطور والأبازير التى كانوا يلتمسونها من الأمم الأجنبية ، والرومانُ على ما اتَّفَقَ لهم من سيادة العالم لم يكن لهم فنٌّ قومىٌّ ، حتى إنهم فى دور السِّلْم العامّ لم يُؤدِّ ثَرَاؤُهم واحتياجُهم إلى النفائس إلى غير نمُوٍّ قليلٍ فى مشاعرهم الفنية فكانوا يطلبون النماذجَ والمتفننين من الأغارقة ، وما كان تاريخ فنِّ البناء والنحت لدى الرومان غيرَ فصلٍ تالٍ لتاريخ العمارة والحَفْر عند الأغارقة .

بَيْد أن أمة الرومان العظيمةَ ، المتأخرةَ فى الفنون كثيراً ، أوجبت نهوضَ ثلاثةِ عناصرَ أخرى من عناصر الحضارة ، فقد كان عندها من النُّظُم الحربية ما سيطرت به على العالم ، وكان لديها من النُّظُم السياسية والقضائية ما لا نزال نَسِير على غِراره حتى اليوم ، وكان لها من الآداب المبتكرة ما استوحيناه فى قرون كثيرة .

إذَنْ ، نرى تفاوتاً يَقِفُ النظرَ فى نشوء عناصر الحضارة لدى أمتين لا جِدال فى سموِّ ثقافتهما ، ونستطيع أن نبصر الأغاليطَ التى نكون عُرْضَةً لها عند ما نقتصر على اتخاذ عنصر واحد مقياساً كالفنون مثلاً ، وها نحن أولاء قد وَجَدْنا الفنون لدى المصريين مبتكرةً ممتازة إلى الغاية مع استثناء التصوير ، ووَجَدْنا الآداب لديهم هزيلةً ، وها نحن أولاء وَجَدْنا الفنون عند الرومان هزيلةً عاطلةً من أىّ إبداع كان ، وَوَجَدْنا الآداب عندهم رائعة ، ووَجَدْنا النُّظُم السياسية والحربية عندهم من الطِّراز الأول .

والأغارقةُ أنفسُهم ، وهم من الأمم التى أبدت من التفوق فى مختلف الفروع ما لم يُبْدِه غيرُها ، يمكن الاستشهادُ بهم لإثبات فُقْدان المطابقة بين نُمُوِّ مختلف عناصر

الحضارة ، وبيانُ الأمر أن آدابهم في العصر الأُوميرىّ كانت ساطعة إلى الغاية ما دام الناس لا يزالون يَعُدُّون أغانىَ أوميرس نماذجَ قُضِىَ على الشبيبة الجامعية بأوربة بأن تُشْبَع منها منذ قرون ، وأن الحفرياتِ الأثريةَ الحديثة أثبتت كَوْنَ فنّ العِمارة وفنّ النحت لدى الأغارقة في العصر الأُوميرىّ على جانب كبير من الغِلْظة ما تألفا من تقليدٍ مُشَوَّه لمصرَ وآشور .

والهندوسُ ، على الخصوص ، هم الذين يُتَّخَذون دليلاً على ما فى نشوء مختلف عناصر الحضارة من تفاوت ، والهندوسُ لم تَفُقْهم أمةٌ فى فنّ العِمارة إلا قليلاً ، والهندوسُ ، من الناحية الفلسفية ، بلغوا من عُمْق التأمل درجةً لم يَصِلْ إليها الفكرُ الأوربىُّ إلا فى زمن حديث جدًّا ، والهندوسُ أنتجوا فى الآداب قِطَعًا تَقْضِى بالعجب وإن لم يُساوُوا الأغارقةَ واللاتين فى ذلك ، والهندوسُ ظَلُّوا متأخرين فى صُنْع التماثيل وبَقُوا فيه دون الأغارقة بمراحل ، والهندوسُ ظهروا صِفْراً من العلوم والمعارف التاريخية ومن الدقة ما لا تبصره عند أية أمة أخرى ، والهندوسُ لم تكن علومهم سوى تأملات طِفْلِيَّة ولم تكن كُتُب تاريخهم غيرَ أساطيرَ صبيانيةٍ عاطلة من أى توقيت ، ومن أىّ حادث صحيح على ما يحتمل ، وهنا أيضاً ترى أن دِراسة الفنون وحدَها لا تكفى لتَبَيّن مستوى الحضارة عند هؤلاء القوم .

ويمكن سردُ كثير من الأمثلة دَعْماً لهذه القضية ، ومن ذلك أن هنالك عروقاً لم تَبْلُغ قطُّ أعلى درجةٍ فاستطاعت أن تُبْدِع فنًّا خاصًّا غيرَ ذى صلة ظاهرة بالفنون التى ظهرت قبله ، شأنَ العرب الذين استولَوْا على العالم اليونانىّ الرومانىّ القديم فحَوّلوا فنّ العِمارة البزنطىّ الذى انتحلوه فى بدء الأمر حتى غدا من المستحيل أن يُعرَف المثالُ الذى استوحَوْه لو لم تكن أمامنا سلسلةُ المبانى التى تَخَلَّلَتْه .

ويمكن أمةً أن تبتدع حضارة رفيعة وإن لم تكن ذاتَ استعداد فنيّ أو أدبيّ ، وذلك كما اتفق للفنيقيين الذين لم يكن لهم من التفوق غيرُ حِذْقهم التجاريّ ، وبالفنيقيين تمدّن العالم القديم لِمَا كان من جعلهم بعضَ أقسامه يتصل ببعض ، ولم يُنْتِجْ هؤلاء الفنيقيون شيئاً تقريباً ، ولم يكن تاريخُهم غيرَ تاريخ تجارتهم .

ثم إن هنالك أمماً ظلت جميعُ عناصر الحضارة متأخرة عندها خلا الفنون ، وذلك كما اتَّفَق للمُغُول الذين شادوا مبانيَ فى بلاد الهند لا تَجِدُ فيها أثراً من الطِّراز الهندى ، وهذه المبانى هى من الرَّوْعة بحيث عَدَّ متفننون ماهرون بعضَها من أجمل ما صنعته يد الإنسان ، ويَصْعُب عَدُّ المغول من العروق العليا مع ذلك .

على أنه يُلاحَظ ، حتى لدى أكثر الأمم حضارةً ، أن أعلى درجة فى نشوئها الفنيّ لم تكن فى زمن بلوغ حضارتها أعلى مراتبها ، فارْجِع البَصَر إلى المصريين والهندوس تَجِدْ أن أكمل مبانيهم هو أقدمُها على العموم ، وارْجِع البَصَر إلى أوربة تَجِدْ أن فنَّها القوطيّ الرائعَ ، الذى لم يَعْدِله عجيبُ الآثار قطُّ ، ازدهر فى القرون الوسطى التى يُنْظَر إليها كدورٍ شبهِ متوحش .

ومن المتعذر ، إذَنْ ، أن يُحْكم فى مستوى الأمة برُقِيّ فنونها فقط ، فالفنونُ ليست غيرَ عنصر واحد من عناصر حضارة الأمة كما قلت غير مرة ، ولم يَقُمْ دليلٌ على أن هذا العنصرَ والآدابَ أعلى العناصر ، وبالعكس تكون الآثارُ الفنية ، فى الغالب ، أضعفَ الآثار لدى الأمم البالغة ذُروةَ الرقيّ المادىّ كالرومان فى القرون القديمة والأمريكيين فى الوقت الحاضر ، وفى الغالب أيضاً ، وذلك كما قلناه منذ هُنَيْهة ، تُبْدِعُ الأممُ فى أجيالها شبه المتوحشة أنفسَ آثارها الأدبية وأنفسَ آثارها الفنية على الخصوص ، والذى يلوح هو أن دورَ تَجَلِّى شخصيةِ الأمة فى الفنون هو

دورُ تَفَتُّح طفولتها أو فُتُوَّتها لا دورُ نَضْجها ، وإذا نظرنا إلى مناحى العالم الجديد النفعية التى نُبْصِر فجرَها وَجَدْنا شأن الفنون لا يكاد يكون بادياً فيها ، وأمكننا أن نُبْصِر اليوم الذى تُصَنَّفُ فيه هذه الفنون بين مظاهر الحضارة الثانوية إن لم تُعَدَّ من أدنى مظاهرها .

وهنالك عِدَّةُ أسباب تحول دون سَيْر الفنون فى تطورها سَيْراً موازياً لتقدم عناصر الحضارة الأخرى ومؤدياً إلى الاطلاع على حال هذه الحضارة دائماً ، وسواء علينا أنظرنا إلى مصرَ أم إلى الإغريق أم إلى مختلف أمم أوربة لم نَرَ سوى سُنَّة عامة واحدة ، وهى : أن الحضارة عند ما تبلغ مستوى معيناً ، أى حينما تظهر بعضُ الآثار النفيسة ، يبدو دورٌ من الانحطاط فى الفنون مستقلٌ عن سَيْر عنـاصر الحضارة الأخرى ، وطورُ الانحطاط فى الفنون هذا يبقى إلى الزمن الذى يُدْخِل فيه انقلابٌ سياسىٌّ أو غزوٌ أجنبىٌّ أو اعتناقُ معتقدٍ جديد أو أىُّ عاملٍ آخرَ عناصرَ جديدة إلى الفنِّ ، وذلك كما وقع فى القرون الوسطى حين أسفرت الحروب الصليبية عن جَلْبِ معارفَ وأفكارٍ جديدة قَفَزَت بالفنون إلى الأمام فنشأ عن ذلك تحويل الطِّراز الرومانىِّ إلى الطِّراز القوطىِّ ، وذلك كما وَقَعَ بعد بضعة قرون حين أوجبت النهضةُ تحويلَ الفنِّ القوطىِّ ، وذلك كما وقع فى بلاد الهند حين أدت المغازى الإسلامية إلى تغيير الفنِّ الهندوسىِّ تغييراً تامًّا .

وإذا كانت الفنونُ ، كما نلاحظ أيضاً ، تُعَبِّرُ بوجهٍ عامٍّ عن بعض ضرورات الحضارة وكانت تلائم بعضَ المشاعر فإنها مَقْضِىٌّ عليها بأن تعانىَ من التحولات ما يلائم هذه الضروراتِ كما أنها محكومٌ عليها بالزوال تماماً عند تَحَوُّل الضرورات أو المشاعر التى أوجبت حدوثها أو زوالَ هذه الضرورات ، ولا يدلُّ هذا على أن

الحضارة تكون فى دور الانحطاط إذ ذاك ، وهنا أيضاً نَلْمِسُ فُقْدَانَ الموازاة بين تطور الفنون وتطور عناصر الحضارة الأخرى ، وما تقدمت الحضارةُ فى أىِّ دورٍ من أدوار التاريخ كتقدمها الآن ، وما كانت الفنون أكثرَ ابتذالاً وأقلَّ شخصيةً مما هى عليه اليومَ على ما يحتمل ، و بيانُ ذلك أن غياب المعتقدات الدينية والأفكار والاحتياجات ، التى تجعل من الفنِّ عنصراً جوهريًّا من عناصر الحضارة فى الدور الذى كانت المعابد والقصور فيه محاريبَ لها ، أسفر عن صَيْر الفنِّ أمراً ثانويًّا ، أى موضوعَ تَسْليةٍ يتعذرُ تخصيص وقت كبير ومال كثير من أَجْله ، و إذ صار الفنُّ أمراً غيرَ ضرورىّ فإنه لا يكون إلا مصنوعاً أو أَثَر تقليد ، واليوم لا ترى أمة ذاتَ فنٍّ قومىّ ، وكلُّ أمة تَرْكَن اليوم إلى نَسْخ ما كان فى غابر الأدوار نسخاً مُوَفَّقاً أو غيرَ موفق سواءٌ أكان ذلك فى فنِّ العِمارة أم فى فنِّ النَّحْت .

نعَمْ ، إن فنَّ العِمارة وفنَّ النحت وليدا احتياجات وأهواء لا رَيْب ، ولـكن من الواضح أنهما لا يُعَبِّران عن أفكارنا الحديثة،ومما يُثِيرُ عَجَبِي ما كان يأتى به متفننونا فى القرون الوسطى من الآثار الساذجة حين كانوا يُصَوِّرون القديسين و يسوعَ والجناتِ وجهنمَ ، حين كانوا يُصَوِّرون أموراً أساسيةً فى ذلك الزمن ، أموراً كانت تُعَدُّ أغراضَ الحياةِ الرئيسةَ آنئذ ، بَيْد أن المصورين الذين أصبحوا عاطلين من تلك المعتقدات ، إذا ما سَتَرُوا جُدُرَنا بالأساطير الابتدائية أو بالرموز الصبيانية محاولين الرجوعَ إلى فنِّ زمن آخر ، لم يكونوا قد صنعوا بذلك غيرَ تقليد هزيل لِصُوَرٍ لا فائدة منها للحاضر وتكون عُرْضةً للازدراء فى المستقبل .

والفنونُ الحقيقية الوحيدة ، والفنونُ الوحيدة التى تُعَبِّر عن دَوْرٍ ما ، هى التى يعْرِض بها المتفنن ما يَشْعُر به وما يراه بدلاً من اقتصاره على تقليد أشكال

تلائم ما لا وجود له فى الساعة الحاضرة من الاحتياجات أو المعتقدات، وما فى أيامنا من تصوير صادق وحيد يقوم على نَقْل الأشياء التى تحيط بنا ، وما فى أيامنا من فنٍّ عِمارة صادق أيضاً هو شَيْدُ بيتٍ ذى طبقات خمسٍ و إنشاء قنطرةٍ و إقامةُ مَحَطةٍ لخطّ حديدىّ ، و يلائم هذا الفنُّ النفعىُّ احتياجاتِ حضاراتنا وأفكارَها ، وهذا الفنُّ هو من مُميِّزات هذا الدور كما كان الفنُّ الذى شِيدَتْ به الكنيسةُ القوطية والقصر الإقطاعىُّ من مُمَيزات الماضى ، وسيكون للفنادق العصرية الكبرى وللكنائس القوطية القديمة فائدةٌ متساوية عند عالِم الآثار فى المستقبل لِما سَتُعَدَّان به صفحاتٍ متعاقبةً لتلك الكتب الحجرية التى يتركها كلُّ عصر خلفه ، على حين يزدرى هذا العالِم ما يأتى به المتفننون المعاصرون تقليداً من الآثار الهزيلة ، لأنه ليس من الوثائق المفيدة .

وكلُّ فنّ يُلَخِّص ما لأحد الأدوار وأحد العروق من المثل الأعلى ، ولِمَا بين الأدوار ، وكذلك العروق ، من اختلافٍ وَجَب اختلافُ المثل الأعلى باستمرار ، و إذا ما نَظَرْت إلى المُثل العليا من الناحية الفلسفية وجدتَها متساوية ، وسببُ هذا التساوى هو فى كونها ليست سوى رموزٍ مؤقتة . .

إذَنْ ، تَمَثِّل الفنونُ المظهرَ الخارجىَّ لروح الأمة التى ابتدعتها كما تمثِّلها جميعُ عناصر الحضارة الأخرى ، غير أن الفنون هى ، كما قلتُ غير مرة ، بعيدةٌ من أن تكون أصدقَ مظهر لروح الأمم .

وكان البرهانُ ضروريًّا ، وذلك لأن أهمية أحد عناصر الحضارة هى مقياس لقدرة الأمة على تحويل العنصر عند ما تقتبسه من أمة أجنبية ، و إذا ما تَجلَّت شخصيةُ الأمة ، مثلاً ، فى الفنون على الخصوص فإنها لا تَنْقُل النماذجَ المستورَدة من غير أن تطبعها بطابعها الخاصِّ ، وهى ، بالعكس ، لا تُحَوِّل العناصرَ التى لا تُعبِّر عن

عبقريتها غيرَ تحويل قليل ، ومن ذلك أن الرومان حينما انتحلوا فن عِمارة الأغارقة لم يُحَوِّلوه تحويلًا أساسيًّا لعدم تَجَلِّي روحهم فى المبانى .

ومع ذلك فإنه لامناصَ للفنِّ من معاناة تأثير البيئة فى قليلِ قرونٍ ومن أن يكون على الرغم منه تقريبًا عنوانَ العِرْق الذى انتحله حتى عند مِثْل تلك الأمة العاطلة من فنٍّ عِمارة خاصٍّ والمُضْطَرةِ إلى البحث عن نماذجها ومتفننيها فى الخارج ، ولا ريب فى أن المعابد والقصور وأقواس النصر والنقوش البارزة فى رومة القديمة هى من صُنْع الأغارقة أو من صنع تلاميذ الأغارقة ، غير أن سِمَةَ هذه المبانى وغايتَها وزخارفها ، وسِعَتها أيضًا ، لا تُثِير فينا ذكرياتِ العبقرية الأَثَنِيَّة الشعرية اللطيفة ، بل تُثِير فينا فكرَ القوة والتغلب والروح الحربية الذى كان يقيم رومة ويقعدها ، وهكذا ترى أن العِرْقَ ، حتى فى الميدان الذى لا تبدو فيه شخصيته كثيرًا ، لايَخْطو خُطْوَةً من غير أن يترك أثرًا خاصًّا به فيَنِمّ هذا الأثر على شىء من مزاجه النفسىِّ وفكره الباطنىِّ .

وبيان ذلك أن المتفنن الحقيقىَّ ، معماريًّا كان أو أديبًا أو شاعرًا ، ذو مَلَكة سِحْرِيَّة يُعَبِّر بها فى تراكيبه عن روح أحد العروق أو أحد الأزمان ، وإذ كان المتفننون كثيرى الانفعال غزيرى اللاشعور مفكرين بالصُّوَر على الخصوص قليلى التعقل فإنهم يكونون فى بعض الأدوار مَرَايَا صادقةً للمجتمع الذى يعيشون فيه فتكون آثارُهم أصحَّ الوثائق التى يُسْتَنَد إليها فى تصوير إحدى الحضارات ، وهم يظلون من كثرة اللاشعور بحيث يَبْدُون صادقين شديدى التأثُّر بالبيئة التى تحيط بهم فيُعَبِّرون بإخلاصٍ عن الأفكار والمشاعر والاحتياجات والمناحى ، وليس لدى المتفننين حريةٌ ، وفى هذا سرُّ قُوَّتهم ، والمتفننون مسجونون فى شبكة من التقاليد

والأفكار والمعتقدات التى يتألف من مجموعها روح أحد العروق وأحد الأزمنة ، أى مسجونون فى تُرَاثٍ من المشاعر والآراء والإلهامات العظيمة التأثير فيهم لسيطرتها على مناطقهم اللاشعورية الغامضة حيث تَنْضَج أعمالهم ، ولو لم تكن هذه الآثار لدينا لاقتصرتْ معارفنا بالقرون الغابرة على ما جاء فى الأقاصيص السخيفة وعلى ما ورد فى كتب التاريخ من تلفيق مصنوع ولغدا ماضى كلّ أمة بذلك أمراً خافياً علينا تقريباً كأمرِ هذه الأطلنتيد الخافلةِ بالأسرار والتى غَمَرَتها الأمواج فتكلم عنها أفلاطون .

إذَنْ ، مَزِيّةُ الأثر الفنىّ الصحيح هى فى التعبير بإخلاصٍ عن احتياجات الزمن الذى وُلِدَ فيه وعن أفكاره ، ولا تزال الآثارُ الفنية ولا سيما المبانى أبلغَ من جميع اللغات التى تُخْبِرنا بالماضى ، وتلك الآثارُ هى أصدق من الكتب وأقلّ تَصَنعاً من الدّيانات واللغات ، وهى تُعَبِّر عن المشاعر والاحتياجات معاً ، والبَنّاء هو المُنْشِئ لمنزل الإنسان و بيتِ الآلهة ، والواقعُ هو أن فى سواء المعبدِ والدارِ تَنْضَج الأسباب الأولى للحوادث التى يتألف التاريخ منها .

ومن الملاحظات السابقة يمكننا أن نستنتج أن العناصر المختلفة التى تتألف منها الحضارة إذ كانت عنوانَ روح الأمه التى ابتدعتها يُعَبِّرُ بعض هذه العناصر الذى يتغير بحسب العروق ، و يتغير بحسب الأزمنة أيضاً ، عن روح العِرْق أحسنَ من سواه .

ولكن طبيعة هذه العناصر ، إذ كانت تختلف بين أمة وأمة وبين دَوْر ودور ، لا نَجِدُ منها عنصراً واحداً يَصْلُح أن يكون مقياساً عامًّا لتقدير مستوى مختلف الحضارات .

ومن المستحيل ، أيضاً ، أن نُصَنِّف هذه العناصر تصنيفاً مُرَتَّباً ، وذلك لأن أهمية هذه العناصر إذ كانت تختلف باختلاف الأدوار فإن التصنيف يختلف بين قرن وقرن.

و إذا ما قُدِّرَتْ عناصرُ الحضارة المختلفة من حيث المنفعةُ الصِّرْفَةُ أمكننا أن نقول إن أهمَّ عناصر الحضارة هو الذى يُؤَدِّى إلى تعبيد أمة للأمم الأخرى ، أى أن أهمَّ عناصر الحضارة هو النظامُ الحربىُّ ، ولكنه يجب إذْ ذاك أن نَضَع مرتبةَ الأغارقة المتفننين والفلاسفةِ والأدباء تحت كتائب رومة الشديدة الوطأة وأن نَضَع مرتبةَ المصريين الحكماء والعلماء تحت شِبَاه البرابرة الفُرْس ، وأن نَضَع مرتبةَ الهندوس تحت أنصاف البرابرة المُغُول .

ولا يكترث التاريخُ لتلك التقسيمات أبداً ، ولا يَخِرُّ التاريخُ راكعاً إلا أمام المَزِيّة الحربية وحدَها ، غير أن المَزِيَّة الحربية لا تصاحب مَزِيَّةً مقابلةً لها فى عناصر الحضارة الأخرى إلا نادراً ، أوأنها لا تَدَع هذه المزيةَ بجانبها لطويلِ زمن ، ومن المؤسف أن كانت المزية الحربية لا تَضْعُف لدى أمة من غير أن يُقْضَى على هذه الأمة بالزوال فى أقرب وقت ، والأممُ حينما تَصِلُ إلى ذِروة حضارتها تتركُ مكانَها ، دائماً ، لمن هم دونها ذكاء من البرابرة ، ولكن مع حيازة هؤلاء البرابرة لِما تؤدى الحضارات الرفيعة إلى تقويضه من بعض الصفات الخُلقية والقيمة الحربية.

إذَنْ ، لا بُدَّ من الانتهاء إلى النتيجة المحزنة القائلة إن ما فى الحضارات من العناصر الدنيا فلسفياً هوأهمُّ العناصر اجتماعياً ، و إذا كانت سُنَنُ الماضى سنناً للمستقبل أمكننا أن نقول إن أسوأ حالٍ تُصاب بها أمةٌ هو أن تَبْلُغ هذه الأمةُ درجةً عالية من الذكاء والثّقافة ، فالأممُ تَهْلِك عند ما تأخذ الصفاتُ الخلقية التى هى لُحْمَة روحها فى الفساد ، وهذه الصفات تَفْسُد عند ما تسمو حضارة هذه الأمة وذكاؤها .

الفصل الثانى

كيف تتحول النظم والديانات واللغات

لا تستطيع العروق العليا والعروق الدنيا أن تحول عناصر حضارتها فجأة — ما تبديه الأمم التى غيرت دياناتها ولغاتها وفنونها من مناقضة ظاهرة لذلك — ما اعتور البدهية والبرهمية والإسلام والنصرانية من تحولات عميقة بحسب العروق التى انتحلتها — ما يعتور النظم واللغات من تغير بحسب العروق التى انتحلتها — تنم الألفاظ التى تعد متقابلة فى مختلف اللغات على آراء وطرز تفكير مختلفة جداً — تعذر ترجمة بعض اللغات لهذا السبب — السبب فى أن حضارة الأمة فى كتب التاريخ تبدو ، أحياناً ، خاضعة لتحولات عميقة — حدود تأثير الحضارات تأثيراً متقابلا .

بَيَّنا فى مكان آخر أنه يستحيل على العروق العليا أن تَفرِض حضارتها على العروق المتأخرة أو تَحْمِل هذه العروقَ على اعتناق تلك الحضارة ، ونحن حينما تناولنا أقوى ما لدى الأور بيين من وسائل التأثير ، كالتربية والنُّظُم والمعتقدات ، أثبتنا عدم كفاية هذه الوسائل لتغيير الحال الاجتماعية فى الأمم المتأخرة ، ومما حاولنا صُنْعَه هو بياننا أن جميع عناصر إحدى الحضارات تلائم مزاجاً نفسيّـا معيناً نشأ عن وِراثة طويلة فغدا من المتعذر تغييرُ هذه العناصر من غير أن يُغَيَّر المزاج النفسىُّ الذى تشْتَقُّ منه ، والقرونُ وحدَها ، لا الفاتحون ، هى التى تستطيع إنجازَ مثل هذا العمل ، ومما بَيَّناه أيضًا أن إحدى الأمم تَصْعَدفى سُلَّم الحضارة ببطء وعلى سلسلة من المراحل كالتى جاوزها هادمو الحضارة اليونانية الرومانية من البرابرة ، ومن يحاول بالتربية أن

يُجَنِّبَ الأمةَ هذه المراحلَ فإنما يَرْبُكُ مزاجَها النفسيّ ويسوقها فى نهاية الأمر إلى مستوًى أدنى من المستوى الذى كانت تَصِلُ إليه لو تُرِكَت وشأنها .

وهذه البرهنةُ التى تُطَبَّق على العروق الدنيا تُطَبَّق على العرُوق العليا أيضًا ، وإذا كانت المبادئُ المعروضة فى هذا الكتاب صحيحةً عَلِمْنا أن العروق العليا لا تستطيع كذلك أن تُحَوِّل حضارتَها بغتةً ، بل لا بُدَّ من مرور زمن طويل ومجاوزةِ مراحلَ كثيرةٍ لبلوغ ذلك ، وإذا ما ظهر اعتناقُ أممٍ عالية فى بعض الأحيان لمعتقدات ونُظُم ولغات وفنون تختلف عما عند أجدادها لم يكن ذلك بالحقيقة إلا بعد تحويل هذه العناصر تحويلًا بطيئًا عميقًا ملائمًا لمزاج تلك الأمم النفسىّ .

ويلوح أن التاريخ فى كلِّ صفحة من صَفَحاته يناقض ما عرضناه آنفًا ، وما أكثر ما ترى فى التاريخ من أممٍ تُغَيِّر عناصر حضارتها وتعتنق أديانًا جديدةً وتنتحلُ لغاتٍ جديدةً وتتخذ نُظُمًا جديدةً ، وفى التاريخ أممٌ تترك معتقداتِها المتأصلةَ لتعتنق النصرانية أو البُدَّهِيَّة (البوذية) أو الإسلام ، وفى التاريخ أممٌ تُغَيِّر نُظُمها وفنونها تغييرًا أساسيًّا ، وفى التاريخ يبدو أن فاتحًا أو رسولًا أو هَوَسًا يكفى لإتيان مثل تلك التحولات بسهولة .

غير أن التاريخ حينما يَعرِض علينا قصة تلك الثورة المفاجئة لا يَصْنَع سوى إنجاز عمل من أعماله المعتادة ، وهو اختلاقُ الأغاليط ونشرُها ، ونحن حينما ندرس تلك التحولاتِ عن كَثَب لا نُعَتِّم أن نرى أن أسماء الأشياء هى التى تتغير ، على حين نُبْصِر أن الحقائق التى تستتر خلف الألفاظ تداوم على الحياة ولا تتحول إلا بأقصى البطوء .

ونحن ، لكى نثبت ذلك، ولكى نُبَيِّن فى الوقت نفسه كيف يَتِمُّ تطور الأمم البطىء ، نرى أن ندرس عناصر كلِّ حضارة لدى مختلف الأمم ، أى أن نُجَدِّد تاريخ هذه الأمم ، وقد حاولتُ هذا العملَ الشاقَّ فى عِدَّة مجلدات ، فلا أفكِّر فى العودة إليه هنا ، وإننى حينما أُغْضِى عن العناصر الكثيرة التى تتألف منها إحدى الحضارات أختار أحدَها مثالًا ، أى أختار الفنون .

وقَبْلَ أن أبدأ فى فصل خاصّ بدراسة التطور الذى يعتور الفنون عند انتقالها من أمة إلى أخرى أقول بضع كلمات عن التحولات التى يعانيها مختلف عناصر الحضارة ، وذلك لأُثْبِت أن السُّنَن التى تُطَبَّق على عنصر من هذه العناصر تَطَبَّق على جميعها وأن فنون الأمم إذا كانت ذاتَ نَسَب بمزاج هذه الأمم النفسىِّ فإنّ اللغاتِ والنُّظُمَ والمعتقداتِ وما إليها ذاتُ نَسَب بهذا المزاج أيضاً ، أى أنها لا تتغير ولا تنتقل من أمة إلى أخرى من فَوْرها[1] .

وقد تظهر هذه النظريةُ غريبةً فى أمر المعتقدات الدينية على الخصوص ، وفى تاريخ المعتقدات تَجِدُ أحسنَ الأمثلة لإثباتنا أنه يتعذر على الأمة أن تُغَيِّر عناصرَ حضارتها فَجْأَة كما يتعذر على الشخص أن يُغَيِّر قامته أو لونَ عيونه .

أَجَلْ ، لا رجلَ يجهل أن جميع الدِّيانات العظيمة ، كالبرهمية والبُدَّهيَّة والنصرانية والإسلام ، أسفرت عن دخول الناس أفواجاً فيما يلوح أنه اعتنقها من عروق بأَسْرها ، ولكن المرء إذا ما أوغل قليلًا فى دِراسة ذلك لم يَلْبَث أن يُبْصِر أن الذى غَيَّرَته الأمم على الخصوص هو اسمُ دينها القديم نفسِه ، وفى الحقيقة أن المعتقداتِ

(١) لا أذكر هنا حال اليابان ، فن المتعذر دراستها فى بضع صفحات ، ولذلك أرى إحالة القارىء إلى التأملات الرصينة التى نشرها سفير اليابان فى بطرسبرغ ، مسيو موتونو ، فى كتابه : « غوستاف لوبون وأثره » .

المُنْتَحَلَةَ عانت من التحولات الضرورية ما تكون به ذاتَ صِلة بالمعتقدات القديمة التى حَلَّت محلها والتى لم تكن غيرَ إدامة لها .

وما تخضع له المعتقداتُ من تحول عند انتقالها من أمة إلى أخرى هو من الشدة فى الغالب ما يكون به الدينُ المُنْتَحَلُ حديثاً غيرَ ذى نَسَب واضح بالمعتقد الذى احتفظ باسمه ، ولنا أحسنُ مثال بالبُدَّهيَّة التى صارت ديناً مُشَوَّهاً بعد انتقالها إلى الصين فإلى اليابان ، والحقُّ أن العلماء عَدُّوا البدهية ديناً مستقلاًّ أولَ وهلةٍ فلم يعترفوا، إلا بعد زمنٍ طويل، بأنها دينٌ حَوَّله العِرْق الذى اعتنقه ، والحقُّ أن البُدَّهيَّة الصينية ليست بُدَّهيَّة الهند ، وأن بُدَّهيَّة الهند نفسَها تختلف عن بُدَّهيَّة نيپالَ ، وأن بُدَّهيَّة نيپالَ تبتعد عن بُدَّهيَّة سيلانَ ، ولم تكن البُدَّهيَّة فى الهند سوى دين منفصل عن البرهمية التى ظهرت قبلها والتى لا تختلف عنها إلا قليلًا ، ولم تكن البدَّهيَّة فى الصين أيضاً سوى دين منفصل عن المعتقدات السابقة التى تتصل بها اتصالًا وثيقاً .

وذلك المبدأ الثابت فى أمر البُدَّهيَّة ثابتٌ فى أمر البرهمية أيضاً ، و بيانُ ذلك : أن عروق الهند إذا كانت شديدة الاختلاف فإن من السهل أن يُفْتَرَض لها وجودُ معتقداتٍ دينية شديدةِ الاختلاف مسماةٍ بأسماء واحدة ، وأن جميع الأمم البرهمية تَعُدُّ وِشْنُو وشِيوا أهمَّ آلهتها كما تَعُدُّ الويدا كُتُبَها المقدسة ، وأن هذين الإلٰهين الرئيسين لم يتركا فى الديانة سوى اسمَيْهما ، وأن تلك الكُتُبَ المقدسة لم تترك سوى نصوصها ، وأنك تَجِد بجانب ذلك ما لا يُحْصِيه عَدٌّ من العبادات التى تنِمُّ على أشدِّ المعتقدات اختلافاً ، كالتوحيد والإشراك والوثنية ووَحدة الوجود وعبادة الأجداد والعفاريت والحيوانات إلخ ، وأنك إذا لم تَحْكم فى أمر عبادات الهند بغير ما جاء فى كتب الويدا لم يكن لديك أقلُّ فكر عن الآلهة التى تَسُود شبهَ جزيرة الهند

الواسعة وعن معتقداتها ، نَعَمْ ، إن جميع البراهمة يقدسون عُنوان الكُتُب المقدسة ، بَيْد أنه لم يَبْقَ على العموم شيء من الديانة التي تقول بها هذه الكتب .

وعلى ما في التوحيد الإسلاميّ من بساطة لم يَشِذَّ الإسلام عن هذه السُّنَّة ، فترى فرقاً بعيداً بين الإسلام في بلاد الفرس و بينه في جزيرة العرب و بينه في الهند ، وقد وَجَدَتْ بلادُ الإشراك ، الهندُ ، وسيلةً في جعلها أكثرَ المعتقداتِ توحيداً معتقدَ إشراك ، فعاد محمدٌ وأولياء الإسلام يَكُونون آلهةً جديدة مضافة إلى ألف إله آخرين ، حتى إن الإسلام في الهند لم يُوَفَّقْ للمساواة بين جميع الناس مع أن المساواة كانت من أسباب فوزه في أماكنَ أخرى ، فترى المسلمين في الهند يُطَبِّقون نظامَ الطبقات كما يصنع الهندوس ، وقد بلغ الإسلام بين الدراويد في الدَّكَن من التشويه درجةً لا يمكن تمييزُه بها من البرهمية مطلقاً ، وهو لا يُمَيَّز منها بغير اسم محمد والمسجد الذي يُعْبَد فيه هذا النبيُّ بعد أن أُلِّه .

ولا ضرورةَ إلى الذهاب حتى بلادِ الهند لاستجلاء التحولات العميقة التي عاناها الإسلامُ بانتقاله من عِرْق إلى عِرْق ، ولْنَنظُر فقط إلى الجزائر التي هي ممتلكتُنا الكبيرة لنُبْصِرَ فيها عِرْقَيْنِ شديدي الاختلاف ، لِنُبْصِرَ فيها العرب والبربر الذين هم مسلمون أيضاً ، لِنُبْصِرَ فيها أن الإسلام بين أولئك غيرُه بين هؤلاء ، لِنُبْصِرَ فيها أن مبدأ تعدد الزوجات في القرآن تَحَوَّل إلى مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة لدى البربر ، وليس الدين عند البربر غيرَ مزيجٍ من الإسلام والوثنية القديمة التي زاولوها منذ العصور البعيدة حين كان السلطان لقرطاجة .

ولم تَتَفلت دِياناتُ أوربة نفسها من السُّنَّة العامة القائلة بتحول الأديان وَفْقَ روح العروق التي تعتنقها ، وكما في الهند ترى في أوربة أن حَرْفيَّة العقائد التي أثبتتها

النصوص قد ظَلّت ثابتةً ، غير أن هـذه النصوصَ صِيَغٌ لاغية يُفسِّرها كلُّ عِرْق على شاكلته ، وفى أوربة ترى اسمَ النصارى الواحدَ يشتمل على وثنيين حقيقيين كابن بريتانية الدنيا الذى يَعْبُد الأصنام وكالإسپانىّ الذى يعبد التمائم ، وترى ذلك الاسمَ يشتمل على مشركين كالإيطالىّ الذى يُقَدِّس صُوَر العذراء فى كلّ قرية كما يُقَدِّس مختلف الآلهة ، ونحن إذا ما أوغلنا فى البحث سَهل علينا أن نثبت أن الانفصال العظيم الذى أسفرت عنه ثورة الإصلاح الدينىّ كان نتيجةً لازمة لتفسير كتابٍ دينىّ واحد من قِبَل عروق مختلفة ، فكانت شعوب الشمال تَهْدِف إلى المُحاجَّة فى عقائدها وتنظيم شؤون حياتها بنفسها ، وكانت شعوب الجنوب تميل إلى البقاء متأخرةً من ناحية الحرية والروح الفلسفية،فلا مثالَ أدعى إلى الإقناع من ذلك.

ولكن شرح هذه الأمور يسير بنا إلى بعيد ، ولذلك ترانا مُضْطرِّين إلى قول كلمة عابرة عن عنصريْن أساسيين من عناصر الحضارة ، أى كلمة خاطفة عن النُّظُم واللغات التى يجاوزُ البحثُ فى جزئياتهما الفنيةِ حدودَ هذا الكتاب .

إن ما صَحّ عن المعتقدات يَصِحُّ عن النُّظُم أيضاً ، والنُّظُمُ لا تنتقل من أمة إلى أخرى من غير أن تتحول ، وإذ أننى راغب عن الإكثار من الأمثلة فإننى أرجو من القارئ أن يُبْصِر فقط درجة تَغَيُّر النُّظُم الواحدة التى تَفرِضُها القوة أو الإقناع بحسب العروق مع بقائها مسماةً بأسماء واحدة ، وسأُبَيِّن ذلك فى فصل آتٍ عند الكلام عن مختلف البلدان الأمريكية .

وفى الحقيقة أن النُّظُم نتيجةُ ضروراتٍ لا تُؤَثِّر فيها عزيمةُ جيل واحد من الناس ، ولكلِّ عِرْقٍ ولكلِّ وجهٍ من وجوه تطور هذا العرق أحوالُ عيشٍ ومشاعرُ وأفكارٌ وآراءٌ ومؤثِّراتٌ موروثة تستلزم نُظُماً خاصة دون سواها، ولا كبيرَ

أهميةٍ لاسم الحكومة فى ذلك ، ولم يُقيِّض لأمة أن تختار من النُّظُم ما يلوح أنه أصلحُها ، و إذا وقع من المصادفات النادرة ما يؤدى إلى اختيار الأمة نُظُماً صالحةً فإن هذه الأمة لا تستطيع أن تحفظ هذه النُّظُم ، وتتألف من الثَّوْرات الكثيرة ، ومن تغيير الدساتير تغييراً متعاقباً منذ قرن ، تجربةٌ يجب أن يستقرَّ بها رأىُ أولياء الأمور عند ذلك الحدّ ، ثم إننى أرى أن عقل الجماعات المُعْوجّ وفكرَ بعض المتعصبين الضَّيِّقَ هما اللذان لا يزالان يحتفظان بالرأى القائل إن التغييراتِ الاجتماعيةَ المهمةَ تتمُّ بقوة المراسيم ، والشأنُ المفيد الوحيد للنُّظُم هو منحُها تأييداً قانونياً للتغييرات التى رَضِيَتْ بها الطبائعُ وقَبِلها الرأى العامُّ فى نهاية الأمر ، والنُّظُم تَتْبَع تلك التغييراتِ ولكنها لا تتقدمها ، وليس بالنُّظُم ما تتغير الأخلاقُ ولا أفكارُ الناس ، وليس بالنُّظُم ما تُجْعَل الأمةُ متدينةً أو ملحدة ، وليست النُّظُم هى التى تُعَلِّم الأمةَ قيادةَ نفسها بنفسها بدلاً من أن تطالب الدولةَ بأن تصنع لها قيوداً على الدوام .

ولا أُسهب فى الكلام عن اللغات بأكثرَ مما أسهبت فى النظم ، و إنما أقتصر على القول بأن اللغة تتحول بحكم الضرورة عند انتقالها من أمة إلى أخرى ولو أُثْبِتَت كتابةً ، وهذا ما يجعل الفكرَ القائل بلغة عامّة أمراً عقيماً ، أَجَلْ ، إن الغوليين ، مع كثرة عددهم ، قد انتحلوا اللغة اللاتينية فى أقلَّ من قرنين بعد الفتح الرومانىِّ ، غير أن الغوليين لم يلبثوا أن حوّلوا هذه اللغة على حسب احتياجاتهم ووَفْقَ منطق روحهم الخاصّ ، ومن هذه التحولات خَرَجَت لغتُنا الفرنسية الحاضرة فى آخر الأمر .

ولم يكن مختلفُ العروق ليتكلم بلغةٍ واحدة طويلَ زمن ، وقد تُؤَدِّى مصادفات الفتوح أو مصالحُ الشعب التجارية إلى انتحال هذا الشعب لغةً غيرَ لغته الأصلية لا رَيْب ، ولكن هذه اللغة الجديدة تتحول فى أجيال قليلة تحولاً تامًّا ، ويزيد هذا

التحول عُمْقاً كلما كان العِرق الذى استعار تلك اللغة مختلفاً عن العرق المُعِير لها .

ومن المحقَّق ، على الدوام ، أن نُبصِرَ لغاتٍ مختلفةً فى بلدان مشتملة على عروق مختلفة ، ولنا بالهند مثالٌ رائع على ذلك ، فشبهُ جزيرة الهند العظمى ، إذ أنها معمورة بعروق كثيرة مختلفةٍ ، ليس من العجيب أن يَجِدَ العلماء فيها ٢٤٠ لغة عدا احتوائها نحوَ ثلاثمئة لَهْجَةٍ ، وأكثرُ هذه اللغات انتشاراً حديثةٌ جدًّا ما دام زمن ظهورها لا يزيد على ثلاثمئة سنة ، وهذه اللغةُ ، التى تُعْرَف بالهندوستانية ، مزيجٌ من الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون المسلمون ومن الهندية التى كانت أكثر اللغات انتشاراً فى البقاع التى استولى عليها أولئك الفاتحون ، ولم يَنْشَب الغالبون والمغلوبون فى الهند أن نَسُوا لغاتِهم الأصليةَ ليستعملوا هذه اللغة الحديثة الملائمة لاحتياجات العِرْق الجديد الذى هو نتيجة توالد أمم مختلفة متواجهة .

ولا أزيد فى الإسهاب ، بل أكتفى بالدلالة على الأفكار الأساسية ، ولو استطعتُ أن ألتزم جانب التفصيل الضروريّ لذهبتُ بعيداً فقلت إن الأمم إذا ما اختلفت دَلَّت الكلماتُ المتقابلة عندها على طُرُزٍ تفكيرٍ وشعورٍ تَبْلُغ من التباعد ما تبدو لغاتُها معه عاطلةً من المترادفات فتستحيل الترجمة من إحداها إلى الأخرى ، وظاهرةٌ مثلُ هذه مما يُدْرَك أمرُه عند النظر إلى أن الكلمة الواحدة فى البلد الواحد ولدى العِرْق الواحد تَدُلُّ بعد بضعة قرون على أفكار مختلفة أشدّ الاختلاف عما كان لها قبل ذلك .

والكلماتُ القديمة وحدَها هى التى تدلُّ على أفكار الناس فيما مضى، والكلماتُ القديمة ، بعد أن كانت فى الأصل إشاراتٍ لأشياءَ حقيقيةٍ ، لم يَعْتِّم معناها أن تَشَوَّه بفعل تبدل الأفكار والطبائع والعادات ، نَعَمْ ، يداوم الناس على البرهنة بتلك

الإشارات المستعملة التي يَصْعُب تغييرها ، ولكنك لا تَجِدُ أيةَ صلة بين مدلولها الماضي ومدلولها الحاضر ، وأنت ، إذا ما رَجَعْتَ البَصَرَ إلى أمم بعيدة منا كلَّ البعد منتسبةٍ إلى حضارات لا شَبَهَ بينها و بين حضارتنا ، وجدتَ الترجَمة من لغاتها لا تُسْفِر عن سوى ألفاظ مجردة من المعنى الحقيقيِّ ، وتُثير هذه الألفاظ في نفوسنا ، إذَنْ ، أفكاراً لا صلة بينها و بين الأفكار التي كانت تثيرها في الماضي ، وهذه الظاهرةُ تستوقف النظر ، ولا سيما عند البحث في لغات الهند ، وفي الهند ، حيث الأفكارُ مذبذبةٌ ، وحيث المنطقُ لا يشابه منطقَنا مطلقاً، لم يكن للألفاظ ذلك المعنى الدقيقُ المُقَرَّر الذي اتَّفَق له في أوربة بفعل القرون و بفعل مزاجنا النفسيّ في نهاية الأمر ، وفي الهند تَجِدُ كُتُباً كالويدَا قد تَعَذَّرَت ترجَمتُها وذهبت كلُّ محاولة في هذا السبيل أدراجَ الرياح[1] ، ومن الصعب جدًّا أن نَنْفُذ في فكر من نعيش معهم من الأفراد الذين نفترق عنهم سنًّا وجنساً وتربيةً ، ومن المتعذر على أيِّ عالِم أن يَنْفُذ في أفكار العروق التي اشتدَّت عليها وطأة أعفار العصور ، ولا يَنْفَع كلُّ علم مُكْتَسَب لغير إثبات عُقْم مثل هذه المحاولات .

وعلى ما في الأمثلة السابقة من اختصارٍ وقلةِ شرحٍ نراها تكفي لإثبات عُمْقِ ما تُحْدِثه الأمم من تَحَوُّل فيما تقتبسه من عناصر الحضارة ، وهذا الاقتباسُ يبدو عظيماً في الغالب لتَغَيُّر الأسماء فَجْأةً في بعض الأحيان ، مع أن هذا الاقتباس ضئيلٌ جدًّا على الدوام ، ولا يلبث العنصر المستعار أن يختلف في نهاية الأمر عن العنصر الذي قام مقامه ، وذلك مع القرون و بعمل الأجيال البطيء و بما يعتوره من

(١) ذكر أحد العلماء المتخصصين في أمور الهند ، مسيو بارت ، ما حدث من مساع كثيرة في ترجمة كتب الويدا فقال : « هنالك نتيجة أسفرت عن جميع الدراسات المتنوعة ، والمتناقضة أحياناً ، وهي عجزنا عن ترجمة تلك الوثائق بالمعنى الصحيح » .

إضافات متعاقبة ، والتاريخُ ، إذ يبالى بالظواهر على الخصوص ، لا يَأْبَهُ لتلك التغيرات المتعاقبة أبداً ، ونحن ، حين يقول لنا التاريخُ ، مثلاً ، إن أمةً اعتنقت ديانةً جديدة ، نتَمَثَّلُ من فَوْرِنا الديانةَ التى نَعرِفُها اليوم ، لا المعتقداتِ التى كانت قد اعْتُنِقَت فى الحقيقة ، ولا بُدّ من استبار غَوْر تلك المطابقات البطيئة لإدراك تكوينها ولمعرفةِ الفروق الفاصلة بين الألفاظ والحقائق .

وهكذا يتألف تاريخُ الحضارات من مطابقاتٍ متعاقبةٍ وتحولاتٍ صغيرةٍ متراكمة ، وإذا بَدَتْ هذه التحولاتُ لنا فُجَائيَّةً عظيمةً فذلك لأننا ، كما فى علم الأرض ، نَغُضُّ البَصَرَ عن التقلبات المتوسطة لِنُبْصِرَ التقلباتِ القُصْوَى .

وفى الحقيقة أن الأمة مهما بلغت من الذكاء والمواهب فإن قدرتها على هَضْم عنصر جديد من عناصر الحضارة تكون فى كلِّ وقت محدودةً جداً .

وما كانت خَلِيَّات الدماغ لتَهْضِمَ فى يوم واحد ما يجب لتمامه مرورُ عِدّة قرون ، وما كانت لتَهْضِمَ فى يوم واحد ما يلائم المشاعرَ وما يلائم احتياجاتِ مختلفِ الأمزجة ، وهَضْمٌ كهذا لا يكون إلا بتراكمات وراثية دائمة بطيئة ، ونحن ، عندما نبحث فى تطور الفنون لدى الأغارقة الذين هم أذكى أمم القرون القديمة ، نرى أن هذه الأمة تَطَلَّبَت قروناً كثيرة لتَخْرُجَ من نَقْل نماذج آشورَ ومصرَ نقلاً غليظاً فتَصِلَ بالتدريج إلى صنع ما لا تزال البشرية تُعْجَب به من الآثار النفيسة .

وإذا عَدَوْتَ بعضَ الأمم العريقة فى القِدَم كالمصريين والكلدانيين وجدتَ جميع الأمم التى تعاقبت فى التاريخ لم تفعل غيرَ هَضْم عناصر الحضارة التى يتألف منها تُرَاث الماضى مُحَوِّلَةً هذه العناصرَ وَفقَ مزاجها النفسىِّ ، ولو لم تَسْطِع الأمم أن تستفيد من تطور الحضارات الذى تَمّ سابقاً لكان تقدم الحضارات أبطأ مما هو عليه

بمراحلَ ولوجب أن يَبْدأ تاريخ مختلف الأمم بما بُدِئَ به من قبل ، وانْظُرْ إلى الحضارات التى أوجدتها مصرُ وكلدةُ منذ سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة تَجِدْها قد أَسفرت عن يَنْبُوع موضوعات اشتَقَتْ منه جميع الأمم بالتتابع ، وانْظُرْ إلى فنون اليونان تَجِدْها قد نشأت عن الفنون التى ظهرت على ضِفاف دِجْلة والنيل ، وانْظُرْ إلى الطِّراز اليونانىِّ تَجِدِ الطِّراز الرومانىَّ قد صدر عنه ، ثم اختلط الطِّراز الرومانىُّ هذا بمؤثِّرات شرقية فاشْتُقّ منه الطِّراز البزنطىُّ والطِّراز الرُّومَنِىُّ والطِّراز القوطىُّ ، أى اشْتُقَّتْ منه طُرُزٌ مختلفة باختلاف عبقرية الأمم التى نشأت فيها ، وعلى حسب عمر هذه الأمم ، ولـكن مع وجود أصلٍ واحد لهذه الطُّرُز .

وأقول مكرِّراً إن ما بَيَّناه آنفاً عن الفنون يُطَبَق على جميع عناصر الحضارة من نُظُم ولغات ومعتقدات ، ومن ذلك أن اللغاتِ الأوربيةَ تُشْتَقُّ من لغة أصلية كان يُتَـكلَّم بها فى هَضْبة آسية الوسطى ، ومن ذلك أن فِقْهنا وليدُ الفقه الرومانىّ ، وأن الفقه الرومانىّ وليدُ فقهٍ سابقٍ له ، ومن ذلك أن الدِّيانة اليهودية صَدَرَت رأساً عن المعتقدات الـكلدانية ، وأن الدِّيانة اليهودية اختلطت بعد ذلك بمعتقداتٍ آرية فصارت هذه الديانةَ العظيمةَ التى تسيطر على أمم الغرب منذ ألفى سنة ، ولم تكن علومنا نفسُها لتبلغ ما بلغته اليوم لولا عملُ القرون البطىء ، وتُبْصِر أعاظمَ مؤسسى علم الفلك الحديث ، مثل كُوبِرْنيك وكِپْلِر ونيُوتُن ، مرتبطين فى بطليموسَ الذىَ كان يُرْجَع إلى كتبه حتى القرنِ الخامسَ عشرَ ، وتُبْصِر بطليموسَ هذا يرتبط فى المصريين والـكلدانيين من طريق مدرسة الإسكندرية ، وهكذا نُبْصِر ، على الرغم من الفراغ الهائل الذى نراه فى تاريخ الحضارة ، تطوراً بطيئاً فى معارفنا نَرْجِـع به من خلال العصور والدول إلى فجر تلك الحضارات

القديمة التي يحاول العلم الحديث في الوقت الحاضر ربطها بالأزمنة الأولى حين لم يكن للبشرية تاريخٌ ، بَيْد أن اليَنْبُوع إذا كان واحداً فإن ما تحدثه كل أمة بحسب مزاجها النفسيّ من التحولات في العناصر المستعارة إقبالاً و إدباراً مختلفٌ إلى الغاية ، ومن هذه التحولات يتألف تاريخ الحضارات .

وفيما تقدم بَيَّنا أن العناصرَ الأساسية التي تتألف منها حضارة أمةٍ ما خاصةٌ بهذه الأمة ، وأن هـذه العناصرَ نتيجةُ مزاجها النفسيِّ وعِنوانُ هذا المزاج ، وأنها لا تنتقل من عِرْق إلى آخرَ من غير أن تخضع لتحولات عميقة جدًّا ، ومما رأيناه أيضاً أن الذى يَحْجُب مَدَى هذه التحولات هو ، من ناحيةٍ ، الضرورةُ اللغوية التي تَحْمِلنا على تعيين أمور مختلفة بألفاظ واحدة ، وهو ، من ناحيةٍ أخرى ، الضرورةُ التاريخية التي لا تؤدى إلى غير البَصَر بأقصى وجوه الحضارة ، لا إلى وجوهها المتوسطة ، ونحن حين ندرس في الفصل الآتي السُّنَنَ العامة لتطور الفنون يمكننا أن نُثْبِت ، بما هو أدقُّ من ذلك ، تعاقبَ التحولات التي تعتور عناصر الحضارة الأساسية عند انتقال هذه العناصر من أمة إلى أخرى .

الفصل الثالث

كيف تتحول الفنون

تطبيق المبادئ السابقة على دراسة تطور الفنون عند الأمم الشرقية – مصر – الأفكار الدينية التي تشتق منها فنونها – ما صارت إليه هذه الفنون بانتقالها إلى مختلف العروق كالأثيوبيين والأغارقة والفرس – تأخر الفن الإغريقي في دوره الأول – بطوء تطوره – انتحال الفرس للفن الإغريقي والفن المصرى والفن الآشورى وتطور هذه الفنون لديهم – يتوقف ما تعانيه الفنون من التحول على العرق ، لا على المعتقدات الدينية – أمثلة من التحولات العظيمة التي خضع لها الفن العربي بحسب العروق التي دانت بالإسلام – تطبيق مبادئنا في البحث عن أصول الفن في الهند وتطوره – استقت الهند واليونان من مصادر واحدة ، غير أنهما انتهتا إلى فنون لا نسبة بينها بسبب تباين عروقهما – التحولات الواسعة التي خضع لها فن البناء في الهند بحسب العروق التي تسكنها وعلى الرغم من تشابه المعتقدات .

بحثتُ في الصلات التي تصل بين مزاج الأمة النفسيّ ونُظُمها ومعتقداتها ولغتها فاقتصرتُ على بيانات موجزة في ذلك ، وذلك لِما يتطلبه إيضاح مثل هذه الموضوعات من مجلدات .

وأهونُ من ذلك أن نأتيَ بشرحٍ بيِّن للفنون ، وأما النظامُ أو المعتقد فأمرٌ مشكوكٌ في تعريفه ذو غموض في تفسيره ، ولا بُدَّ من أن يُبْحَث في الحقائق المتغيرة في كلِّ دور والمستترةِ وراء التعابير المَيِّتة ، وأن يُؤْتَى بعمل مُضْنٍ من البرهنة والنقد ، وصولاً إلى نتائجَ مختلَفٍ فيها من حيث النتيجةُ .

وبالعكس ترى الآثارَ الفنية ، ولا سيما المبانى ، بَيِّنةَ الحَدِّ سهلةَ التفسير ، والـكتبُ الحجرية هى أوضح الـكتب ، وهى التى لا تَـكْـذِب مطلقاً ، وهى التى خَصَّصْتُ لها مكاناً فائقاً فى كتبى عن تاريخ حضارات الشرق لهذا السبب ، ولقد كنتُ شديدَ الحَذَر من الوثائق الأدبية لِما تنطوى عليه من تضليل فى الغالب ومن فائدة فى النادر ، والمبانى لا تَخْدَع أبداً ، وهى تُعَلِّم دائماً ، والمبانى هى التى تَحْفَظ أحسنَ من سواها فـكرَ الأمم الغابرة ، ومما يُرْثى له عَمَى قلوب المتخصصين الذين لا يبحثون فى المبانى عن غير الـكتابات .

والآن لندرس ، إذَنْ ، كيف تُعَبِّر الفنونُ عن مزاج الأمة النفسىّ وكيف تتحول بانتقالها من حضارة إلى أخرى .

وسأقتصر فى هذا البحث على الفنون الشرقيه وحدَها ، وذلك لأن بيان تطور الفنون لدى مختلف العروق يتطلب دخولاً فى جُزْئيَّاتٍ لا يحتملها صدرُ هذا الكتاب ، وإن كان تكوينُ الفنون الأوربية وتحوُّلُها خاضعيْن لسنن واحدة .

ولنبدأْ بفنون مصرَ لنُبْصِر الحالَ التى كانت عليها بانتقالها انتقالاً متتابعاً إلى عروق ثلاثة مختلفة وهى : زنوج إثيوبية والأغارقة والفرس .

لا ترى بين الحضارات التى ازدهرت على وجه الأرض حضارةً كالحضارة المصرية عُبِّر عنها بفنونها ، وقد بلغ تعبير فنون تلك الحضارة عنها من القوة والوضوح ما لم تستطع معه المُثُل الفَنية التى ظهرت على ضِفاف النيل غيرَ ملاءمة تلك الحضارة وما لم تنتحلها الأمم الأخرى معه إلا بعد خضوعها لتحولات عظيمة .

خَرَجَت الفنون المصرية ولا سيما فَنُّ البناء المصرىّ من مَثَلٍ عالٍ خاصّ ظَلَّ شُغْلَ الأمة الدائم خمسين قرناً ، وكانت مصرُ تَحْلُم بأن تبتدع للإنسان مسكناً خالداً

تجاه حياته الفانية ، واحتقر العِرْق المصريُّ الحياةَ وتَملّقَ الموتَ ، وكان أولَ مايبالى به هذا العِرْق هو تلك الموميا الصامتةُ التى تتأمل تأملاً أبديًّا بعينيها الميناثيتين المُرَصَّعتيْن فى وجهها الذهبىّ ، وذلك من أعماق منزلها الأسود ، تلك الخطوطَ الهيروغليفيةَ الحافلةَ بالأسرار ، وهذه الموميا ، وهى فى حِمًى من كلّ تدنيس فى منزلها المأتمىّ الواسعِ كالقصر ، كانت تَجِدُ كلّ مايَفْتِنها فى حياتها الدنيوية القصيرة مُصَوَّراً ومنقوشاً على جُدُر الدهاليز التى لا نهاية لها .

وفنُّ البناء المصرىّ هو ، على الخصوص ، فنُّ بناء مأتمىّ ودينىّ غايتُه الموميا والآلهة ، وفى سبيل الموميا والآلهة كانت تُنْحَت السراديبُ وتُرْفَع المِسَلّات والأساطين والأهرام ، وفى سبيل الموميا كانت تُقَام التماثيل الكبيرة المفكِّرة على عروشها الحجرية فتعلوها سيما الحِلْم والجلال .

وكلُّ شىء فى ذلك الفنّ المعمارىّ ثابتٌ متين ما دام الخلودُ غايتَه ، ولو كان المصريون الأمّةَ الوحيدةَ التى عَرَفْناها من أمم القرون القديمة لأمكننا أن نقول إن الفنّ هو بالحقيقة أصدقُ دليل على روح العِرْق الذى أوجده .

ثم ظهرت أممٌ مختلفة أشدّ الاختلاف ، ومنها أمم متأخرة كالإثيوبيين وأممٌ عالية كالأغارقة والفرس قد اقتبست فنونَها من مصرَ وحدَها أو من مصرَ وآشور ، ولننظر إلى ما آلت إليه هذه الفنون بين أيدى تلك الأمم .

ولْنَرْجِع البَصَرَ ، أولاً ، إلى أحطّ الأمم المذكورة ، أى الإثيوبيين .

نَعلَم فى دور متقدم من التاريخ المصرىّ ، أى فى عهد الأسرة الرابعة والعشرين ، أن أمم السودان اغتنمت فرصة فَوْضى مصرَ وانحطاطِها فاستولت على بعض ولاياتها فأقامت مملكة كانت عاصمتها نباتة ثم مروا محافظةً على استقلالها عِدّةَ قرون .

وقد بَهَرت حضارة المغلوبين هذه المملكةَ ، فحاولت هذه المملكةُ نَسْخَ مبانى تلك الحضارة وفنونها ، ولكن هذا النقلَ الذى نَحُوزُ نماذجَ له ليس إلا نقلاً غليظاً فى الغالب ، وعِلةُ ذلك أن أولئك الزنوج كانوا من البرابرة المحكوم عليهم بألا يخرجوا من البربرية لانحطاطِهم الدماغىّ ، وهم لم يخرجوا من البربرية قَطّ على ما كان من عمل المصريين على تمدِينهم فى عِدَّة قرون ، ولا تَجِدُ فى التاريخ القديم أو الحديث مثالاً على ارتقاء أمة زِنْجِيَّة إلى مستوى الحضارة ، وفى كلِّ مرةٍ تقع فيها حضارةٌ راقية بين أيدى العِرْق الزِّنْجِىّ اتفاقاً لا تَعتَمّ هذه الحضارة أن تعود إلى أطوارٍ منحطة ، وذلك كما حدث بإثيوبية فى القرون القديمة وبِهاَيِتِى فى أيامنا .

وهنالك عِرْقٌ آخر كان من البرابرة أيضاً ، هنالك عِرْقُ الأغارقة المقيمُ بعَرْضٍ آخر ، ولكن من البِيضِ ، فاقتبس من مصرَ وآشورَ نماذجَ فنونه الأولى ، وفى البُداءة اقتصر على نقلٍ ممسوخ أيضاً ، وهو قد انتهت إليه نتائجُ فنون تَيْنِك الحضارتين العظيمتين بواسطة الفنيقيين الذين كانوا سادةَ الطرُق البحرية بين شواطئ البحر المتوسط وبواسطة أمم آسية الصغرى التى كانت سادةَ الطُّرُق البرية المؤدية إلى نينوى وبابل .

وكلٌّ يعلم درجة تفوق الأغارقة على أساتذتهم ، غير أن الاكتشافاتِ الأثريةَ الحديثة أثبتت أيضاً غِلْظةَ آثارهم الأولى ، ودَلَّتْ على ضرورة انقضاء زمنٍ حتى إنتاجهم نفيسَ الآثار التى كُتِب بها الخلودُ لهم ، وقد مضى الأغارقةُ نحو سبعة قرون فى ذلك الجهد الثقيل كى يبتدعوا فنّاً خاصّاً راقياً مستعينين بفنٍّ أجنبىّ ، ولكنّ ما حققوه من المبتكرات فى القرن الأخير هو أعظمُ مما وَصَلُوا إليه فى جميع العصور السابقة ، والحقُّ أن أطول جُهْد تَبْذِله الأمة لا يكون فى مجاوزة أعلى مراحل

الحضارة ، بل فى مجاوزة مراحلها الدنيا ، وتدلُّ أقدمُ مُنْتَجات الفَنِّ الإغريقىِّ ، أى نتائجُ كَنْز مِيسِينِ فى القرن الثانى عشرَ قبل الميلاد ، على عملٍ ابتدائىّ وتقليدٍ مُشَوَّه لأنْصابِ الشرق ، ثم مضت ستةُ قرون وما فَتِئَ الفنُّ الإغريقى يكون شرقيًّا ، فتَجِدُ بين أَبُولُونَ فى تِينْيَه وأبُولُونَ فى أُورْخُومِينَ و بين التماثيل المصرية شبهاً يقضى بالعجب ، بَيْدَ أن التقدم يسير قُدُماً ، فلم ينقض قرن حتى انتهينا إلى فِيدْياس وتماثيلِ البارْتِنُون العجيبة ، أى إلى فَنٍّ تَخَلص من أصوله الشرقية وفاق النماذجَ التى استوحاها زمناً طويلاً .

وقُلْ مثلَ هذا عن فَنِّ البناء ، وإن كان تعيينُ مراحل تطوره أصعبَ من ذلك ، ونحن نجهل ما يمكن أن تكون قصورُ أبطال أُومِيرُس حوالَى القرن التاسع قبل الميلاد ، ولكنَّ ما يُحَدِّثُنا عنه هذا الشاعر من الجُدُر النحاسية والمشارف اللامعة الألوان والحيوانات الذهبية والفِضِّيَّة الحافظةِ للأبواب يُذَكرنا فى الحال بقصور الآشور بين المَكْسُوة بصفائحِ برونزٍ و بآجُرٍّ مطلىّ بالميناء والتى يَحْرُسها ثِيرانٌ منحوتة ، ومهما يكن من أمرٍ فإن مثال أقدم الأعمدة الدُّوريّة الإغريقية التى يبدو أنها تَرْجِع إلى القرن السابع مما نَجِدُه فى الكَرْنَك و بنى حسن ، وإن فى العمود اليُونِىِّ عِدّةَ أجزاء مقتبسة من آشور ، بَيْدَ أننا نعلم أيضاً أن هذه العناصرَ الأجنبية المُنَضَّدة قليلاً فى البُداءة والممزوجةَ بعد ذلك والمتحولةَ فى نهاية الأمر مما نشأ عن أعمدة جديدة مختلفة عن نماذجها الأولى اختلافاً كثيراً .

وتَعْرِض علينا فارسُ فى طرفٍ آخرَ من العالم القديم انتحالاً مماثلاً وتطوراً مشابهاً لذلك ، غير أن هذا التطور لم يَبْلُغ غايتَه لِما كان من وَقْف الفتح الأجنبىِّ له بغتةً ، ولم تُقَيَّض لفارسَ سبعةُ قرون كما قُيِّض للإغريق ، بل تَسَنَّى لفارسَ

قرنان فقط لإبداع فنٍّ ، والعربُ وحدَهم هم الأمةُ الوحيدة التى وُفِّقَت ، حتى الآن ، لإبراز فَنّ خاص ّ فى مثل ذلك الزمن القصير .

ولم يبدأ تاريخُ فارسَ قَطّ إلا بِكُورشَ وخلفائه الذين استطاعوا أن يستولوا على بابلَ ومصر قبل الميلاد بخمسة قرون ، أى على مَرْكَزَي الحضارة اللذين كان مجدُهما يُنير العالَمَ الشرقىّ فى ذلك الحين ، ولم يكن أمر الأغارقة الذين خُبِّئ لهم أن يسيطروا على العالم ذات يوم ليَخْطُر على البال آنئذٍ ، فغَدَت الإمبراطوريةُ الفارسية مركزاً للحضارة إلى الزمن الذى قُضِيَ عليها فيه قبل الميلاد بثلاثة قرون من قِبَل الإسكندر الذى حَوَّل بذلك مركزَ الحضارة ذلك دفعةً واحدة .

وإذ لم يكن للفرس ، بعد استيلائهم على مصرَ وبابلَ ، فَنٌّ خاصٌّ فإنهم استعاروا من هذين البلدين نماذجَ ومتفننين ، وإذ لم يَدُمْ سلطان الفرس غيرَ قرنين لم يكن عندهم من الوقت ما يُحَوِّلون به هذه الفنونَ تحويلاً أساسيًّا ، ولكن الفرس حين انهاروا كانوا قد بدأوا بتحويل تلك الفنون ، ولنا فى أطلال برسپوليس (إصْطَخْر) التى لا تزال ماثلةً خبرٌ عن تكوين تلك التحولات ، أَجَلْ ، إننا نَجِدُ خَلْطاً هنالك لا ريب ، وإن شئت فَقُلْ نَجِدُ تَنَضُّدَ فنونِ مصرَ وآشورَ الممزوجةِ ببعض العناصر الإغريقية ، غير أن عناصرَ جديدةً تبدو هنالك ، يبدو هنالك ، على الخصوص ، العمودُ الإصْطَخْرِيُّ العالى الذى له تيجانٌ ذاتُ رأسيْن والذى نُبْصِر من تيجانه هذه أن الزمان لو أمهل الفرسَ لأبدع هذا العِرْقُ الرفيع فنًّا خاصًّا ، ولو لم يبلغ ما بلغه فَنُّ الأغارقة من السُّمو .

ولدينا دليلٌ على ذلك فيما نلاقيه من مبانى الفرس التى شُيِّدَتْ بعد عشرة قرون ، وبيانُ الأمر أن الأسْرة الكينية التى أسقطها الإسكندر قد خَلَفَتْها الأسرةُ

السلوقية فالأسْرةُ الأشكانية فالأسرة الساسانية التى قَضَى عليها العربُ ، وبالعربِ اكتسب الفرسُ فَنّاً بناء جديد ، وما يَشِيده الفرس من مبانٍ على أثر ذلك فذو طابعِ إبداعٍ ثابت ناشىء عن مَزْج الفنّ العربىّ بفنّ بناء الكينيين القديم المعَدّل بخَلْطٍ مع فَنّ الأشكانيين ذى المَسْحة اليونانية كالأبوابِ الشاهقة التى تبلغ ذُرْوَةَ وِجهة البناء وكالآجرّ المطلىّ بالميناء وكالأقواس ذات الزاوية فى أعلاها إلخ . وهـذا الفنّ الجديد هو الفنّ الذى نقَلَه المُغُول إلى الهند مُحَوّلاً بعد ذلك .

وتدلنا الأمثلةُ السابقة على ماقد تُحْدِثه الأمة من التحولات فى فنون أمةٍ أخرى، وذلك بحسب العِرْق و بحسب الزمن الذى يدوم فيه نفوذها .

ويَرْجِـع الفنّ المستعار ، كما رأينا ، إلى طورٍ منحطٍّ لدى عِرْقٍ متأخر كالإثيوبيين يَحْمِل وراءه قروناً مع اتصاف بقدرة دماغية ناقصة ، وقد رأينا لدى الأغارقة ، أى لدى العرق الرفيع وذى المجهود فى عِدّة قرون ، تَحَوُّلَ الفنّ القديم إلى فنّ جديد أعلى منه تحولاً تامًّا ، ولم نَجِد لدى عِرْقٍ آخرَ ، أى لدى الفرس الذين هم دون الأغارقة سُمُوًّا ، والذين لم يُمْهِلْهم الزمن ، غيرَ حِذْقٍ كبير فى التركيب و بدء بالتحويل.

ولكننا إذا عَدَوْنا تلك الأمثلة التى يَرْجِـع مُعْظمها إلى زمن بعيد وَجَدْنا من الأمثلة ما هو أحدث من تلك كثيراً ، وَجَدْنا من نماذج هذه الأمثلة مالا يزال قائماً وما يدلّ على عِظَم التحولات التى يُضْطَرّ العرق إلى إحداثها فيما يقتبسه من الفنون ، وتلك الأمثلةُ تزيد بروزاً عند النظر إلى أمم تدين بديانة واحدة مع اختلاف أصولها، وأقصِد بذلك المسلمين .

فلما استولى العرب فى القرن السابع على مُعْظم العـالم اليونانىّ الرومانىّ القديم وأقاموا إمبراطوريتهم العظمى التى لم تلبث أن امتدت من إسپانية إلى أواسط آسية مارّةً بجميع شمال إفْرِيقيّة وَجَدُوا أنفسهم أمام فنّ بناء واضح المعالم ، وَجَدُوا

أنفسهم أمام فَنِّ البناء البزنطيّ ، فانتحلوه على عِلَّاته فى بدء الأمر ، سواء أفى أسپانية أم فى مصرَ أم فى سورية ، وذلك فى شَيْد مساجدهم ، ولدينا برهانٌ على ذلك الانتحال فى مسجد عمر بالقدس ومسجد عمرو بالقاهرة وفى غيرهما من المبانى التى لا تزال قائمة ، ولكن ذلك الانتحال لم يَدُمْ طويلاً ، فقد رُئِىَ أن المبانىَ تتحول بين قطر وقطر وبين قرن وقرن بسرعة ، وفى كتابنا « حضارة العرب » درسنا أمر هذه التحولات ، فوَجَدْناها بلغت من الاتساع ما لا تُبْصِر معه أدنى شَبَهٍ بين بناء أُقيم فى بدء الفتح كمسجد عمرو بالقاهرة (٧٤٢) وبناء أُقيم فى آخر العهد العربىّ كمسجد قايتباى (١٤٦٨) ، ومما أظهرناه بشروحنا وصُوَرنا فى ذلك السِّفْر أن المبانىَ القائمة فى مختلف البلدان التى دانت لشريعة الإسلام بَلَغَتْ من الاختلاف ما يتعذر معه جمعها تحت اسم واحد ، وذلك خلافاً لِمَا يمكن فعله ، مثلاً ، فى أمر المبانى القوطية البادية التشابه مع تنَوُّعها .

ولا يمكن عَزْوُ تلك الفروق الأساسية فى فَنِّ بناء البلدان الإسلامية إلى اختلاف المعتقدات ما دام الدينُ واحداً ، بل يُعْزَى إلى اختلاف العروق الذى يُؤَثِّر فى تطور الفنون ومصاير الدول تأثيراً عميقاً .

وإذا صحّ ذلك القول وجب علينا أن ننتظر اطِّلَاعَنا فى البلد الواحد الذى تسكنه عروقٌ مختلفة على مبانٍ متباينةٍ أشدّ التباين ، على الرغم من وَحْدَة المعتقدات ووَحْدة السلطان السياسىِّ ، وهذا ما يشاهَد فى الهند بالضبط ، وفى الهند يَسْهُل أن تَجِدَ من الأمثلة ما يؤيد المبادئ العامة المعروضة فى هذا الكتاب فترانى أعود إليها على الدوام ، ولنا فى شِبْه جزيرة الهند الكبرى أكثرُ كُتُب التاريخ إغراءً وحِكْمةً ، واليومَ تُمَثِّل الهندُ ، فى الحقيقة ، القطرَ الوحيد الذى يمكن بانتقالٍ بسيط بين البقاع أن يُطاف به كما

يراد فى غضون الزمان وأن تُرَى فيه ماثلةً سلسلةُ المراحل المتعاقبة التى اضطُرت البشريةُ إلى مجاوزتها للوصول إلى مستوى الحضارة العالى ، وفى الهند تشاهِد جميع وجوه التطور ، تشاهِد فيه العصرَ الحجرىَّ كما تشاهِد فيه عصرَ الكهرباء والبخار ، ولا تَجِدُ فى مكانٍ ما تَجِدُه فى الهند من العوامل العظيمة التى تهيمن على تكوين الحضارات وتطورها .

وقد حاولتُ ، مُطَبِّقاً المبادئ المشروحة فى هذا الكتاب ، أن أَحُلَّ مسئلةً بُحِث عنها منذ زمن طويل ، حاولتُ اكتناهَ أصل فنون الهند ، وهذا الموضوع إذ كان معروفاً قليلاً إلى الغاية، و إذ كان ينطوى على تحقيق طريف لأفكارنا فى روح العروق ، نرى تلخيصَ أهمِّ خطوطه هنا (١) .

لم تَظْهَر الهندُ من ناحيةِ الفنون إلا فى زمن متأخر جدًّا من التاريخ ، ولا يكاد أقدم آثارها ، كأعمدة أشوكا ومعابد كارلى و بَهارَتْ وسانچى إلخ، يعود إلى ما هو أقدمُ من التاريخ الميلادىِّ بقرنين، وعندما أقيمت تلك الآثارُ كان مُعْظم حضارات العالم القديم المُسِنَّة ، كحضارات مصرَ وفارسَ وآشورَ ، قد أتمت دورها فأوغلت فى لَيْل الانحطاط ، وكانت حضارةُ رومة وحدَها تَحُلُّ محلَّ الحضارات الأخرى ، وكان العالَم لا يَعْرِف غير رومة سيداً .

واستطاعت الهندُ التى برَزتْ من ظِلِّ التاريخ فى زمن متأخر أن تقتبس ، إذَنْ، بعضَ العناصر من الحضارات السابقة ، غير أن العُزْلة العميقة التى قِيل إن

---

(١) أحيل القارئ ، الذى يود أن يطلع على ما لا يمكن الإلمام به هنا من الدقائق الفنية ، إلى كتابى « آثار الهند » المصور وفق الصور الفوتوغرافية التى التقطتها ووفق ما صنعته من رسم وتخطيط ، فنشره فيرمان ديدو ، وقد نقلت كثيراً من تلك الصور فى كتابى « حضارات الهند » المشتمل على ٨٠٠ صفحة من القطع الكامل .

الهند كانت تعيش فيها على الدوام، وأن ما فى آثارها من إبداع عجيب لا قرابةَ ظاهرةً بينه و بين جميع الآثار التى ظهرت قبلها ، مما أبعَد ، لطويلِ زمنٍ ، كلَّ افتراض لأىِّ اقتباس أجنبىّ فيها .

و بجانب ما فى آثار الهند الأولى من إبداعٍ لاجِدالَ فيه نرى هذه الآثار تَنِمُّ أيضاً على تفوّق فى الصُّنْع لم يُجَاوَزْ فى القرون التالية ، نَعَمْ ، لا بُدَّ من أن تكون الآثار المذكورة البالغةُ تلك الدرجةَ من الكمال قد سَبَقَها تَحَسُّسٌ طويل فى الظلام ، بَيْد أنك لا تَجِد أىّ رسم أو أىّ أثر مُنْحَطّ يَنِمُّ على ذلك التَّحَسُّس .

وما حَدَث فى بعض البقاع النائية الواقعة فى شمال شِبْه جزيرة الهند الغربىّ من اكتشاف جديد لبقايا من التماثيل والمبانى التى تَنِمُّ على المُؤثِّرات اليونانية الظاهرة حَمَلَ العلماء المشتغلين بأمور الهند على القول بأن الهند استعارت فنونها من الأغارقة .

وما كان من تطبيقٍ للمبادئ المعروضة آنفاً ، ومن البحث العميق فى مُعْظم المبانى التى لا تزال قائمةً فى الهند ، يسير بنا إلى حَلٍّ معاكس لذلك معاكسةً تامة ، فعلى ما كان للهند من صِلَة عابرة بالحضارة اليونانية نرى أن الهند لم تقتبس أىّ فنّ من فنونها ، وأن الهند لم تكن قادرة على استعارة ذلك ، فالعِرْقان المتواجهان إذ كانا متباينين كثيراً ، وكانت أفكارُهما مختلفةً اختلافاً كبيراً ، وكانت عبقريتهما الفنية متنافية تنافياً شديداً ، لم يكن أحدُهما ليُؤثِّرَ فى الآخر .

ثم إن دراسة الآثار المنثورة فى الهند تَدُلُّ من فَوْرِها على عدم وجود أىّ نَسَب بين فنونها و بين فنون الأغارقة ، و بينما ترى جميع آثارنا الأوربية مُشْبَعَةً من العناصر المقتبسة من الفنّ الإغريقىّ لا تَجِدُ فى عناصر فنون الهند أىّ عنصر من

ذلك الفن ، ويُثبِت أبسط المباحث أننا تِجاه عروق مختلفة إلى الغاية وأنه لم يوجَدْ من العبقريات ما هو متباينٌ، ولا متنافرٌ، كتباين العبقرية الإغريقية والعبقرية الهندوسية وتنافرِهما .

وكلما أوغلنا فى دراسة مبانى الهند وروح الأمم التى أوجدتها زادت تلك المعرفةُ جَلاء ، ونحن لا نعتمّ أن نرى أن العبقريةَ الهندوسيةَ ذاتيــةٌ كثيراً ، فلا تتأثر بمُؤَثِّرٍ أجنبىٍّ بعيد من فكرها ، أَجَلْ ، يمكن هذا المُؤَثِّرَ الأجنبىَّ أن يُفرَض فرضاً ، بَيْد أنه يظلُّ سطحياً موقتاً مهما طال أَمَدُه ، والذى يظهر هو أن بين مزاج مختلف عروق الهند النفسىِّ ومزاجِ الأمم الأخرى حواجزَ عاليةً عُلُوَّ الحواجز الهائلة التى جعلتها الطبيعة بين شِبْه جزيرة الهند الـكبرى وبقاع العالم الأخرى ، وقد بلغت العبقرية الهندوسية من الاستقلال ما تُحَوِّل به فى الحال كلَّ أمرٍ تقضى الضرورة عليها بتقليده فتجعله هندوسياً ، حتى فى فنِّ البناء حيث يَصْعُب إخفاء ما هو مستعار تَجِدُ ذاتية العبقرية الهندوسية الغريبة ومَلَـكَـتَها فى التغيير سافرتَـيْن ، ومن الممكن أن يُقلِّد المهندس المعمارىُّ عموداً إغريقياً ، ولـكن ذلك لا يَحُول دون تحويله إياه بسرعة إلى عمودٍ يبدو عند أبسط الأبحاث أنه هندوسىٌّ ، ومن الواقع أن مثل هذه التحويلات يُشَاهَد اليوم فى الهند حيث بلغ النفوذُ الأوربىُّ الغايةَ فى الزمن الحاضر ، وأَعْطُوا أحد متفننى الهندوس أىَّ نَمُوذَجٍ أوربىٍّ لينقلَه تجِدُوه مُنْتَحِلاً لِشكلِه العامِّ ، ولـكن مع مبالغة فى صنع بعض أجزائه ومع زيادةٍ وتبديلٍ فى دقائق زخارفه ، وهذا النَّمُوذَجُ إذا ما نُقِل مرةً ثانية أو مرةً ثالثة جُرِّد من كلِّ مَسْحَةٍ غريبة ليغدوَ هندوسياً خالصاً .

وظاهرةُ فن البناء الهندوسىِّ الأساسيةُ ، وهى ظاهرةٌ تبدو فى الآداب القريبة

من فنِّ البناء لهذا السبب ، هي الإفراط في المبالغة والغُلُوُّ في الجزئيات والتعقيدُ الذي يعاكِس على خطٍّ مستقيم بساطةَ الفنِّ الإغريقيِّ الباديةَ الباردة ، ونطلع بدراسةِ فنون الهند،على الخصوص،على درجة ما بين آثار العِرْق المماثلةومزاجه النفسيِّ من صِلةٍ وعلى تكَوُّنِ أوضح اللغات منها لِمَنْ يَعْرِف أن يُفسِّرها ، ولو كان الهندوسُ قد غابوا عن التاريخ غياباً تامًّا كما غاب الآشوريون لكان في نقوش معابدهم البارزة وفي تماثيلهم ومبانيهم ما فيه الكفاية لاكتشاف ماضيهم ، وكانت هذه الآثار تُخْبِرنا على الخصوص أن روح الأغارقةِ الجليةَ المُنَظَّمة لم تَسْطِعْ أن تؤثِّر تأثيراً دائماً في خيال الهندوس الفيّاض العاطل من الترتيب ، وكانت هذه الآثار تُوضِح لنا السبَب في أن تأثير الأغارقة في الهند لم يَبْدُ غيرَ عابرٍ مقتصرٍ على البُقْعة التي بَسَط عليها سلطانه بسطاً موقتاً .

حتى إن الدراسة الأثرية لمباني الهند تجعلنا نُؤَكِّد ، بوثائقَ دقيقةٍ ، ما تَنِمُّ عليه معارفُ الهند العامةُ وروحُ الهندوس في الحال ، وقد أدَّتْ تلك الدراسة إلى تحقيقنا الأمرَ الطريف القائل إن ملوك الهندوس ذوى الصِّلات بملوك فارسَ الأشكانيةِ ، وقد كانت حضارة فارس متأثرة بالطابع اليونانيِّ ، أرادوا إدخال الفنِّ الإغريقيِّ إلى الهند في مرات كثيرة ، ولاسيما في القرنين الأولين من الميلاد، فلم يُوَفَّقوا لإبقائه في الهند .

ولم يلبث ذلك الفنُّ المستعار الرسميُّ وغيرُ الملائم لفكر الشعب الذى أُدخل إليه أن زال بزوال المُؤثِّرات السياسية التي أوجبت ظهوره ، ثم إن العبقرية الهندوسية كانت تَكْرَه ذلك الفنَّ المستعار،فلم يكن ذا أثَرٍ في فنِّ الهند القوميِّ حتى في الزمن الذى فُرِض فيه ، والحقُّ أنك لا تَجِدُ أثراً إغريقيًّا في المباني الهندوسية المعاصرة لذلك الحين أو التي شِيدَتْ بعده كالمعابد المنحوتة تحت الأرض مثلاً ، وهذا

إلى أن من السهل تمييزَ الأثر الإغريقيّ فلا يمكن إنكارُه ، فإذا عَدَوْتَ المجموعَ البادىَ الإبداع على الدوام وَجَدْتَ فى الحال أن بعض الجُزْئيّات الفنية ، كمعمل النَّسْج ، قد صُنِعَ بيد متفننٍ إغريقيّ .

وكان زوال الفنِّ الإغريقيِّ عن الهند مفاجئاً كظهوره فيها ، وتُثْبِتُ هذه المفاجأةُ أمرَ فنٍّ صار استيرادُه وفرضُه رسميًّا من غير أن تكون بينه و بين الأمة التى حُمِلَت على انتحاله أيَّةُ قرابة ، والفنونُ لا تَمَّحِى على ذلك الوجه أبداً ، بل تتحول فيستعير الفنُّ الجديد من الفنِّ الذى وَرِثَه شيئاً على الدوام ، والفنُّ الإغريقىُّ ، إذ جىء به إلى الهند بغتةً على أثر المغازى ، زال من الهند بغتةً ، وهو لم يَتَّفِق له غيرُ تأثير ضعيفٍ ضَعْفَ تأثير المبانى الأوربية التى يَشِيدها الإنكليز فى الهند منذ قرنين .

وما كان من عدم تأثير الفنون الأوربية العتيدِ فى الهند ، مع مرور أكثرَ من مئة عام على ذلك السلطان المطلق ، يمكن تشبيهه بقلَّة تأثير الفنون الإغريقية منذ ثمانيةَ عشرَ قرناً ، ولا إنكارَ لِما هنالك من تنافرٍ بين مشاعر الفريقين الفنية ، والدليلُ على ذلك ما حَدَث من تقليد الفنون الإسلامية فى جميع أنحاء شبه جزيرة الهند مع أنها غريبةٌ عن الهند غُرْبَ الفنون الأوربية عنها ، ومن النادر ألا تَجِدَ شيئاً من الزُّخْرُف العربىِّ حتى فى أىِّ معبد من معابد أجزاء الهند التى لم يكن للمسلمين أىُّ سلطان فيها ، نَعَمْ ، إننا نرى اليوم فى الهند راجواتٍ مثلَ راجه غُوَالْيَارَ أَغْوَتْهم سيطرة الأجانب ، كما فى عهد الملك كنيشكا البعيد ، فأنشأوا قصوراً أوربية على الطِّراز اليونانىِّ اللاتينىِّ ، غير أن هذا الفنَّ الرسمىَّ المُنَضَّدَ على الفنِّ الأهلىِّ ، كما فى زمن كنيشكا ، هو غيرُ ذى تأثير فى هذا الفنِّ الأهلىِّ .

ومما تقدم ترى أن الفنَّ الإغريقىَّ وُجِدَ بجانب الفنِّ الهندوسىِّ فى الماضى كما

ترى الفنَّ الأوربيَّ بجانب الفنِّ الهندوسيِّ في الوقت الحاضر ، وذلك من غير أن يُؤثِّر أحدُهما في الآخر ، ولا تجِدُ بين مباني الهند الحقيقية واحداً يمكنك أن تقول إنه يشتمل في مجموعه أو في جزئياته على أيِّ شَبَهٍ قريب أو بعيد بأيِّ واحد من مباني الأغارقة .

وعجزُ الفنِّ الإغريقيِّ عن الرسوخ في الهند أمرٌ يستوقف النظر ، ويجب عَزْوُه إلى ذلك التنافر الذي ذكرنا وجودَه بين روحَيْ ذَيْنِك العِرْقَيْن ، لا إلى عجز الهند الفطريِّ عن هَضْم الفنون الأجنبية ما دامت الهند قد عَرَفَتْ كيف تَهْضِم الفنونَ الملائمة لمزاجها النفسيِّ وكيف تُحَوِّلها .

وما استطعنا جمعَه من الوثائق الأثرية يُثْبِت في الحقيقة كيف أن فارسَ حَبَت الهند بمصدر فنونها ، وليست فارسُ هذه هي فارسَ التي تأثَّرت بشيء من الفنِّ اليونانيِّ في عهد الأشكانيين ، بل فارسُ التي وَرِثَتْ حضارتَيْ آشور ومصرَ القديمتين، ومما نعلم أن الإسكندر عند ما أسقط أسْرةَ الملوك الكينية قبل الميلاد بثلاثمئة سنة كان الفرسُ حائزين لحضارة ساطعة منذ قرنين ، والفرسُ هؤلاء لم يكونوا قد انتهَوْا إلى طِراز جديد في الفنون لا ريب ، غير أن مَزْجهم للفنون المصرية والآشورية التي وَرِثوها أدى إلى إنتاجهم آثاراً ممتازةً ، وذلك كما يُعْلَم من أطلال برسپوليس (إصْطَخْر) التي لا تزال شاخصة ، فهنالك ترى أن الأبوابَ المصرية الشاهقة وثِيرَانَ آشورَ المُجَنَّحة و بعضَ العناصر اليونانية دالةٌ على تقابل جميع فنون الحضارات السابقة الكبرى في تلك البُقعة الآسيوية الصغيرة .

وفارسُ هي التي استوحتها الهندُ ، ولكن الهند لم تَسْتَقِ في الحقيقة سوى فنونِ كَلْدَة ومصرَ التي كانت فارسُ قد اقتصرت على تقليدها .

وتَنِمُّ دراسة مبانى الهند على ما استعارته الهند فى الأصل ، بَيْدَ أن تحقيق هذه الاستعارات يتطلب بحثاً فى أقدم تلك المبانى ، ومن صفات الروح الهندوسية أن تخضَع الاقتباساتُ عندها لتحولاتٍ تغدو بها غيرَ معروفةِ الأصل ، وذلك لتلائم مداركَ تلك الروح.

وما السببُ فى أن الهند التى بَدَتْ عاجزةً عن اقتباس شىء من اليونان استعارت من فارسَ بسهولةٍ ما عَنَّ لها ؟ يَرْجِع سبب ذلك إلى أن فنون فارسَ ملائمةٌ لمزاجها النفسىِّ لا رَيْب ، على حين ترى فنونَ الأغارقة لا تلائم تلك الروح مطلقاً، ويَرْجِعُ سبب ذلك إلى أن ما فى المبانى الإغريقية من أشكال بسيطة ووِجْهاتٍ قليلةِ الزُّخْرُف لا يناسب الروحَ الهندوسية ، على حين ترى الأشكال المركبة وفرطَ الزينة وغِنَى الزُّخْرُف فى مبانى فارسَ تُغْوِى تلك الروح .

على أن تأثيرَ فارسَ بفنونها فى الهند ، وذلك حين تمثيل فارسَ لمصرَ وآشورَ ، لم يقتصر على ذلك الدور البعيد الذى هو أقدم من التاريخ الميلادىّ ، فلمَّا ظهر المسلمون بعد ذلك بقرون كثيرة فى شِبْه جزيرة الهند أُشْبِعَت حضارتهم فى أثناء قَطْعِها لفارسَ من العناصر الفارسية ، فكان ما جاءت به تلك الحضارة إلى الهند فارسيًّا مُشْرَبًا بأثر التقاليد الآشورية القديمة التى أداها الملوك الكينيون فعُدَّت أبوابُ المساجدِ الهائلةُ وما يَسْتُر هذه الأبوابَ من الآجُرِّ المطلىِّ بالميناء من بقايا الحضارة الكلدانية الآشورية ، وقد عَرَفَت الهندُ أن تَهْضِم هذه الفنون أيضاً لملاءمتها عبقريةَ عِرْقِها ، مع أن الفنَّ الإغريقىَّ فى الماضى والفنَّ الأوربىَّ فى الحاضر منافيان لشعورها وتفكيرها فظَلَّا غيرَ مؤثرِيْن فيها على الدوام .

إذَنْ ، ترتبط الهندُ فى مصر وآشورَ من طريق فارسَ كما نرى ، لا فى الإغريق كما يذهب

إليه بعض علماء الآثار ، ولم تأخذ الهند من الإغريق شيئاً ، ولكن الهند والإغريق قد اشتقتا من ينابيعَ واحدةٍ ، من كنزٍ واحد هو أساس جميع الحضارات التى أنضجتها شعوبُ مصرَ وكلدةَ فى قرون كثيرة ، وقد اقتبست الإغريق ذلك الكنز بواسطة الفنيقيين وأمم آسية الصغرى ، وقد اقتبسته الهند بواسطة فارسَ ، وهكذا ترى أن حضارتى الإغريق والهند تُرَدَّان إلى يَنْبُوع واحد مع العلم بأن المَجْرَيَيْن اللذين تفرَّعا من هذا اليَنْبُوع لم يَلْبَثا أن اختلفا فى كلا البلدين اختلافاً كلياً وَفْقَ عبقرية كلٍّ من عِرْقَيْهما .

بَيْد أن الفنّ إذا كان ذا علاقة وثيقة بمزاج العِرْق النفسى كما قلنا ، وإذا كان الفنُّ الذى تقتبسه عروقٌ مختلفة يَكْتسب وجوهاً متباينةً لذلك السبب ، فإنه يجب علينا أن ننتظر حيازةَ الهندِ التى تَسْكُنها عروقٌ مختلفة أشدّ الاختلاف فنوناً متباينةً وطُرُزَ بناء غيرَ متشابهة على الرغم من وَحدة العقائد .

ويؤيِّدُ البحثُ فى مبانى مختلف بقاع الهند ذلك المبدأ ، وما بين مبانى الهند من فروقٍ يَبلغ من بُعْد الغَوْر ما نُقَسِّمها معه بحسب البقاع ، أى بحسب العِرْق ، لا بحسب دِين الشعوب التى شادتها ، وإنا لا نَجِدُ أىَّ شَبَه بين مبانى شمال الهند ومبانى جَنوبها التى أُقيمت فى دور واحد من قِبَل أمم تَدِين بدين متماثل على الخصوص ، حتى فى أيام سلطان الإسلام ، فى ذلك الدور الذى بلغت الوَحْدة السياسية فيه حَدَّها والذى وَصَلَت السلطةُ المركزية فيه إلى غايتها ، تُبْصِر اختلافَ المبانى الإسلامية الصِّرْفة بين بُقعةٍ وبُقعةٍ اختلافاً كبيراً ، فلا ترى بين مساجدِ أحمد آباد ولاهور وأغره وبيجابور سوى نَسَبٍ ضعيف ، سوى نَسَبٍ أقلّ مما بين عِمارةٍ أُقيمت فى عصر النهضة ومبانى العصر القوطىِّ مع أن تلك المساجدَ خاصّةٌ بدين واحد .

وليس فنُّ البناء وحدَه هو الذى يختلف فى الهند بين عِرْقٍ وعِرْقٍ ، بل تجِدُ صُنْعَ التماثيل يختلف فى مختلف بقاعها أيضاً ، لا من حيث الأمثلةُ التى تُعرَض وحدَها ، بل من حيث الوجهُ الذى تُعْمَل به أيضاً ، فقابلوا تماثيلَ سانچى أو نقوشها البارزة بما فى بَهارَت تجِدُوا الفرقَ واضحاً مع أن ما فيهما صُنِعَ فى زمن واحد تقريباً ، ويشتدُّ هـذا الفرق عند المقابلة بين تماثيل ولاية أوريسة ونقوشِها و بين ما فى بُنْدِيل كَهَند ، أو عند المقابلة بين تماثيل مَيْسور وما فى المعابد الكبرى بجَنوب الهند ، وهنالك يبدو تأثيرُ العِرْق فى كلِّ مكان ، ثم هو يبدو فى أقلِّ الأدوات الفنية ، ولا أحدَ يجهل درجة اختلاف هذه الأدوات بين ناحيةٍ وناحيةٍ من أنحاء الهند ، ولا احتياجَ إلى كبيرِ خِبْرَةٍ للتفريق بين صُنْدُوق صغير مصنوع من الخشب المحفور فى مَيْسُورَ وصُنْدُوقٍ صغير مصنوع من الخشب المحفور فى الكَجَرات ، كما أنه لا احتياجَ إلى كبير خِبْرَةٍ للتفريق بين حِلْيةٍ صُنعت فى ساحل أوريسة وحِلْيةٍ صُنعت فى ساحل بَمْبِي .

أَجَلْ ، إن فنَّ بناء الهند فَنٌّ دينيٌّ على الخصوص كفنِّ بناء جميع الشرقيين ، ولكن مهما كان المُؤَثِّر الدينيُّ كبيراً فى الشرق خاصَّةً تجدُ التأثيرَ العِرْقِيَّ أعظمَ منه بدرجات .

وروحُ العِرْق التى تُسَيِّر مصـــير الأمم تُوَجِّه معتقداتِها ونُظُمَها وفنونَها إذَنْ ، ومهما يكن عنصر الحضارة الذى نبحث عنه نَجِدْ فيه تلك الروحَ على الدوام ، وتلك الروحُ هى القدرةُ الوحيدة التى لا تَغلِبها قدرة ، وهى تُمَثِّل وطأة الأجيال وخلاصة أفكارها .

الباب الثالث

اشتقاق تاريخ الأمم من أخلاقها

الفصل الأول

كيف تشتق النظم من روح الأمة

يشتق تاريخ كل أمة من مزاجها النفسي على الدوام – أمثلة مختلفة – كيف تشتق نظم فرنسة السياسية من روح العرق – ثباتها الحقيقي تحت تقلبها الظاهر – تسير أحزابنا السياسية كلها إلى أهداف سياسية واحدة وإن اختلفت الأسماء – مثل أحزابنا الأعلى هو النظام المركزي والقضاء على خلق المبادرة الفردي في سبيل الدولة – كيف أن الثورة الفرنسية لم تصنع غير تنفيذ برنامج نظامنا الملكي السابق – تشتق نظم الأمم من أخلاقها على الدوام .

يمكن عَدُّ التاريخ عَرْضاً بسيطاً للنتائج الصادرة عن مزاج العروق النفسيّ ، ويُشْتَقُّ التاريخُ من ذلك المزاج كما تُشْتَقُّ أعضاء التنفس في الأسماك من حياتها المائية ، و يغدو تَطَوُّر التاريخ ، بغير سابق معرفةٍ لمزاج الأمة النفسيّ ، خَلْطاً من الحوادث التي لا سَيِّدَ لها سوى المصادفة ، وعندما نَعْلَم روح الأمة تبدو حياتها بالعكس نتيجةً منتظمة مُقَدَّرة لصفاتها النفسية ، ونَجِدُ في جميع مظاهر العيش لدى الأمة دائماً روحَ العِرْق الثابتة الناسجة لمصيره الخاصّ دائماً .

و يبدو سلطانُ روحِ العِرْق القاهرُ واضحاً في النُّظُم السياسية على الخصوص ، ومن السهل إثبات ذلك ببعض الأمثلة .

ولنَنْظُرْ إلى فرنسة قبل كلِّ شيء ، لنَنْظُرْ إلى هذا البلد الذي خَضَع لأعمق

الانقلابات ، هـذا البلدِ الذى يلوح أن النُّظُم السياسية تغيرت فيه تغيراً أساسيًا فى سنين قليلة ، هذا البلدِ الذى تبدو الأحزاب السياسية فيه مختلفةً أشدَّ الاختلاف ، ولو نظرنا من الناحية النفسية إلى تلك الآراء البادية التناقض و إلى تلك الأحزاب المتناحرة لعلمنا أنها فى الحقيقة أساسٌ مشترك فيه متماثلٌ مُمَثِّلٌ لهَدَفِ عِرْقنا الأعلى تمثيلاً كاملاً ، ولا غَرْوَ ، فالمتشددون والجَذْرِيُّون والمَلَكِيُّون والاشتراكيون عندنا ، و إن شئت فَقُلْ جميع المناضلين عن أشدِّ المذاهب تبايناً عندنا ، يتَعقبون غايةً واحدة بعناوينَ متباينةٍ ، وتلك الغايةُ هى ابتلاع الدولة للفرد ، وكلُّ ما يرغب فيه الجميعُ بحرارةٍ واحدة هو النظام المركزىُّ القيصرىُّ القديم ، أى الدولة المُوَجِّهة لكلِّ شيء والمنَسِّقَة لكل شيء والمستغرقة لكل شيء والمُنَظِّمَةُ لحياة أبناء الوطن فى أدقِّ جزئياتها مُعْفيةً إياهم عن إبداء أيِّ بصيصٍ من التأمل والمبادرة ، وسواء أَدُعِيَ السلطان الذى يكون على رأس الدولة ملكاً أم قيصراً أم رئيساً أم غيرَ ذلك ، وذلك السلطان مهما كان أمره ، يُمَثِّل مَثَلاً واحداً بحكم الضرورة ، يُمَثِّل ذلك المَثَل الذى يُعَبِّر عن مشاعر روح العِرْق ، والعِرْقُ لا يُطِيق مَثَلاً سواه .

و إذا كانت شِدَّة انفعالنا ، ومَلاَمَتُنا المتصلةُ ضدَّ الحقائق الحاضرة ، وفكرتُنا فى أن تغيير الحكومة يجعلنا أوفرَ حظًّا ، أموراً تَحْفِزُنا إلى تبديل نُظُمنا على الدوام فإن إرادة الأموات التى تقودنا تَقْضِى علينا بألاَّ نُغَيِّر غيرَ الألفاظ والظواهر ، وقد تَبْلغَ ما فى روح العِرْق من قدرةٍ لا شاعرةٍ مبلغاً لا نُبْصِر به حتى الوهمَ الذى نذهب ضحيته .

ولا جَرَم أننا إذا لم ننظر إلى غير الظواهر لم نَجِدْ ما هو أكثر اختلافاً بين النظام القديم والنظام الذى أسفرت عنه ثورتنا الكبرى ، وهذه الثورة لم تَصْنَع مع ذلك

غيرَ إدامة التقاليد المَلَكية من غير قصدٍ مُتِمّةً لنظام المركزية الذى بُدِئَ به فى العهد المَلَكى منذ بضعة قرون ، ولو بُعِث لويسُ الثالثَ عشرَ ولويسُ الرابعَ عشرَ من قَبْرَيْهما ليَحْكُمَا فيما صنعته الثورة الفرنسية لأَنْحَيَا باللائمة ، لا ريب ، على القسوة التى اتُّخِذَت فى سبيل تحقيقه ، ولكنْ مع عَدِّهما إياه ملائماً لتقاليدهما وبرنامجهما ومع اعترافهما بأنهما لو فوّضا إلى وزيرٍ تنفيذَ هذا البرنامج ما كُتِب له نجاحٌ أحسنُ مما وقع ، وقد كانا يُبَيِّنان كيف أن أقلَّ الحكومات التى عَرَفَتها فرنسة ثورةً هى حكومةُ الثورة الفرنسية ، وقد كانا يُحَقِّقان ، فضلًا عن ذلك ، أنه لا نظامَ من النُّظُم التى تداولت فرنسة منذ قرنٍ حَاوَلَ مَسَّ ذلك العمل ما دام ثَمَرَةَ تطورٍ مُنَظَّم وإدامةً للمَثَلِ المَلَكِيِّ الأعلى وعُنواناً لعبقرية العِرْق ، ومما لا مِرَاءَ فيه أن ذَيْنِك الطَّيْفين الشهيرين يُبْدِيان ، إذْ ذاك ، شيئاً من النقد بسبب تجربتهما العظيمةِ فيلاحظان ، على ما يحتمل ، أن إقامة الطائفة الإدارية مقامَ الطائفة الأريستوقراطية الحكومية يَعني إحداثاً فى الدولة لسلطة لا شخصيةٍ مرهوبة أكثرَ من طبقة الأشراف القديمة لحيازتها ، وهى تتفلت من التغييرات السياسية، تقاليدَ وروحاً طائفيةً وعدمَ تَبِعةٍ ودَيْمُومةً ، أى سلسلةً من الأحوال التى تُؤَدِّى إلى جعلها السيدَ الوحيد ، وأعتقدُ أنهما لا يُصِرَّان على هذا الاعتراض مع ذلك عادَّين الأُمَمَ اللاتينية ، وهى قليلةُ المبالاة بالحرية كثيرةُ الطمع فى المساواة ، أنها تحتمل بسهولةٍ ضروبَ الاستبداد على أن يكون الاستبدادُ بأنواعه غيرَ شخصىّ ، وقد يَجِدَان أيضاً شيئاً من الإفراط والطغيان فى الأنظمة التى لا يُحصيها عَدٌّ ، وفى ألوف القيود التى تُحيط اليومَ بأدقِّ شؤون الحياة ، ومما قد يذكرانه أن الدولة إذا ما ابتلعت كلَّ شىء ، ونَظَّمَت كل شىء ، وجَرَّدَت أبناء الوطن من كلِّ مبادرة أصبحنا فى سواء الاشتراكية من

تِلْقاء أنفسنا ومن غير احتياج إلى ثورة جديدة ، ولكنهما يُبْصِران بالنُّورِ الإلٰهيِّ الذى يضىء الملوكَ ، أو يُبْصِران عند عدم هـذا النور بالنورِ الرياضىِّ القائلِ إن المعلولاتِ تَزِيدُ على نسبة هندسية عند وجود العِلَل ذاتِها ، أن الاشتراكية ليست سوى آخرِ تعبيرٍ للفكرة المَلَكِيَّة التى لم تكن الثورةُ الفرنسية غيرَ طورٍ مُعَجِّلٍ لها .

وهكذا نَجِدُ فى نُظُم الأمة الأحوالَ العَرَضِيَّةَ التى ذكرناها فى أول هـذا الكتاب والسُّنَنَ الدائمةَ التى حاولنا تحديدها ، والأحوالُ العَرَضِيَّة تُوَلِّدُ الظواهرَ على الخصوص ، والسُّنَنُ الأساسية المشتقة من أخلاق الشعوب تُوَلِّد مصيرَ الأمم .

ويمكننا أن نُضِيف إلى المثال السابق مثالَ عِرْقٍ آخر ، مثالَ العِرْقِ الإنكليزىِّ الذى يختلف بمزاجه النفسىِّ أشدَّ الاختلاف عن عِرْقنا ، وبهذا الأمر وحدَه تبتعد نُظُمه ابتعادًا أساسيًّا عن نُظُمنا .

وسواءٌ أكان على رأس الإنكليز مَلِكٌ كما فى إنكلترة ، أم رئيسٌ كما فى الولايات المتحدة، تتَّصف حكومتهم ، دائمًا ، بالمميزات الأساسية الآتية وهى : تقليلُ عمل الدولة إلى أقصى حدٍّ وزيادةُ عمل الأفراد إلى أبعد غاية ، أى عكسُ المَثَل اللاتينىِّ الأعلى ، فتُنْشأُ المرافقُ والقَنَوات والخطوط الحديدية ودور التعليم إلخ . وتدارُ بمبادرة الأفراد ، لا بمبادره الدولة[1] ، وما كانت الثَّوْرات أو الدساتير أو الطغاة لتَمْنحَ الأمة ما لا تَمْلِكه ، أو تَنْزِعَ منها ما تَمْلِكه ، من الصفات

(١) يجب أن تلاحظ زيادة المبادرة الفردية فى أمريكة على الخصوص ، وأما فى إنكلترة فقد أخذت تهبط منذ ثلاثين سنة بما يستوقف النظر ، فالحكومة فى إنكلترة أخذت تستوعب كل شىء مقداراً فقداراً .

الخُلقية التى تُشْتَقُّ نُظمها منها ، ومما كُرِّر غيرَ مرة أن الأمم تُعْطَى الحكوماتِ التى تستحقها ، وهل لنا أن نتصور للأمم حكوماتٍ أخرى ؟

وسنُبَين بمختلف الأمثلة أن الأمة لا تتفلت من نتائج مزاجها النفسىّ ، وأنها إذا ما تَفَلَّتت منها كان ذلك لوقتٍ قصير ، وذلك كالرمل الذى تُثيره الزوبعة فيبدو فِرَارُه من سُنَن الجاذبية ذاتَ حين ، ومن الوهم الخَطِر أن يُعْتَقد أن الحكوماتِ والدساتيرَ ذاتُ تأثير فى مصير الأمة ، ومصيرُ الأمة فى يدها ، لا فى الأحوال الخارجة عنها بالحقيقة ، وكلُّ ما يمكن الحكومةَ أن تُسْأل عنه هو أن تُعبِّر عن مشاعر الأمة التى تُدْعَى إلى الهيمنة عليها وعن أفكار هذه الأمة ، والحكومةُ هى صورة الأمة على العموم ، ولا يقال عن أية حكومة ، ولا عن أىّ نظام ، إنهما طَيِّبان أو فاسدان مطلقاً ، ومن المحتمل أن كانت حكومةُ ملك الداهومى صالحةً للأمة التى كانت تَسُوسها ، وقد يكون أحكمُ الدساتير الأوربية سيئاً لهذه الأمة ، ومن المؤسف أن يَجْهَل رجال الدولة ذلك فيرَوْن أن الحكومة سِلْعةٌ للتصدير وأن من الممكن حُكْمَ المستعمرات بنُظُم أمِّ الوطن ، وهذا يَعْدِل محاولةَ إقناع السمك بالعيش فى الهواء بحجة أن التنفس الهوائىّ هو تنفس جميع الحيوانات العليا .

والأممُ المختلفة لاختلافِ مزاجِها النفسىّ وحدَه لا تَبْقَى تحت نظام واحد لطويلِ زمن ، وما كان الإيرلندىُّ والإنكليزىُّ ، أو السلافىُّ والمَجَرىُّ ، أو العربىُّ والفرنسىُّ ، ليخضعا لقوانينَ واحدةٍ إلا بأقصى الصعوبات ومُتَّصِل الثَّوْرات ، ولم تكن الإمبراطوريات الكبرى المشتملةُ على أمم مختلفة لتعيش إلا عيشاً موقتاً على الدوام ، وإذا ما كُتِب لتلك الإمبراطوريات الكبرى بقاء طويل ، كما كُتب لإمبراطورية المُغُول ثم لإمبراطورية الإنكليز فى الهند ، فذلك لأن العروق المتقابلة

هى من الكَثْرَةِ والتباين والتنافس بحيث لا تُفَكِّر فى الاتحاد ضدّ الأجنبىّ ، وذلك لأن سادتها الأجانب لهم من الغرائز السياسية الصادقة ما يحترمون به عاداتِ الأمم المغلوبة ويَدَعُونها تعيش به خاضعةً لشرائعها الخاصة .

ولو أُريدَ بيانُ جميع النتائج الصادرة عن مزاج الأمم النفسىّ لَكُتِبَت عِدَّةُ مجلداتٍ ولَجُدِّد التاريخ بأسْره ، ويجب أن يكون البحث العميق فى ذلك المزاج النفسىّ أساسَ السياسة والتربية ، ولو كانت الأممُ تستطيع أن تَتَفَلّت من مقادير عِرقها ، ولو كان صَوْتُ الأموات المُتَجَبرُ غيرَ خانقٍ لصوتِ العقل ، لصان الأممَ ذلك البحثُ من أغاليطَ كثيرةٍ وانقلاباتٍ غيرِ قليلة .

الفصل الثانى

تطبيق المبادئ السابقة على البحث المقارن في تطور الولايات المتحدة بأمريكة والجمهوريات الإسبانية الأمريكية

الخلق الإنكليزى – كيف تكونت الروح الأمريكية – شدة الانتخاب الناشىء عن أحوال الحياة – زوال العناصر الدنيا القسرى – الزنوج والصينيون – أسباب رخاء الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الإسبانية الأمريكية على الرغم من تماثل النظم السياسية – الفوضى القهرية فى الجمهوريات الإسبانية الأمريكية نتيجة لانحطاط أخلاق العرق .

تثبت الملاحظات المختصرة السابقة أن نُظُم الأمة تُعبِّر عن روحها وأن الأمة إذا سَهُل عليها أن تُغير شكل هذه النُّظُم لا تقدر على تغيير أساسها ، والآن نُبيِّن بأمثلة واضحة درجةَ سيطرة روح الأمة على مصيرها كما نُبين الشأنَ الضئيل الذى تُمثله النُّظُم فى ذلك المصير(١) .

(١) كان العالم الاجتماعى الشهير هربرت سپنسر قد ترك فى كتبه الكبيرة ، جانباً ، تأثير أخلاق الأمم فى مصيرها ، وقد ساقته نظرياته الجميلة فى بدء الأمر إلى نتائج تدعو إلى التفاؤل الكثير ، فلما تقدم فى السن رأى أن ينظر إلى شأن الأخلاق الأساسى فاضطر إلى تغيير نتائجه الأولى تغييراً تاماً فاستبدل بها نتائج داعية إلى تشاؤم عظيم ، ونجد ذلك فى خطبته التى نقلتها مجلة المجلات ، وإليك بعض ما جاء فيها :

« ضعف إيمانى بالنظم الحرة ضعفاً كبيراً فى هذه السنوات الأخيرة بعد أن كان متيناً فى البداءة . . . ونحن نرجع إلى نظام اليد الحديدية الذى يتجلى فى الاستبداد القرطاسى لنظام اشتراكى ، ثم يتجلى فى الاستبداد العسكرى الذى يخلف الاستبداد القرطاسى ما لم يأتنا هذا الاستبداد العسكرى فجأة بفعل انقلاب اجتماعى » .

و إننى آخُذُ هذه الأمثلةَ من بلد تعيش فيه جَنْباً لِجَنْب ، وذلك فى بيئة ذات أحوال قليلة الاختلاف ، عروقٌ أوربية متماثلة فى الحضارة والذكاء غيرُ مختلفةٍ فى سوى الأخلاق ، أى آخُذها من أمريكة ، وتُؤلّف أمريكة من قارّتَيْن يجمعهما بَرْزخٌ ، وتتساوى تانك القارّتان مساحةً تقريباً وتتشابهان تراباً تشابهاً كبيراً ، والعرقُ الإنكليزىُّ كان قد استولى على إحداهما ، والعرقُ الإسپانىُّ كان قد استولى على الأخرى ، وكلا العرقين ذو دساتيرَ متشابهةٍ ما دامت جُمهورياتُ أمريكة الجنوبية قد نقلت دساتيرَها من دُستور الولايات المتحدة ، وهنالك لا ترى ، إذَنْ ، غير اختلافِ عروقٍ متقابل نستعين به على إيضاح مختلف مصاير تلك الأمم ، و إليك نتائجَ هذا الاختلاف :

لنبدأ بتلخيص أخلاق العِرْق الأنغلوسكسونىّ الذى عمّرَ الولاياتِ المتحدة ، وذلك فى بضع كلمـات ، وفى العالمَ لا تَجِدُ عرقاً أكثرَ تجانساً منه مع اختلاف أصله ، وفى العالمَ قد لا تَجِدُ عرقاً ذا مزاج نفسىّ أسهلَ تعريفاً من مزاجه فى خطوطه الكبرى .

ومن الناحية الخُلقية يمتاز ذاك المزاجُ النفسىُّ بإرادةٍ قلما اتفقت لأمة خلا الرومانَ وبهمّةٍ لا تُقْهَر و بقوةِ مبادرةٍ نامية إلى الغاية و بضبطِ نفسٍ و باستقلال يَخْرُج عن حَدِّ الأُنس و بنشاطٍ قوىّ و بشعور دينىّ شديد و بأدب ثابت و بمعرفة جَليّةٍ للواجب .

ومن الناحية الذهنية لا تجِدُ ما يَسْهُل بيـانُه من الصفات الخاصة ، أى من العناصر الخاصة التى لا يُشَاهَد مثلُها لدى الأمم المتمدنة الأخرى ، ولا نرى غيرَ ذكر ذلك التمييز الصادق الذى تُدْرَك به ناحية الأمور العملية الإيجابية ولا يُضَلُّ به فى المباحث الوهمية ، وغيرَ ذكر ذلك الذوقِ الممتاز للوقائع وذلك التّذَوقِ الهزيل للمبادئ

العامة ، وغيرَ ذكرِ ذلك البَصَر الضيِّق الذى يَحُول دون تَبَيُّن ما فى المعتقدات الدينية من نواحٍ ضعيفةٍ والذى يجعل هذه المعتقداتِ فى حِمًى من الجَدَل .

و إلى تلك الصفات العامة تُضاف صفة التفاؤل التامّ التى تَبْدُو بها طريق الرجل فى الحياة مُمَهَّدةً فلا يَفْتَرِض أنه يَقْدِر على اختيار ما هو أحسن منها ، وهو يَعْلَم ، دائماً ، ما يَطْلب منه وطنه وأُسْرته وآلهته ، و يبلغ هذا التفاؤل من الشدة درجةً يُعَدُّ بها كلُّ عنصر أجنبىّ محتقراً ، والحقُّ أن احتقار الأجنبىّ وعاداتِه يجاوز فى إنكلترة الحدَّ الذى كان الرومان فى إبَّان عظمتهم يحتقرون البرابرةَ به ، ولهذا الاحتقار تُبْصِر زوالَ كلِّ مقياس أدبىٍ تجاه الأجنبىٍّ ، واحتقارُ الأجنبىِّ هذا يَنِمُّ على شعور متأخر من الناحية الفلسفية لا ريب ، غير أنه بالغُ الفائدة فى تقدم الأمم ، ومن الإصابة قولُ القائد الإنكليزىّ وُلْسلى إن ذلك الاحتقار من عوامل قوة إنكلترة ، ومن الإصابة أن قيل إن الإنكليز يُعْنَوْن كالصينيين بمنع تسرب أىّ نفوذٍ أجنبىّ فيهم ، وذلك بسبب رفضهم الصائب إنشاء نَفَقٍ تحت المانش تَسْهُل العلائقُ بينهم و بين القارَّة به .

وتَجِدُ الأخلاقَ المذكورة فيما تقدم فى مختلف الطبقات الاجتماعية ، ولا تبصر عنصراً عن عناصر الحضارة الإنكليزية إلاّ وعليه طابعٌ قوىٌّ من تلك الأخلاق ، و تلك الأخلاقُ تَقِفُ نظرَ الأجنبىِّ الذى يزور إنكلترة ولو لبضعة أيام ، ومما يراه هذا الأجنبىُّ ذلك الاحتياجُ إلى الحياة المستقلة فى كُوخٍ أدنى مستخدَم ، وهذا الكوخُ منزلٌ ضيِّق لا ريب ، ولكنه فى حِمًى من كلِّ ضغط وفى مُنْتَأًى من كلِّ جوار ، ويرى الأجنبىُّ ذلك الاحتياجَ إلى الاستقلال فى المحطات المطروقة حيث يَطُوف الجُمهور فى كلِّ ساعة من غير أن يُزْرَب كقطيع من الغنم الطَّيِّع خلف حاجزٍ

يَحْرُسه موظفٌ كما لو وجب عليه حفظُ سلامةِ الناس الذين لا يَجِدُون فى أنفسهم من الانتباه الضرورىّ ما يصونون به أنفسهم من الدَّوْس ، و يَطَّلِع ذلك الأجنبىُّ على نشاط ذلك العِرْق فى عمل العامل القاسى كما يَطَّلع عليه فى عمل الطالب الذى وُضِعَ حبلُه على غارِبه منذ صِباه فيتعلم السَّيْرَ وحدَه عالماً أنه لا أحدَ غيرَه يُعْنَى بمصيره ، و يَطَّلع ذلك الأجنبىُّ على نشاط ذلك العِرْق لدى الأساتذة الذين يكتفون بقليلِ تعليمٍ و يبالون بكثيرِ أخلاقٍ عادِّين الخُلق من أقوى العوامل المُحَرِّكة فى العالم[1] ، و إذا ما رَجَعَ ذلك الأجنبىُّ بَصَرَه إلى حياة المواطن العامّة أَبْصَرَ أنه يُعْتَمد ، دائماً ، على قوة المبادرة الفردية لا على الدولة ، لا فرق فى ذلك بين إصلاح يَنْبُوع قريةٍ و إنشاء مرفأٍ بحرىّ ومدّ خطّ حديدىّ ، وحين يتابع ذلك الأجنبىُّ بَحْثَه لا يلبث أن يعترف بأن تلك الأمة هى الأمةُ الحرة الوحيدة حقًّا على الرغم من معايبها التى تجعلها فى نظر الأجنبىِّ أكثرَ الأمم جفاء ، وذلك لأنها وحدَها هى التى استطاعت أن تَعْرِف كيف تسير طايفةً فلا تترك لحكومتها غير أدنى حدّ من العمل ، و إذا ما تَصَفح الباحثُ تاريخ تلك الأمة وَجَد أنها أولُ من عَرَف أن يتخلص من كلّ سيطرة للكنيسة أو للملوك ، وكان الفقيهُ فُورْتِسْكُو يعارِض فى القرن الخامسَ عشرَ « القانونَ الرومانىَّ الذى هو تُراث الأمم اللاتينية بالقانون الإنكليزىّ فيقول إن الأول هو من صنع الأمراء المطلقين فيعمل على التضحية بالفرد ، و إن الثانى هو من عمل الجميع فيعمل على حماية الفرد » .

و إذا ما هاجرت أمةٌ تلك هى حالها إلى أية بُقعة من بِقاع الدنيا لم تُعْتمِّ أن تصير

(١) عهدت ملكة إنكلترة إلى الأمير ألبرت فى تعيين شروط المكافأة السنوية التى تمنحها لكلية ولنغتن ، فقرر هذا الأمير أنها ستعطى لأعلى الطلاب أخلاقاً ، لا لأكثرهم تعلماً ، ولو كان الأمر لدى إحدى الأمم اللاتينية لكانت المكافأة نصيب الطالب الذى يفوق غيره فى استظهار ما تعلمه فى الكتب ، فالحق أن جميع تعليمنا ، حتى التعليم الذى نصفه بالعالى ، يقوم على استذكار الشبيبة للدروس ، والشبيبة تحتفظ بعد ذلك بعادة الاستذكار فى بقية حياتها .

ذات شوكة وأن تُؤَسِّس دولاً قوية ، وإذا كان العِرْقُ الذى تعزوه على جانب كبير من الضَّعْف فلا يُنْتَفَع به ، كأصحاب الجلود الحُمْر (البُورُوج) بأمريكة مثلاً ، أبادَتْهُ بانتظام ، وإذا كان العرقُ المقهور كثيرَ العدد وكان يمكن استغلاله ، كأهل الهند ، أُكْرِه على العمل فى سبيل سادته واستُثْمر بمهارة مع تركه حرًّا فى عاداته ونُظُمه .

ويجب ، فى بلد جديد كأمريكة ، تَتَبُّعُ التقدم العجيب المَدِينِ لمزاج العِرْق الإنكليزىّ النفسىّ ، ولا أحد يجهل ماذا أصبح هذا العِرْق ، وهو المعتمد على نفسه ، فيما نُقِلَ إليه من تلك البِقاع العاطلة من الفِلاحة والتى لم يَكَد يسكنها بعض المتوحشين ، فقد كفاه قرن واحد لينال إحدى المراتب الأولى بين دول العالم العظمى حتى قَلّ من يقدِر على مكافحته فى الوقت الحاضر ، وترانى أوصى بقراءة كتب مسيو روزيه عن الولايات المتحدة أولئك الذين يرغبون فى الوقوف على مقدار المبادرة العظيمة والنشاط الفردىّ اللذين يَبذُلها أبناء تلك الجُمهورية القوية ، فهنالك يُبْصِرون استعدادَ الناس إلى أقصى حدّ لإدارة أنفسهم بأنفسهم وللاشتراك فى إنشاء المشاريع الكبيرة وبناء المدن وشَيْدِ المدارس والمرافئ والخطوط الحديدية إلخ . وهنالك يبصرون عملَ الدولة إلى أدنى حدٍّ حتى يُمْكِنَ القولُ بعدم وجود سلطات عامة تقريباً ، وما يكون نَفْعُ تلك السلطات فيما خلا الشرطةَ والجيشَ والتمثيلَ الدِّبْلُمِىّ .

ثم إنه لا يُكْتَب فى الولايات المتحدة فَلَاحٌ إلا لمن هو حائز للصفات الخُلقية المذكورة سابقاً ، ولذلك ترى المُهاجَرَاتِ الأجنبيةَ لا تُغَيِر روحَ العِرْق العامة أبداً ، ومن شروط الحياة هنالك أن الذى يكون عاطلاً من تلك الصفات يغدو

محكوماً عليه بالزوال السريع ، والأنغلوسكسونىُّ وحدَه هو الذى يَقْدِر على العيش فى ذلك الوسط المُشْبَع من الاستقلال والإقدام ، وأما الإيطالىُّ فيموتُ فيه جوعًا ، وأما الإيرلندىُّ والزِّنْجىُّ فيعيشان فى الخِدَم الدنيا .

وتُمثِّلُ تلك الجُمهورية الكبرى أرضَ الحرية لا ريب ، وهى ليست أرضَ المساواة والإخاء ، ذَيْنِك الوهمين اللاتينيين اللذين لا تَعْرِفهما سُنَّةُ التقدم ، ولا تَجِدُ فى العالم مِثْلَ ذلك القطر قطراً أنشب الانتخابُ الطبيعىُّ فيه أظفارَه ، نَعَمْ ، يبدو ذلك الانتخاب الطبيعىُّ فاقدَ الرحمة هنالك ، وهو ، لِعَطَله من الرحمة ، حافَظَ العرْقُ الذى أوجب تكوينَه على قُوَّته وإقدامه ، ولا مكان فى الولايات المتحدة للضعفاء ومتوسطى الحال والقاصرين ، ولعاملِ الانحطاط وحدَه تَجِدُ الأشخاصَ المنحطين مُعَرَّضين للهلاك هنالك شعوباً ومنفردين ، وأصحابُ الجلود الحُمْرِ أُبيدوا برَصاص البنادق أو بالموت جوعاً لعدم نفعهم ، وسيكون للعُمّال الصينيين الذين تشتدُّ وطأة مزاحمتهم مثلُ ذلك النصيب فى نهاية الأمر ، ولم يُنَفَّذ القانون الذى سُنَّ لطردهم جُمْلَةً بسبب ما يقتضيه من النفقات العظيمة[1] . ومن المحتمل أن يُسْتبدل به استئصالٌ مُنَظَّم كالذى بُدِئ به فى كثير من المديريات ذات المناجم ، ومما سُنَّ حديثاً قوانينُ لِحَظْر دخول البلاد الأمريكية على المهاجرين الفقراء ، وأما الزنوجُ الذين اتُّخِذوا حُجَّةً لحرب الانفصال (وهى الحرب التى اشتعلت بين الأمريكيين الذين يملكون عبيداً والأمريكيين الذين أرادوا منع أولئك من اقتناء العبيد لعجزهم عن أن يملكوا مثلهم) فلم يُنْظَرْ إليهم بعين التسامح تقريباً

(١) لم يؤجل المؤتمر (الكونغرس) الثالث والخمسون تنفيذ قانون جيارى القائل بإخراج الصينيين إلا بعد أن وجد أن إعادة مئة الألف الصينى إلى بلادهم يتطلب ثلاثين مليون فرنك على حين كان المال المخصص فى الميزانية لطرد العمال الصينيين مئة ألف فرنك فقط .

إلا لاقتصارهم على خِدَمٍ منحطة يُعْرِض عنها أيُّ أمريكيّ كان ، وللزنوج هؤلاء جميعُ الحقوق نظريًّا، والزنوجُ هؤلاء يعامَلون عمليًّا كحيوانات ذات نفعٍ فيُتَخلص منهم إذا ما أضْحَوْا خَطِرين ، وقد وُجِدَت الكفاية فى الأساليب الحاسمة التى تقول بها طريقةُ لِنْش على العموم، فيُقْدَم بها الزنوجُ رمياً بالرَّصاص أوشنقاً عند أول جُرْم مزعج يقترفونه .

وتلك هى النواحى السُّود فى الصورة لا ريب ، وما فى هـذه الصورة من بَهاء يَحْمِل على احتمالها ، وإذا ما وَجَبَ تعريفُ الفَرْق بين أوربة البرية والولايات المتحدة بكلمةٍ واحدة أمكننا أن نقول إن أوربة البرية تُمَثل الحدَّ الأقصى لِما يمكن أن يُؤَدِّىَ إليه التنظيمُ الرسميُّ الذى يقوم مقام المبادرة الفردية، وإن الولاياتِ المتحدةَ تُمثل الحدَّ الأقصى لِما يمكن أن تؤدىَ إليه المبادرةُ الفردية المستقلة عن كلِّ تنظيم رسمىّ ، وفروقٌ أساسية كهذه هى من نتائج الخُلق وحدَه ، ولا حظَّ للاشتراكية الأوربية فى التأصُّل فى أرض تلك الجُمهورية الصَّلْد، والاشتراكيةُ الأوربية ، إذْ كانت آخر عُنوانٍ لطغيان الدولة ، لا تزدهر إلا عند العروق المُسِنَّة الخاضعة منذ قرونٍ لنظامٍ نزَع منها كلَّ استعداد لحكم نفسها بنفسها[1] .

وفيما تقدم رأينا ماذا أحدثه فى قسمٍ من أمريكة شعبٌ حائز لمزاج نفسىّ تَغلَّب عليه الثباتُ والإقدام والعزم ، فبَقِىَ علينا أن نُبَيِن ماذا آل إليه بلدٌ مماثل لذلك تقريباً على أيدى عِرْقٍ آخرَ ذكىٍّ على الخصوص ، ولكن مع عَطَلٍ من الصفات الخُلقية التى قرَّرتْ نتائجها .

حقًّا أن أمريكة الجَنوبية هى من أغنى بِقاع الدنيا فى حاصلاتها الطبيعية ،

---

(١) تلك هى أمريكة الأمس واليوم ، لا أمريكة الغد على ما يحتمل ، فسنرى فى فصل آت أن أمريكة عرضة لحرب أهلية ولانقسام إلى عدة دول مستقلة متقاتلة على الدوام كدول أوربة ، وذلك بفعل ما يصدر من الغزو الجديد عن عناصر منحطة لا يمكن هضمها .

وأمريكة الجَنوبية هذه هى أكبرُمن أوربة مرتين وأقلُّ منها سكاناً عشرَ مرات ، وهى لا تعوزها الأرضُ ، وهى لمن يُثيرُها إذَنْ ، وأهلوها السائدون هم من أصل إسپانىّ ، ويُقَسَّمون إلى عِدَّة جُمهوريات ، ومن هذه الجُمهوريات : الأرجنتينُ والبرازيلُ والشيلى والپيرُو إلخ . وجميعُها قد انتحل دُستورَ الولايات المتحدة السياسىَّ ، وله قوانينُ تماثل قوانينَها لهذا السبب ، والآن ، وقد ظهر عِرْق تلك الجُمهورياتِ مختلفاً عن العرق الذى يَعْمُرُ الولاياتِ المتحدةَ عاطلاً من صفاته ، فإن هذه الجُمهورياتِ كلَّها تبدو طُعْمَةً للفوضى الدامية على الدوام ، وهى ، مع كنوز أرضها العجيبة ، تراها غارقةً فى ضروب التبذير ، غارقةً فى الإفلاس والطغيان .

وتَجِدُ أسبابَ ذلك الانحطاط كلِّها فى المزاج النفسىِّ لعِرْقٍ من المُولَّدين عاطلٍ من الإقدام والعزم والأدب ، وفُقْدانُ الأدب على الخصوص يجاوز جميعَ ما نَعرِفه من قبائحَ فى أوربة ، وقد أوردَ ت . شيلد مدينةَ بوينوس إيريس ، التى هى إحدى المدن المهمة ، مثالًا ، فصَرَّح بأنها لا تَصْلُح لسُكْنَى من هو على شىء من رِقَّة الشعور ومن الأدب ، وقَصَدَ ذلك الكاتبُ جُمهوريةَ الأرجنتين التى هى من أقلِّ تلك الجُمهوريات انحطاطاً بقوله : « ليدرس الباحثُ تلك الجُمهوريةَ من الناحية التجارية حتى يظلَّ مبهوتاً من عدم الذمة البادى فى كلِّ مكانٍ منها » .

ولا ترى مثالًا أحسنَ من ذلك دلالةً على كون النُّظُم وليدةَ العِرْق وعلى استحالة نقل هـذه النُّظُم من أمة إلى أخرى ، ومن الطريف أن يُعْلَمَ ما تصير إليه نُظُم الولايات المتحدة الحرة بانتقالها إلى عِرْق متأخر ، قال مسيو شيلد مُحَدِّثاً إيانا عن الجمهوريات الإسپانية الأمريكية : « يَقْبِض على زمام تلك البـلاد رؤساء لا يَقِلُّون استبدادًا عن قيصر روسية ، بل هم أشدُّ إطلاقًا منه لبُعْدهم من مُزْعِجات

الرّقابة الأوربية ونفوذها ، وما الموظفون الإداريون إلا من صنائعهم ... ويُصَوِّت المواطنون كما يَرَوْن ، ولكن من غير أن يُلْتفت إلى أصواتهم ، وليست الأرجنتينُ جُمهوريةً إلا بالاسم ، والحقيقةُ أنها حكومةُ أناسٍ يجعلون من السياسة تجارةً » .

والبرازيلُ هي البلد الوحيد الذي كان قد نَجَا من ذلك الانحطاط العميق ، وذلك بفضل نظام مَلَكِيّ كان يَضَعُ السلطةَ في مَأْمَنٍ من المنافسات ، وإذ كان هذا النظام من الحرية كثيراً على عروق فاقدة الإقدام والإرادة فإنه لم يلبث أن انهار ، فغدا ذلك البلدُ فريسةَ الفوضى التامة ، ولم يَمْضِ غيرُ قليلِ سنواتٍ حتى بلغ أولياء الأمور من تبديد أموال بيت المال ما قضت الضرورة معه بزيادة الضرائب على نِسَب عظيمة .

ومن الطبيعيّ ألا يتَجلى انحطاط العِرْق اللاتينيّ الذي يَعْمُر جَنوبَ أمريكة في السياسة وحدَها ، بل يتَجلى في جميع عناصر الحضارة ، وتلك الجُمهورياتُ التعيسة إذا ما تُرِكَت هي وشأنَها عادت إلى الهمجية الصِّرْفَة ، ولذلك أصبحت الصِّناعة والتجارة فيها قَبْضة الأجانب من إنكليز وأمريكيين وألمان ، فصارت ڤالپاريزو مدينةً إنكليزية ، ولولا الأجانبُ ما بَقِيَ شيء للشِّيلي ، وبفضل الأجانب وحدَهم تحافظ تلك البِقاعُ على طِلاء خارجيّ للحضارة لا يزال يَخْدَع أوربة .

وإذا ما قِيسَ هذا الانحطاطُ الهائل الذي يبدو في أولئك السكان ، المُوَلَّدين من العِرْق الإسپانيّ وأهلِ البلاد الأصليين ، برُقِيّ العرق الإنكليزيّ المقيم ببلد مجاور ظَهَرَ من أكثر التجارِب سواداً وإثارةً للحَسْرة وكان من أمتع التجارِب التي يُسْتشهد بها لتأييد السُّنَن التي عرضتُها .

الفصل الثالث

كيف يؤدي تغيير روح العروق إلى تغيير تطور الأمم التاريخي

تأثير العناصر الأجنبية يحول روح العرق وحضارته – مثال الرومان – لم تسقط حضارة الرومان بالمغازى الحربية ، بل بمغازى البرابرة السلمية – لم يفكر البرابرة فى هدم الإمبراطورية قط – لم تكن لغاراتهم صفة الفتوح – كان رؤساء الفرنج الأولون يعدون أنفسهم موظفين فى خدمة الإمبراطورية الرومانية – احترم أولئك الرؤساء حضارة الرومان على الدوام ، وهم لم يفكروا فى غير إدامتها – لم يعدل رؤساء البرابرة عن عد القيصر رئيساً لهم إلا من القرن السابع – لم يكن تحول الحضارة الرومانية التام نتيجة هدم ، بل نتيجة انتحال حضارة قديمة من قبل عرق جديد – المغازى الحديثة فى الولايات المتحدة – المنازعات الداخلية وما توجبه من انقسام إلى دول مستقلة متنافسة – مغازى الأجانب فى فرنسة ونتائجها .

تدلُّ الأمثلة التى ذكرناها على أن تاريخ الأمة يَرْجِع إلى خُلقها ، أى إلى عرقها ، لا إلى نُظُمها ، ونحن حين بَحَثْنا فى تكوين العروق التاريخية رأينا أن انحلال هذه العروق يتمُّ بالتوالد وأن الأمم التى حافظت على وَحدتها وقُوَّتها ، كالآريين فى الهند قديماً وكالإنكليز فى مختلف مستعمراتهم ، هى التى ابتعدت بعنايةٍ عن كلِّ اختلاط بالأجانب ، ووجودُ الأجانب ، وإن قَلُّوا ، يكفى لتغيير روح الأمة ، ووجودُ الأجانب يُفْقِد الأمةَ أهليتَها للدفاع عن أخلاق عِرْقها وعن آثار تاريخها وعن أعمال أجدادها .

وتلك النتيجةُ صادرةٌ عما تقدم ، وإذا ما وَجَب عَدُّ عناصر الحضارة مظهراً خارجيًّا لروح الأمة كان من البديهيّ أن تتغير حضارةُ الأمة بتغير روحها .

ولنا فى تاريخ الماضى أدلةٌ لا جِدال فيها ، وسيكون لنا فى تاريخ المستقبل أدلةٌ أخرى أيضاً .

تَحَوُّلُ الحضارةِ الرومانية التدريجيُّ هو من أبرز الأمثلة التى يمكن الاستناد إليها ، وعلى العموم يُظْهِر المؤرخون لنا هذا الحادثَ نتيجةً لِما قام به البرابرة من غارات مُخَرِّبة ، غير أن البحث الدقيق فى الوقائع يُثْبِت من جهةٍ أن الغاراتِ التى أوجبت سقوطَ الإمبراطورية الرومانية كانت سِلْمِيَّةً لا حربية ، وهو يُثْبِت من جهةٍ أخرى أن البرابرة كانوا يحترمون هذه الإمبراطوريةَ احترامَ إعجاب على الدوام ، وأنهم لم يَأْلُوا جُهْداً فى انتحالها وإدامتها ، والبرابرةُ هؤلاء قد حاولوا اعتناقَ لغة تلك الإمبراطورية ونُظُمها وفنونها ، والبرابرةُ هؤلاء قد عَمِلُوا حتى أواخرَ عهد الميروفنجيين على إدامة الحضارة القوية التى وَرِثُوها ، وتَرَى جميعَ أعمال الإمبراطور العظيم ، شارلمان ، مُشْبَعةً من هذه الفكرة .

ولكننا نَعلَمُ أن عملًا كهذا مما يتعذر تحقيقُه على الدوام ، فقد تَطَلَّب تكوينُ البرابرة لعرقٍ متجانس بعضَ التجانس مرورَ قرون قَضَوْها فى التوالد المُكَرَّر وفى أحوال عيش متماثلة ، وذلك العرقُ عندما تَكَوَّن حَازَ بسبب تَكَوُّنه وحدَه فنوناً جديدة ولغــةً جديدة ونُظُماً جديدة وحضارة جديدة من حيث النتيجةُ ، وما انفكت ذكرى رومة تشتدُّ على هذه الحضارة ، وما بُذِل من جهود كثيرة فى سبيل إحيائها ذهب أدراج الرياح ، ومن العبث أن حاولت (النهضةُ) بعثَ فنون رومة وأن جَدَّت الثورةُ الفرنسية فى إعادة نُظُمها .

إذنْ ، لم يُفَكِّر البرابرة الذين أغاروا بالتدريج على الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول من الميلاد ، والذين ابتلعوها مؤخَّراً ، فى هدم حضارة هذه الإمبراطورية ، بل كانوا يُفَكِّرون فى إدامتها فقط، حتى إن مجرى التاريخ ما كان ليتغير لو لم يحارب البرابرةُ رومة ويقتصروا على الاختلاط بالرومان شيئاً فشيئاً ويقلّ عدد الرومان بذلك يوماً فيوماً ، أى أن اختلاط الفريقين كان كافياً لتقويض الروح الرومانية وإن لم يخرب البرابرة رومة ، ولذلك يمكن القولُ بأن الحضارة الرومانية لم تُدَمَّرْ قطُّ ، بل أُديمت بتحويلها فى غضون القرون، وذلك لوقوعها فى أيدى عروق مختلفة .

وإن أقلّ نظرةٍ إلى تاريخ غارات البرابرة يُؤَيِّد ذلك تأييداً كبيراً .

وقد دَلّت مباحث علماء العصر الحاضر ، ولا سيما مباحثُ فُوسْتِل دُوكُولاَنْج ، على أن غارات البرابرة السِّلْمِيَّةَ هى التى أدّت إلى اضمحلال الدولة الرومانية بالتدريج ، لا الغزواتِ العُدْوانِيّة التى رَدَّها مرتزقةُ الإمبراطورية فى أكثر الأحايين ، وكان من العادات التى اتخِذَت منذ عهد الأباطرة الأولين هو استخدامُ البرابرة فى الجيوش ، وكانت هذه العادة تستفحل كلما زاد الرومان ثَرَاءً وزهداً فى الخدمة العسكرية ، فلما انقضت بضعة قرون عاد لا يكون فى الجيش سوى أناس من الغرباء كما فى الإدارة ، « وكان القوطُ والبورغون والفرَنْج جنوداً مؤتلفين فى خدمة القيصر الرومانىّ » .

وعندما أصبحت رومة لا تَمْلك جنوداً من غير البرابرة ، وعندما صارت الولايات الرومانية لا تُدَارُ بسوى رؤساء من البرابرة ، غدا من البديهىّ أن يميل هؤلاء الرؤساء إلى الاستقلال ، والواقعُ هو أنهم وُفِّقُوا لذلك ، بَيْد أن رومة كانت تتمتع بنفوذ بالغ لم يفكر معه أحدٌ من هؤلاء فى هدم الإمبراطورية الرومانية ، وذلك مع وقوع رومة فى سلطانه ، وحينما استولى ملكُ الهيرولِ ، أُدوا كُر ، التابعُ للقيصر على رومة

فى سنة ٤٧٦ لم يلبث أن التمس من القيصر المقيم بالقسطنطينية آنئذٍ أن يسمح له بأن يتولى أمرَ إيطالية حاملاً لقب بطريق[١] ، ولم يَسِرْ أحدٌ من أولئك الرؤساء على غير هذه السُّنَّة .وأولئك الرؤساء كانوا يديرون شؤون الولايات باسم رومة على الدوام، وهم لم يفكروا قطُّ فى التصرف فى الأرض أو فى مَسِّ النظُم ، وكان كلوفيس يَعُدُّ نفسَه موظفاً رومانيًّا ، وكان فخوراً بنيله من القيصر لقبَ قنصل، ومضت ثلاثون سنة بعد موته ولم ينفكّ خلفاؤه فى أثنائها يمتثلون ما يمليــه القياصرة من الأحكام ملزمين أنفسهم بمراعاتها ، ولم يَجْرُؤْ رؤساء برابرة الغول على ضرب النقود الحاملة لصورهم إلا فى أوائل القرن السابع،وهذه النقود لم تَحْمِـل غيرَ صُوَر الأباطرة حتى ذلك الحين ، و بعد هذا التاريخ فقط صار الغُوليُّون لا يَعُدُّون القيصرَ رئيساً لهم ، ولذلك ترى المؤرخين يبدءون بتاريخ فرنسة قبل الواقع بمئتى سنة و يضيفون بضعةَ عشرَ ملكاً إلى سلسلة ملوكنا .

ولا شىء أقلّ شَبَهاً بالفتح من غَزَوات البرابرة مادام الأهلون قد حافظوا على أراضيهم ولغتهم وقوانينهم ، وما دام هذا لا يقع فى الفتوحات الحقيقية كفتح النورمان لإنكلترة .

ومن المحتمل أن زالت الدولة الرومانية بالتدريج من غير أن يَشْعُر المعاصرون بذلك، و بيان ذلك أن الولايات كانت قد تَعَوّدت منذ قرون وجودَ رؤساء يديرون شؤونها باسم الأباطرة ، ثم تَدَرَّج أولئك الرؤساء إلى السَّيْر على حساب أنفسهم فلم يُغيِّر شىء لهذا السبب ، وقد عُمِل بهذا النظام تحت سادةٍ جُدُدٍ طيلَة العهد الميروفَنْجى[٢] .

(١) البطريق رتبة شرف عند الرومان ، وأما البطريرك فرتبة رؤساء الكنائس (المترجم) .

(٢) قال مسيو فوستل دوكولانج : « تكاد الحكومة الميروفنجية تكون إدامة للحكومة التى منحتها الإمبراطورية الرومانية لبلاد الغول . . . ولا إقطاعية فى حكومة الميروفنجيين » .

وإنما التغييرُ الحقيقيُّ الوحيد ، وهو الذي أضحى عميقاً مع الزمن ، هو ظهورُ عِرْق جديد وظهورُ حضارة جديدة كنتيجة لازمة له ، وذلك وَفْقَ السُّنَن التي عرضناها .

وبتكرارِ الأمور الأبديِّ ، الذي يبدو أنه أقوى سُنَن التاريخ ، ترانا اليومَ مَدْعُوِّين على الأرجح إلى مثل تلك الغزَوات السَّلمية التي أدت إلى تحويل الحضارة الرومانية ، وقد يدعو انتشار الحضارة الحديثة العامُّ إلى الاعتقاد بأنه لا برابرةَ اليوم ، أو أن البرابرة التائهين في سَوَاء آسية وإفريقية هم من البُعْد منا بحيث لا نخشى غَزَواتِهم ، وليس لدينا ما نخاف به مغازيَهم لا ريب ، وأنهم لن يصبحوا خَطِرين علينا إلا بمزاحمتهم الاقتصادية التي سيوجهونها إلى أوربة ذاتَ يوم كما بَيَّنْتُ في كتاب آخر ، وليس أولئك هم الذين نَقْصِدهم هنا إذَنْ ، والبرابرة قريبون في الحقيقة وإن بَدَوْا بعيدين ، وهم أقرب جداًّ مما كانوا أيامَ أباطرة الرومان ، وذلك لوجودهم في صميم الأُمم المتمدنة بالواقع ، وترى كلَّ أمة تشتمل على عدد كبير من العناصر الدنيا العاجزة عن ملاءمة حضارةٍ تفوق مستواها كثيراً لِما تكلمتُ عنه من تعقّد حضارتنا الحديثة ومن تفاوت الأفراد بالتدريج ، وهكذا يتَكَوَّن سِقطٌ كبير لا يَنفَكُّ يزيد فيكون عمله هائلاً في الأمم التي تُبْتَلَى به .

واليومَ يتّجِهُ أولئك البرابرة الجُدُدُ نَحْوَ الولايات المتحدة بأمريكة كما لو كانوا مُجْمِعين على ذلك ، واليومَ ترى أولئك البرابرة يُهَدِدون حضارة تلك الأمة العظيمة تهديداً جِدِّيًّا ، ويكون الهضمُ سهلاً نافعاً ما دامت هجرة الأجانب إلى ذلك البلد نادرةً ، وما دامت مُؤَلَّفةً من عناصرَ إنكليزية على الخصوص ، وهجرةٌ كهذه

أوجبت عظمةَ أمريكه ، واليومَ تخضع الولايات المتحدة لغزوٍ هائلٍ من عناصرَ منحطةٍ لا ترغب فى هضمها ولا تقدرُ على امتصاصها ، وقد دخل الولاياتِ المتحدةَ نَحْوُ ستة ملايين مهاجر من أدنياء العمال المنتسبين إلى جميع الأصول بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٩٠ ، ولا تَجِدُ اليومَ بين أهالى شيكاغو البالغ عددُهم ١١٠٠٠٠٠ شخص غيرَ الربع من الأمريكيين ، وتشتمل هذه المدينة على ٤٠٠٠٠٠ ألمانىّ و٢٢٠٠٠٠ إيرلندىّ و٥٠٠٠٠ بولونىّ و٥٥٠٠ شِيكِىّ إلخ . ولا تُبْصِرُ أىّ امتزاج بين هؤلاء المهاجرين والأمريكيين ، ولا يبالى أولئك المهاجرون بتَعَلم لغة وطنهم الجديد، وفى وطنهم الجديد هذا يُنْشِئون مستعمراتٍ بسيطةً ذاتَ أعمالٍ زهيدة الأرباح ، وأولئك هم من الساخطين إذَنْ ، وأولئك هم من الأعداء إذَنْ ، وكاد أولئك يُحْرِقُون مدينةَ شيكاغو حين إضراب عمال الخطوط الحديدية الكبير ، فقَضَت الضرورة بضربهم بالمدافع الرشاشة بلا رحمة ، ومن أولئكَ وحدَهم يُجْمَع أشياعُ الاشتراكية المُسَوية الثقيلةِ التى قد تُحَقَّق فى أوربة المنهوكة والتى هى منافية لُخلق الأمريكيين الحقيقيين منافاةً تامة ، وما قد تُسْفِر عنه هذه الاشتراكية من المنازعات فوق أرض تلك الُجمهورية العظمى سيكون ، بالحقيقة ، منازعاتِ عروقٍ بَلَغَتْ من التطور درجاتٍ مختلفةً .

ومما يلوح واضحاً أن النصر لا يُكْتَب للبرابرة فى الحرب الأهلية التى تُعَدّ بين أمريكةِ الأمريكيين وأمريكةِ الأجانب ، ولا ريب فى أن هذه الحربَ الضَّرُوسَ ستنتهى بملحمة تَقَعُ بمقياس واسع على غِرَار ملحمة مَارْيُوس حين استأصل شَأْفةَ السِّنْبر استئصالاً كاملاً ، و إذا ما تأخَّر النزاعُ قليلاً ، و إذا ما استمرّ الغزوُ، لم يكن الحلُّ إبادةً تامة ، بل يصيبُ الولاياتِ المتحدةَ مثلَ ما أصابَ الإمبراطوريةَ الرومانية على الأرجح ، بل ينفصل بعضُ ولايات الُجمهورية الحاضرة عن بعض فتقوم دولٌ

مستقلةٌ منقسمة متحاربة بلا انقطاع كما يَقع فى أوربة وفى أمريكة الإسپانية .

وليست أمريكةُ وحدَها هى المُهَدَّدة بمثل تلك الغارات ، فَقُلْ مثل ذلك عن فرنسة أيضاً ، وفرنسةُ بلدٌ غنيٌ لا يزيد عدد سكانه ، وفرنسةُ محاطةٌ ببلدان فقيرة يزيد عدد سكانها باستمرار ، وهجرةُ هؤلاء الجيران إلينا أمرٌ محتوم، وهو يزيد حتماً كلما أوجبت مطاليبُ عُمّالنا المتصاعدةُ تلك الهجرةَ قضاء لاحتياجاتِ زراعتنا وصِناعتنا ، وما يَجِدُه هؤلاء المهاجرون فوق أرضنا من الفوائد أمرٌ واضح ، وتتجلى هذه الفوائد فى عدم خضوعهم لنظامنا العسكرىّ وفى دفعهم قليلَ ضرائبَ أو فى عدم دفعهم ضرائب لأنهم من الغُرَباء المُتَنَقلين وفى قيامهم بأعمالٍ أسهلَ مما يقومون به فى بلادهم وأجزلَ أجراً مما ينالونه فى ديارهم ، ولا يَقْصِد أولئك المهاجرون بلادنا لِغناها العظيم وحدَه ، بل يَقْصِدونها أيضاً لأن مُعْظَم البلدان الأخرى يَضَعُ كلّ يومٍ من التدابير ما يُؤَدّى إلى دَحْرِهم .

والذى يزيد فى خَطَر غارة الأجانب هو أنها تقوم بحكم الطبيعة على عناصرَ منحطةٍ ، أى على أناس تَعَذَّر عليهم أن يعيشوا فى وطنهم الذى يَهْجُرونه ، وإن من مقتضيات مبادئنا الإنسانية أن يُقْضَى علينا بمعاناة غَزْوٍ من الأجانب زائدٍ ، وإن عدد هؤلاء كان ٤٠٠٠٠٠ شخص منذ أربعين عاماً فغَدَا اليومَ ١٢٠٠٠٠٠ شخص، ونرى صفوفَهم تتراصف كلّ يومٍ أكثرَ من قَبْل ، ولو لم نَنْظُر إلى غير الطَّلاينة الذين تشتمل عليهم مَرْسِيلية لوجدنا هذه المدينةَ مستعمرةً إيطالية ، وإذا لم تَقِفْ تلك الغاراتُ فإنه لا يَمْضِى غيرُ وقت قصير حتى يكون ثلث سكان فرنسة من الألمان وثلثٌ آخرُ من الطّلْيان ، وما تكون وَحدةُ أمةٍ ، وما تكون حياة أمة هذه هى أحوالها ؟ ألَا إن أسوأ المصائب فى ميادين القتال أخفُّ هَوْلاً من مثل

تلك الغارات ، ألاَ إن من الغرائز الصادقة أن كانت الأمم الغابرة تَخْشى الأجانب ، ألاَ إن هذه الأممَ كانت تَعْرِف جَيِّداً أن قيمة البلد لا تُقاسُ بعدد سكانه ، بل بالأصليين من أبنائه .

وفيما تقدم نرى مسئلةَ العروقِ المحتومةَ أساساً لجميع المُعْضِلات التاريخية والاجتماعية على الدوام ، وتلك المسئلةُ هى التى تهيمن على سواها .

الباب الرابع

كيف تتغير أخلاق العروق النفسية

الفصل الأول

شأن الأفكار في حياة الأمم

المبادئ الموجهة للحضارات قليلة العدد على الدوام — بطوء نشوئها وبطوء زوالها — لا تؤثر المبادئ في السير إلا بعد تحولها إلى مشاعر — تصبح المشاعر إذ ذاك جزءاً من الخلق — الحضارات تكون على شيء من الثبات بسبب بطوء تطور المبادئ — كيف تستقر المبادئ — لا تأثير للمعقول في ذلك — تأثير التوكيد والنفوذ — شأن المؤمنين والرسل — ما يعتور المبادئ من تشويه بهبوطها إلى الجماعات — لا يلبث المبدأ الذى يجمع عليه أن يؤثر في جميع عناصر الحضارة — يكون لأهل كل جيل بفعل وحدة المبادئ إدراكات متوسطة يتماثلون بها في أفكارهم وأعمالهم — نير العادة والرأى — لا يخف ذلك النير إلا في أدوار التاريخ الحرجة حيث تخسر المبادئ القديمة نفوذها من غير أن تقوم مبادئ أخرى مقامها — الدور الحرج هو الدور الوحيد الذى يباح فيه الجدال في الآراء — لا تدوم العقائد إلا بعدم الجدال فيها — لا تستطيع الأمم أن تغير مبادئها وعقائدها من غير أن تغير حضارتها .

بعد أن بيّنا أن الأخلاق النفسية للعروق ذاتُ ثباتٍ عظيم ، وأن تاريخ الأمم يُشْتَق من هذه الأخلاق ، أوضحنا كيف يمكن العناصرَ النفسيةَ أن تتحول مع الزمن بتراكمات وراثية بطيئة كما تتحول العناصر التشريحية للأنواع ، وعلى مثل هذه التحولات يتوقف تطور الحضارات إلى أبعد حدّ .

والعوامل التى تؤدّى إلى إحداث تغيراتٍ نفسيةٍ متنوعةٌ ، فترى للاحتياجات وللمنافسة الحيوية ولبعض البيئات ولتقدم العلوم والفنون وللتربية وللمعتقدات وغيرها

عَمَلَها ، وقد خَصَّصنا مُجَلَّدًا واحداً(١) لدراسة شأن كلٍّ واحد من هذه العوامل فلا نرى تفصيلَها هنا ، وإذا ما عُدْنا إليها فى هذا الفصل وفى الفصول الآتية فلكى نُثْبِت وَجْهَ عملها باختيارنا بعضَ العوامل الجوهرية .

وتُثْبِت دِراسة مختلف الحضارات التى تعاقبت منذ بدء العالم أن هذه الحضاراتِ مُسَيَّرَة فى نشوئها بعدد قليل من المبادئ الأساسية ، ولو رُدَّ تاريخ الأمم إلى مبادئ هذه الأمم ما بدا طويلاً أبداً ، وإذا ما وُفِّقَت الحضارة فى قرن واحد لإحداث مبدأين أو ثلاثةِ مبادئ أساسيةٍ مُوَجِّهة فى ميدان الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة أمكن عَدُّها ذاتَ نضارة استثنائية .

ولا تكون المبادئ ذاتَ عمل حقيقىّ فى روح الأمم إلا إذا هَبَطَت بنُضْجٍ بطىء جدًّا من مناطق الفكر المتحولة إلى المِنْطقة الثابتة اللاتَنبُّهية للمشاعر حيث تَنْضَج عوامل سَيْرنا ، وهنالك تغدو تلك المبادئ عناصرَ أخلاقٍ فتَقْدِر على التأثير فى السَّيْر ، والأخلاقُ تتكون من بعض الوجوه من تَنَضُّد المبادئ اللاشاعرة .

وإذا ما نَضِجَت المبادئ نُضْجاً بطيئاً عَظُمَ سلطانُها لِمَا لا يبقى للعقل من سيطرة عليها ، ولا يؤثِّرُ فى المؤمن ، الذى يستحوذ عليه مبدأ دينىٌّ أو غيرُ دينىّ ، أىُّ معقول مهما كان الذكاء الذى يُفْتَرض له ، وكلُّ ما يمكن أن يحاوله هذا المؤمن ، وهو لا يحاوله فى الغالب ، هو أن يُدْخِل بحِيَل فكرية وبتشويهات كبيرة فى الغالب المبدأَ الذى يُعارَض به إلى مِنْطقة المبادئ المسيطرة عليه .

وإذا ثَبَت أن المبادئ لا تكون مؤثِّرةً إلا بعد هبوطها من دوائر الشعور إلى

(١) انظر إلى الجزء الثانى من كتاب « الإنسان والمجتمعات وأصولها وتاريخهما » ، وقد خصصنا ذلك الجزء الثانى للبحث فى تطور المجتمعات .

دوائر اللاشعور أدركنا السبب في أنها لا تتحول إلا ببطء كبير ، وفي أن المبادئ الموَجِّهة للحضارة قليلةُ العدد إلى الغاية ، وفي أنها تتطور في زمن طويل ، ولنا أن نُهَنِّئ أنفسنا بأن الأمر كذلك ، وإلا لم تَسْطِع الحضاراتُ أن تكون ذاتَ ثبات ، ومن حسن الحظ أيضاً أن المبادئ الجديدة تُنْتَحَل مع الوقت ، ولو كانت المبادئ القديمة ثابتةً ثباتاً مطلقاً لم تُحَقِّقِ الحضاراتُ أيَّ تقدم كان ، ولِماَ عليه تَحَوُّلاَ تُنا النفسية من بطوء وَجَب انقضاء عِدَّة أجيال ليَتِمَّ الفوز للمبادئ الجديدة ، ووجب انقضاء عِدَّة أجيال أيضاً حتى تزولَ هذه المبادئ ، وأشدُّ الأمم تمَدُّناً هي الأمم التي تَجَلَّت فيها الأفكار الناظمة على مقياس واحد من التحول والثبات ، والتاريخُ حافلٌ ببقايا الأمم التي لم تَقْدِر على حِفْظ هذا التوازن .

وليست كثرةُ المبادئ وجِدَّتُها هما اللتان تَقِفان النظرَ عند البحث في تطور الأمم ، بل الذي يَقِف النظر هو قِلة تلك المبادئ المتناهية وبطء تحولاتها والسلطانُ الذي تزاوله ، وتنشأ الحضارات عن بعض المبادئ الأساسية ، وإذا ما أَقْبَلَت هذه المبادئ على التغير غدت الحضاراتُ مَقْضِيًّا عليها بالتحول ، وقد قامت القرون الوسطى على مبدأين رئيسين : المبدأ الدينيّ والمبدأ الإقطاعيّ ، وعن هذين المبدأين صَدَرَتْ فنونُ تلك القرون وآدابها وطِرَاز نَظَرها إلى الحياة كلِّها ، ثم حلَّ عصر النهضة فطرأ على ذَيْنك المبدأين بعضُ التغيير ، فقد فَرَض المثلُ الأعلى للعالم الإغريقيّ اللاتينيّ سلطانَه على أوربة ، فلم تُعَتِّم أن صِرْتَ تُبْصِر تحولاً في وجه النظر إلى الحياة وتحولاً في الفنون والفلسفة والآداب ثم تزعزع سلطان التقاليد فقامت الحقائق العلمية مقامَ الحقيقة المُنَزَّلة بالتدريج فأخذت الحضارة تتحول مُجَدَّداً ، واليومَ يظهر أن المبادئ الدينية القديمة فَقَدَت شيئاً من سلطانها

فصارت تَلُوح بوادرُ انهيار النُّظُم الاجتماعية التى تستند إليها .

ولا يمكن أن يتجلى تاريخ تكوين المبادئ وسلطانها واضمحلالها وتحولاتها وزوالها إلا إذا استند إلى عِدّة أمثلة ، وإذا ما دخلنا دائرة الجزئيّات ثبت لنا أن كلّ عنصر من عناصر الحضارة ، من فلسفة ومعتقدات وفنون وآداب إلخ . خاضعٌ لعدد قليل من المبادئ الناظمة التى تتحول ببطء شديد على العموم ، ولا تشذّ العلوم نفسها عن هذه القاعدة ، واليومَ يُشْتَقّ جميع علم الفيزياء من مبدأ عدم فناء الطاقة، ويُشْتَقّ جميعُ علم الحياة من مبدأ تحول الأنواع ، ويُشْتَقّ علمُ الطبّ من مبدأ أصغرِ ما يكون ، ويُثبِت تاريخ هذه المبادئ أنها لم تستقرّ إلا مقداراً فمقداراً وبصعوبة مع أنها لم تُوَجَّه إلى غير ذوى البصائر ، ولا يتطلب استقرار مبدأ علمىّ أساسىّ أقلّ من خمس وعشرين سنة فى هذا العصر الذى يَسير فيه كلّ شىء بسرعة ، وذلك فى نِطاقٍ من المباحث التى لا تُؤثّر فيها الشهوات والمآرب ، ولم يَقتضِ زمناً أصغر من هذا استقرارُ أوضحِ المبادئ العلمية وأسهلِها إثباتاً وأقلِّها احتياجاً إلى الجَدَل كمبدأ الدورة الدموية .

وَيَتِمّ انتشار جميع المبادئ على نَمَطٍ واحد فى كلّ وقت سواءٌ أكان المبدأ علمياً أم فنياً أم فلسفياً أم دينياً أم أىّ مبدأ آخر ، ويجب اعتناق المبدأ فى بدء الأمر من قِبَل عدد قليل من الرسل الذين ينالون نفوذاً كبيراً بشِدّة إيمانهم أو منزلتهم ، ويؤثّرُ الرسلُ ، إذ ذاك ، بالتلقين أكثرَ مما بالبرهان ، ولا يجب أن يُبْحَث فى قيمة البرهان عن عناصر الإقناع الجوهرية، والمتكلمُ يَفرِض أفكاره بنفوذه الشخصىّ أو بمخاطبته الأهواء ، والمتكلمُ لا يمارس أىّ نفوذ بمخاطبته العقل وحدَه ،

والجماعاتُ لا تقنع بالأدلة أبداً ، بل بضروب التوكيد ، ويتوقف سلطان هذا التوكيد على نفوذ الشخص الذى يَصْدُر عنه .

وإذا ما وُفِّق الرسلُ لإقناع عدد قليل من الأشياع فكَثُر عددهم بذلك أخذ المبدأ يدخل مِنْطَقَة الجَدَل ، فيُثير المبدأ فى بدء الأمر اعتراضاً عامًّا لِمَا يَصْدِمه من أمور كثيرة قديمة مُقَرَّرة بحكم الضرورة ، ومن الطبيعىّ أن يثير هذا الاعتراض مَنْ يدافع عن المبدأ من الرسل فلا يُسْفِر عن غير اقتناع هؤلاء الرسل بأفضليتهم على بقية الناس، فيناضلون عن المبدأ الجديد بحماسة ، لا لأن هذا المبدأ صوابٌ، وهم فى الغالب لا يَعْرِفون عنه شيئاً ، بل لأنهم اعتنقوه فقط ، وهنالك يغدو المبدأ الجديد موضعَ مناظرة مُشْتدة ، أى أنه يُنْتحل بالحقيقة جملةً واحدة من قِبَل فريقٍ ويُرْفَضُ جملةً واحدة من قِبل فريق آخر ، وكلا الفريقين يتبادل النفى والتوكيد ، وهما قلما يتبادلان البراهين ، وذلك لأن أسباب قبول المبدأ الواحد أو رفضِه تَرْجِع لدى مُعْظم الناس إلى المشاعر ، والمشاعرُ لا يُؤَثِّر فيها بالمعقول أبداً .

ويَنْمُو المبدأ رويداً رويداً بفعل تلك المجادلات المُحْتَدِمة على الدوام ، وتميل الناشئةُ الجديدة التى تَجِدُهُ مُناقَشاً فيه إلى اعتناقه لأنه نُوقِشَ فيه ، والناشئةُ ، وهى ولُوعٌ بالاستقلال فى كلِّ وقت، تَتَّصِف اتصافاً كليًّا بمعارضتها دفعةً واحدة للمبادئ التى سار الناس عليها .

والمبدأ يداوم ، إذَنْ ، على النموِّ ، والمبدأ لا يُعَتِّم أن يَسْتغنى عن أية دِعامة كانت ، والمبدأ ينتشر إذ ذاك بفعل التقليد من طريق العدوى ، والتقليدُ هو المَلَكة التى يَتَّصِف بها الناس إلى أبعد درجة على العموم كما تتصف بها القِرَدَةُ الكبيرة التى يَذْهَب العلم الحديث إلى أنها أجداد الناس .

وإذا ما تناول المبدأَ عاملُ العدوى فأخذ ينتشر دَخَلَ الدورَ المؤدىَ إلى النجاح بحكم الضرورة ، ولَسُرْعان ما يَقْبَله الرأى العام ، وهنالك يكتسب قوةً نفَّاذةً دقيقة ينتشر بها فى جميع الأدمغة بالتدريج مُحْدِثاً جوًّا خاصًّا ، وإن شئت فقُلْ نَمطاً عامًّا للتفكير ، وهو ينساب فى جميع مدارك العصر وجميع إنتاجاته كالغُبار الدقيق الذى يَنفُذ من الطرق فى كلِّ مكان ، وهنالك يكون المبدأُ ونتائجُه جزءاً من الموروثات الكثيفة العادية التى تَفْرِضها التربية علينا ، وبذلك يَتِمُّ النصر للمبدأ ويدخل فى مِنْطَقة المشاعر فيكون فى مَأْمنٍ من كلِّ اعتداء زمناً طويلاً .

وترَى من مختلف المبادئ التى تُسَيِّر إحدى الحضارات ما هو خاصٌّ بالفنون والفلسفة مثلاً فيظلُّ ملازماً لطبقات الشعب العليا ، ومن تلك المبادئ ما هو خاصٌّ بالأفكار الدينية والسياسية على الخصوص فيَهْبِط إلى أعماق الجماعات ، وهو يَصِلُ إلى هنالك مُشَوَّهاً إلى الغاية ، غير أن ما يمارسه إذْ ذاك من سلطان على النفوس الساذجة العاجزة عن المناظرة عظيمٌ ، ويُمَثِّلُ المبدأُ أموراً لا تقاوَم ، وتنتشر نتائجه بقوة السيل الذى لاسبيل إلى رَدِّه بسَدٍّ ، ومن السهل أن تَجِدَ فى الأمة ، دائماً ، مئةَ ألفِ رجل مستعدين للتضحية بأنفسهم دفاعاً عن مبدأ إذا ما تَمَكَّن هذا المبدأ منهم ، وتظهر عندئذ تلك الحوادثُ العظيمة التى تَقْلِب التاريخ والتى لا يَقْدِر على إنجازها غير الجماعات ، ولم تَقُمْ بالمُثَقَّفين والمتفننين والفلاسفةِ تلك الدِّياناتُ التى سادت العالَم ، ولا تلك الإمبراطورياتُ الواسعة التى امتدت من أقصى الدنيا إلى أقصاها ، ولا تلك الثَّوْراتُ الدينية والسياسية التى قلبت أوربة رأساً على عَقِب ، بل قامت بأُمِّيِّين استحوذ عليهم أحدُ المبادئ فاستعدُّوا للتضحية بأنفسهم فى سبيل نشره ، وبتلك البضاعة المُزْجاةِ نظريًّا والقويّةِ عمليًّا استطاع بَدَوِيُّو صَحارَى جزيرة

العرب أن يفتحوا قسماً من العالم اليونانىّ الرومانىّ القديم وأن يَشِيدوا إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى عَرَفَها التاريخ ، وبمثل تلك البِضاعة الأدبية ، وهى هيمنةُ أحد المبادئ ، استطاع جنود العهد الشجْعان أن يَقِفُوا فى وجه أوربة المُدَجَّجة بالسلاح .

وتَبْلُغ العقيدةُ القوية من المَنَعة ما لا تستطيع أن تكافحها معه كفاحَ المنتصر غيرُ عقيدةٍ مماثلة ، وليس للإيمان عدوٌّ يخشاه سوى الإيمان ، ولا بدَّ من انتصار الإيمان عندما تكون القوة المادية التى تُصَوَّب إليه مُؤَيِّدَةً لمشاعرَ ضعيفةٍ ومعتقداتٍ متداعية ، بَيْدَ أن ذلك الإيمانَ إذا ما قابله إيمانٌ قوىٌّ مثلُه اشتدَّ الصِّراع وصار الفوز رهينَ أحوال ثانوية ، أدبيةٍ فى الغالب ، كروح النظام والتفوق فى التنظيم ، ونحن إذا ما دَرَسْنا تاريخ العرب عن كَثَب ، وقد ألمعنا إليه آنفاً ، وَجَدْنا العرب فى فتوحهم الأولى ، والفتوحُ الأولى هى أصعبُ الفتوح وأهمُّها على الدوام ، قد لاقَوْا أعداءً ضعفاء إلى الغاية من الناحية الأدبية مع ما كان عليه هؤلاء الأعداء من تنظيم عسكرىّ مُحْكَم ، ولم يَجِد العرب فى سورية ، التى كانت أولَ بلدٍ حَمَلوا إليه سلاحَهم ، غيرَ جيوش بزنطية مؤلفة من مرتزقة قليلى الاستعداد للتضحية بأنفسهم فى سبيل قضية ما ، فشَتَّتُوا ، لِمَا كان يَغْلِى فى صدورهم من إيمانٍ تزيدُ به قوتُهم عشرةَ أمثالها ، شمْلَ تلك الكتائب العاطلة من مَثَلٍ عالٍ ، وذلك بسهولة كالتى شَتَّتَ بها فيما مضى لفيفٌ من الأغارقة الذين كان يُمْسِكُهم حبُّ المدينة جنودَ سَرْخَس الكثيرين إلى الغاية ، وكان الصِّراع ينتهى بغير ذلك لو اصطدم العربُ بكتائبِ رومة قبل ذلك ببضعة قرون .

وإذا كانت القُوَى الأدبيةُ المتقابلة متماثلةً فى الشِّدَّة كان الفوز لأحسنها تنظيماً ،

فما لا ريب فيه أنه كان لأهل قاندِه إيمانٌ حارٌ واعتقادٌ متين ، غير أنه كان لدى جنود العهد أيضاً اعتقادٌ قويٌ إلى الغاية ، وجنودُ العهد هؤلاء إذ كانوا أحسنَ انتظاماً كُتِب النصر لهم .

وفى الدين ، كما فى السياسة ، يكون النصر، دائماً ، للمؤمنين لا للملحدين ، واليومَ إذا بدا المستقبل للاشتراكيين مع ما فى مبادئهم من فسادٍ فلأنك لا ترى فى الميدان مؤمنين حقيقيين سواهم ، واليومَ خَسِرَت الطبقاتُ القابضة على زمام الأمور إيمانها بأيِّ شيء كان، وهى عادت لا تعتقد أمراً ، وهى لا تعتقد إمكانَ الدفاع تِجاه طوفان البرابرة المُتَوَعِّد الذى يُحيط بها من كلِّ جانب .

وإذا ما اكتسب المبدأ شكلاً نهائيًّا بعد دور طويل من التَّحَسُّس والتعديل والتشويه والمناقشة والدِّعاية فدخل روح الجماعات غدا عقيدةً ، أى إحدى تلك الحقائق المطلقة التى لا تحتمل الجَدَل ، ويكون المبدأ إذ ذاك قسماً من تلك المعتقدات العامة التى يقوم عليها كِيان الأمم ، وما يكتسبه المبدأ من صفة الشمول يوجب تمثيلَه دورًا مهمًّا ، ولم تكن أدوار التاريخ الكبرى ، كعصر أُغسطس وعصر لويس الرابعَ عشرَ ، إلا تلكَ الأدوارَ التى تستقرُّ فيها المبادئ وتهيمن فيها على أفكار الناس بعد خروجها من أدوار التحسس والجَدَل ، وهنالك تتألف من تلك المبادئ مناورُ ساطعةٌ ، فيصطبغ كلُّ شيء تُنيرُه بصبغة متماثلة .

وإذا ما تمّ النصر للمبدأ الجديد طَبَع أدقّ عناصر الحضارة بطابعه ، ولا بدّ للمبدأ الجديد ، لكى يُعطِيَ جميعَ نتائجه، من أن يَنْفُذَ روحَ الجماعات ، ويَهْبِط المبدأ من الذُّرَى الذهنية التى نَبَتَ فيها إلى الطبقة التى تليها فإلى التى ما بعدها مُشَوَّهاً معدَّلاً بلا انقطاع إلى أن يكتسب شكلاً يلائم الروح الشعبية التى ستَنْصُره، وهنالك يبدو المبدأ

متجمعًا فى كلمات قليلة ، وفى كلمة واحدة أحياناً ، مثيرًا صُوَرًا قوية مُغْرِية أو هائلة ، ومن ثَمّ مؤثرةً على الدوام ، ومن تلك الـكلمات الجنةُ والنار فى القرون الوسطى ، ذانك المَقْطَعان القصيران المحتويان قدرةً سحرية على الإجابة عن كلّ شيء وعلى تفسير كلّ شيء عند ذوى النفوس الساذجة ، ومن تلك الكلمات كلمةُ الاشتراكية التى تُمَثِّل عند العامل المعاصر إحدى تلك الصِّيَغ الساحرة الجامعة القادرة على قهر النفوس ، وكلمةُ الاشتراكية هذه تُثِيرُ بحسب الجماعات التى تَنْفُذ فيها صُوَراً متنوعةً قوية على ما تنطوى عليه من تذبذب وعدم استقرار .

وتُثِيرُ كلمة الاشتراكية فى الفرنسىّ النظرىّ صورةَ جَنَّة يصبح الناس متساوين فيها فيَنْعَمون بسعادة مثالية تحت إشراف الدولة المتصل ، وتُثِير كلمة الاشتراكية فى العامل الألمانىّ صورةَ حانةٍ دَخِنة تُقَدِّم فيها الحكومةُ لكلّ قادم أهراماً عظيمة من الأمعاء المَحْشُوّة لحماً ومن الكُرُنْب المُخَمَّر ومما لا يحصيه عَدٌّ من دِنان الجِعَة مجّاناً ، ومن المعلوم أن حالِمَ الكُرُنْب هـذا أو حالمَ المساواة ذلك لم يَشْغَلْ ذهنَه بمعرفة المقدار الحقيقىّ للأشياء التى تُقْتَسَم ولا بعدد المقتسمين ، فمن خواصّ المبدأ أن يُفْرَض على النفوس بقوة مطلقة لا يُؤَثِّر فيها أىُّ اعتراض كان .

وإذا ما تَحَوَّل المبدأ إلى مشاعرَ وغدا عقيدةً دام فوزه زمناً طويلاً وذهب كلُّ عمل يأتيه العقل فى سبيل زعزعته أدراجَ الرياح ، ومما لا مِراء فيه أن المبدأ الجديد يعانى أيضاً ما عاناه المبدأ الذى حَلّ محلَّه فيَهْرَم ويميل إلى الزوال ، غير أنه لا بدّ من أن يعانىَ قبل اندثاره التامّ أدواراً من المَسْخ والتحريفِ فى عِدّة أجيال ، ولكبير وقتٍ يَظَلُّ المبدأُ قبل أن يموت بأسْره جزءاً من المبادئ الموروثة المُسِنَّة التى نَصِفها بالأوهام ، ولكن مع الاحترام ، وعلى ما لا يعود به المبدأ القديمُ

غيرَ كلمة أو صوت أو سَرَاب تراه حائزاً لقدرة سحرية يستمرُّ بهـا على إخضاعنا لحكمه .

وهكذا يبقى تُرَاثُ ما نرضاه بتقوَى من مبادئ قديمةٍ وآراء وعهود، ولا يَقِفُ أمام أيِّ برهان إذا ما أردنا الجِدال فيه مدةَ ثانيةٍ ، ولـكن ما عدد الرجال القادرين على الجِدال فى آرائهم الخاصة ؟ ما أقلَّ تلك الآراء التى تظلُّ قائمة بعد بحث سطحىّ!

والخيرُ فى عدم الإقدام على ذلك البحث المخيف ، ومن حسن الحظ أن كُنَّا غيرَ مُعَرَّضين له، و إذ كانت روحُ النقد مَلَـكةً عالية نادرة إلى الغاية وكانت روح التقليد ملـكةً منتشرة جدًّا يَقْبَل مُعْظَمُ الأدمغة غيرَ مُجادِلٍ جميعَ ما يُسْفِرُ عنه الرأىُ وما تنقله التربيةُ من المبادئ المقررة .

وهكذا ترى للناس فى كلِّ جيلٍ وعرقٍ طائفةً من الأفكار المتوسطة التى يتشابهون بها تشابهاً عجيباً بفعل الوِراثة والتربية والبيئة والعَدْوَى والرأى ، تشابهاً نَعْرِفُ به الدورَ الذى عاشوا فيه بإنتاجهم الفنىِّ والفلسفىِّ والأدبىِّ بعد أن تَثْقلَ وطأةُ القرون عليهم، أَجَلْ، لا يمكننا أن نقول إن بعضَهم كان يَنْقُل من بعض نقلاً مطلقاً، ولكن الذى كان مشتركاً بينهم هو تماثلهم فى طُرُز الإحساس والتفكير تماثلاً يؤدِّى إلى إنتاجاتٍ متقاربة إلى الغاية بحكم الضرورة .

ولنا أن نَفْرَحَ بذلك ، وذلك لأن روح الأمة تتألف من شبكة التقاليد والمبادئ والمشاعر والمعتقدات وطُرُزِ التفكير ، وقد أبصرنا أن متانة هذه الروح تكون بنسبة قوة تلك الشبكةَ ، وتلك الشبكةُ وحدَها بالحقيقة ، ووحدَها فقط ، هى التى تُمْسِك الأمم ، وتلك الشبكةُ لا تنفكُّ من غير أن يُؤَدِّىَ ذلك إلى انحلال هـذه الأمم فى الحال ، وتلك الشبكةُ هى قوةُ الأمة الحقيقيةُ وهى مولاها الحقيقىُّ ،

ومما يُعرَض في بعض الأحيان كونُ الملوك الآسيويين طُغاةً أذِلاَّءَهم أهواؤُهم ، وهذه الأهواء في الشرق هي بالعكس محصورةٌ ضِمْنَ حدود ضَيِّقة ضِيقاً عجيباً ، ففي الشرق ترى شبكة التقاليد أقوى مما في أيّ بلد آخر ، وفي الشرق تُبصِر أن المعتقداتِ الدينيةَ المزعزعةَ كثيراً عندنا محافظةٌ على سلطانها ، وفي الشرق تَجِدُ أشدَّ المستبدين جبَرُوتاً لا يَصْدِم التقاليدَ والرأيَ لِما يَعْرِفه فيهما من قوةٍ أشدَّ من قوته .

ويَجِدُ الرجلُ المتمدن العصريُّ الحديث نفسَه في دور من أدوار التاريخ النادرة الخَطِرة التي يَخْسَر فيها سلطانه ما هو أصلُ حضارته من المبادئ القديمة ، وذلك من غير أن تتَكون فيه مبادئُ جديدةٌ ، فيُباح الجَدَل فيه لهذا السبب ، ولا بدَّ من رجوع الباحث إلى أدوار الحضارات القديمة ، أو الرجوعِ إلى الوراء قرنيْن أو ثلاثةَ قرون ليَتَبين ماذا كان نِيرُ العادة والرأي وليُعْرف الثمنُ الذي كان على المُبْدِع الجرىء أن يُؤدِّيه إذا ما هاجم هاتين القوتين ، وكان الأغارقة ، الذين يَعُدُّهم بعضُ الجهلاء المُتَفَيْهقين من الأحرار ، خاضعين لِنِير الرأي والعادة خضوعاً وثيقاً ، وكان كلُّ إغريقيٍّ محاطاً بسور من المعتقدات التي لا تُمَسُّ أبداً ، وكان كلُّ إغريقيٍّ لا يفكر في الجَدَل حول الأفكار المُقَرَّرة معانياً إياها غيرَ ثائر ، ولم يَعْرِف العالَمَ الإغريقيُّ الحريةَ الدينية ولا حريةَ الحياة الخاصة ولا أيَّ نوع من أنواع الحرية ، حتى إن القانون الأثينيَّ لم يكن ليسمح للمواطن بأن يعيش بعيداً من المجالس أو بألاَّ يحتفل بأيِّ عيد قوميٍّ احتفالاً دينياً ، وما كانت حرية العالم القديم المزعومةُ إلا وجهاً تامًّا غيرَ شعوريٍّ لانقياد المواطن لمبادئ المدينة ، وما كان لمجتمعٍ يتمتع أفراده بحرية الفكر والسَّيْر أن يدوم يوماً واحداً في حال نزاع عامّة كالتي

كانت تعيش فيها تلك الأمم ، وتُبصِر في كلِّ زمنٍ أن ابتداء عصر انحطاط الآلهة والنظم والعقائد هو اليوم الذى تَحْتمل الجدالَ فيه .

وفى الحضارات الحديثة ، حيث تَجِدُ المبادئَ القديمة التى كانت أساساً للعادة والرأى قد تهدَّمت تقريباً ، تُبْصِرُ سلطانَها على النفوس قد أصبح ضعيفاً إلى الغاية ، وهذه المبادئ انتهت إلى دور من البِلَى ما تَغْدُو به من الأوهام . وتظلُّ الفوضى سائدةً للنفوس ما لم يَحِلَّ مبدأٌ جديد محلَّ تلك المبادئ ، ولهذه الفوضى وحدَها يُسْمح بالجدَل ، وما على الكُتّاب والمفكرين والفلاسفة إلا أن يشكروا للدور الحاضر وأن يُسْرعوا إلى الاستفادة منه ، لأنهم لن يَرَوْا عودتَه ثانيةً ، نعم، إنه دور انحطاط على ما يحتمل ، ولكنه من أزمنة التاريخ النادرة التى يكون التعبير عن الأفكار حرًّا فيها ، ولا يدوم هذا الدور طويلاً ، فأحوالُ الحضارة الحديثة تسوق الأممَ الأوربية إلى حال اجتماعية لا تحتمل الجدَل ولا الحرية ، والحقُّ أن العقائد الجديدة التى يلوح ظهورُها لا تستقرُّ إلا بعدم قبولها أىَّ نوع من أنواع الجدَل و ببلوغها من عدم التسامح ما بلغته العقائد التى سَبَقَتها .

ولا يزال الرجل المعاصر يبحث عن المبادئ التى تَصْلُح أساساً للحالة الاجتماعية القادمة ، وهنالك الخطرُ الذى يَحِيق بها ، و بيانُ الأمر أن تحولاتِ المبادئ الأساسية هى العناصرُ المهمة فى تاريخ الأمم والقادرةُ على تغيير مصيرها ، لا الثَّوْراتُ والحروب التى يَمَّحِى ما تؤدى إليه من تخريب بسرعة ، وتلك التحولات لا تَتِمُّ من غير أن يُؤَدِّىَ ذلك إلى تَحَوُّل جميع عناصر الحضارة دفعةً واحدة ، فالثَّوْراتُ الحقيقية ، وهى أخطرُ الثَّوْرات على حياة الأمة ، هى التى تَحْدُث فى أفكارها .

وليس انتحالُ أمةٍ لمبدأٍ حديث خَطِراً بذاته ، بل الخطرُ فيما تقوم به الأمة من

تجربةٍ لمبادئ متعاقبةٍ قبل أن تَجِدَ منها ما تستطيع أن تُقيم عليه بناء اجتماعيًّا جديداً يقوم مقام البناء الاجتماعيّ القديم ، وليس خطأُ المبدأ هو الذى يجعله خَطِراً ، وقد رأينا أن المبادئ الدينية التى عِشْنا عليها حتى الآن خاطئةٌ إلى الغاية ، بل لأنه لابدَّ من القيام بتجارِبَ تُكَرَّر لطويلِ زمنٍ حتى تُعْرَفَ ملاءمةُ المبادئ الحديثة لاحتياجات المجتمعات التى تعتنقها ، ولا يُقدَّر مَدَى نَفْعِ هذه المبادئ للجماعات إلا بالتجرِبة ، نَعَمْ ، لا احتياجَ إلى أن يكون الباحث عالِماً نفسيًّا كبيراً أو عالِماً اقتصاديًّا عظيماً حتى يُخْبِرَنا بأن تطبيق المبادئ الاشتراكية الحاضرة يسوق الأمم التى تقول بها إلى انحطاط حقير واستبداد مَرِير ، ولكن كيف تُمنَع الجماعاتُ التى تستهويها تلك المبادئ من اعتناق الإنجيل الجديد الذى بُشِّرَت به ؟

ويدلُّنا التاريخ كثيراً على ما تُكلِّفه من ثمنٍ تجربةُ المبادئ غيرِ الملائمة لدورٍ ما ، ولكن الإنسان لا يستنبط دروسه من التاريخ ، ومن العبث أن حاول شارلمانُ تجديدَ الإمبراطورية الرومانية ، فقد كان تحقيقُ مبدأ الوَحدة متعذراً فى ذلك الحين ، فمات عمله بموته كما مات عمل نابليون ، ومن العبث أن استنفد فليبُ الثانى عبقريتَه وسلطانَ إسپانية ذاتِ الصَّوْلَةِ إذْ ذاك فى مكافحة روح البحث الحرّ التى كانت تنتشر فى أوربة باسم البروتستانية ، ولم تُسْفِرْ مساعيه كلُّها فى مناهضة المبدأ الجديد عن سوى إلقاء إسپانية فى حال من الخراب والانحطاط لم تَنْهَضْ منها قطُّ ، وفى فرنسة أدت مبادئ متهوسٍ مُتَوَّج مُشْبَع من شعور أمته الدَّوْليِّ المصنوع الفاسد المستعصى إلى تسهيل الوَحدة الألمانية والوَحدة الإيطالية فَكلَّفَنا ذلك ولايتين كما كلَّفَنا السِّلْمَ إلى أمدٍ طويل ، وفى أوربة أوجب المبدأ القائل إن القوة فى العدد

سَتُرَها بجنودٍ مُدَجَّجين بالسلاح وسَوْقَها إلى إفلاس محتوم ، وستأتى مبادئ الاشتراكيين فى العمل ورأس المال وجَعْلِ المُلْكِ الخاصِّ مُلْـكاً للدولة إلخ ، على الأمم التى كانت تَحْفَظها الجيوشُ الضرورية الدائمةُ .

ويمكن ذكرُ مبدأ القوميات أيضاً بين المبادئ المُوَجِّهة التى يجب الخضوع لنفوذها الخَطِر ، وسوف يسوق تحقيقُه أوربةَ إلى أشدِّ الحروب ضرراً وسوف يَجُرُّ بالتتابع كثيراً من الدول الحديثة إلى الخراب والفوضى .

ولـكن لم يُعطَ الرجالُ قدرةً على وقْف سَيْر المبادئ إذا ما نَفَذَت فى النفوس ، وهنالك يجب أن يَتِمَّ تطورها ، ويبدو المدافعون عنها فى الغالب أولئك الذين يَكُونون ضحاياها الأولى ، وليست الغَنَمُ وحدَها هى التى تتبع دليلها طائعةً إلى المَسْلَخ ، فلْنَرْكعْ أمام سلطان المبدأ ، والمبدأ إذا ما بلغ دوراً من تطوره لم يُوجَدْ برهانٌ ولا بيان يَتَغَلَّب عليه ، والأممُ لـكى تتخلص من رِبْقة أحد المبادئ تستلزم قروناً كثيرةً أوْ ثَوْراتٍ عنيفةً ، أو كليهما فى بعض الأحيان ، ولا شىء أكثرُ من الأوهام التى ابتدعتها البشريةُ فذهبت ضحيتَها بالتتابع .

الفصل الثاني

شأن المعتقدات الدينية في تطور الحضارات

تأثير المبادئ الدينية العظيم – يتألف من هذه المبادئ أهم عنصر فى حياة الأمم – يشتق معظم الحوادث التاريخية ، كالنظم السياسية والاجتماعية ، من مبادئ دينية – يولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة على الدوام – قوة المثل الدينى الأعلى – تأثيره فى الأخلاق – هو يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد – تاريخ الأمم السياسى والفنى والأدبى هو وليد معتقداتها – يؤدى أقل تغير فى حال معتقدات الأمة إلى سلسلة من التحولات فى كيانها – أمثلة مختلفة .

مثّلت المبادئ الدينية دوراً أساسيًّا عظيماً بين مختلف المبادئ التى تُسيِّرُ الأمم ، والتى هى مَنَاوِر للتاريخ وقطوبٌ للحضارة ، فترانا نُفرِد لها فصلًا خاصًّا .

وتـكوّن من المعتقدات الدينية فى كلّ وقتٍ أهمُّ عنصر فى حياة الأمم ، ومن ثَمّ فى تاريخها ، وكان ظهور الآلهة وموتُها أعظمَ الحوادث التاريخية ، وتُولَدُ مع كلّ مبدأ دينيّ جديد حضارةٌ جديدة ، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية فى قديم الأجيال وحديثها ، ولو حَدَث أن أضاعت البشريةُ آلهتَها لـكان مِثلُ هذا الحادث فى نتائجه أهمّ الحوادث التى تمّتْ على وجه الأرض منذ فجر الحضارات الأولى .

ولا يَغِبْ عن البال أن جميع النُّظُم السياسية والاجتماعية منذ بدء الأزمنة التاريخية قامت على معتقدات دينية وأن الآلهةَ مَثّلَت الدورَ الأول على مَسْرَح

العالم فى كلّ زمن ، وإذا عَدَوْتَ الحبّ ، الذى هو دينٌ قوىٌّ أيضاً ولـكنه شخصىٌّ موقت ، وجدتَ المعتقداتِ الدينيةَ وحدَها تُؤَثِّر فى الأخلاق تأثيراً سريعاً ، ولك أن تَتَبين حال أمة نوَّمَتها أوهامُها من خِلال فتوح العرب والحروبِ الصليبية وإسپانية فى زمن محاكم التفتيش وإنكلترة فى الدور البيُورِيتانىّ وفرنسة فى ملحمة سان بارتلمى وحروب الثورة الفرنسية ، وللأوهام تأثيرٌ دائم يَبْلُغ من الشِّدَّة ما يتَحول به كلُّ مزاج نفسىّ تحولًا عميقاً ، ولا مِرَاء فى أن الإنسان هو الذى يَخْلُق آلهتَه ، ولـكنه إذا ما خَلَقها استعبدته من فَوْره ، وليست الآلهةُ وليدةَ الخوف كما زعم لُوكْرِيس ، بل هى وليدة الأمل ، ولذلك تبقى ذاتَ نفوذ أبدىّ .

والذى أنْعَمَت الآلهةُ به على الإنسان حتى الآن ، والآلهةُ وحدَها هى التى استطاعت أن تُنْعِمَ به ، هو الحالُ النفسية التى تنطوى على السعادة . ولا تَجِدُ فلسفة استطاعت أن تُحَقِّق مثل هذا العمل .

والنتيجة ، إن لم تـكن الغايةُ ، لـكلّ حضارة ولـكلّ فلسفة ولـكلّ ديانة هى إحداثُ بعض الأحوال النفسية ، ومن هذه الأحوال ما يتضمن السعادةَ ومنها ما لا يتضمنها ، وتتوقف سعادتنا على أحوال خارجية لا ريب ، ولـكنها ترْجِـع إلى حالتنا الروحية على الخصوص ، فمن المحتمل أن كان الشهداء يعتقدون وهم على المواقد أنهم أكثرُ سعادةً من جَلَّادِيهم ، ومن المحتمل أن كان مُرَمِّمُ الطُّرُق وهو يَقْضِم كِسْرةَ الخبز المفروكةَ بالثُّوم أشدَّ قناعةً بمراحلَ من صاحب الملايين الذى تساوره الهموم .

ومن دواعى الأسف أن كان تطور الحضارات يُحْدِث فى الإنسان الحاضر طائفةً من الاحتياجات من غير أن يَمُنَّ عليه بوسائل قضائها فيوجب بذلك سُخْطاً عامًّا فى النفوس ، أَجَلْ ، إن التطور أصل التقدم ، ولـكنه أصل الاشتراكية والفوضى

أيضاً ، أى أصلُ ذينك التعبيرين المرهو بين اللذين يَنِمَّان على قُنُوطِ جماعاتٍ لا تَسْتند إلى معتقد ، قابلوا بين الأوربىّ القَلِق الهائج الساخط على حظّه والشرقىّ الراضى بمصيره تَرَوْا أنهما يختلفان فى حالهما الروحية ، والأمةُ تتحول إذا ما تحول طِراز تصورها ومن ثَمَّ تفكيرُها وسَيْرُها .

وأولُ ما يجب أن يَبْحَث عنه المجتمع هو إيجادُ حال نفسية تجعل الإنسان سعيداً ، و إن لم يفعل المجتمع ذلك لم يُكْتَبْ له طو يلُ بقاء ، وقد استندت جميع المجتمعات التى قامت حتى الآن إلى مَثَلٍ عالٍ قادر على إخضاع النفوس ، وهذه المجتمعاتُ قد اضمحلت بعد أن عاد ذلك المَثَلُ الأعلى لا يُخْضِعها .

ومن أكبر أغاليط العصر الحاضر أن يُعْتَقد وجود السعادة فى الأمور الخارجية وحدَها ، فالسعادةُ تقيم بنا ، وهى مما نُوجِدُه ، وهى لا تكون خارجةً عنا تقر يباً ؛ ونحن بعد أن حطَّمْنا مُثُلَ الأجيال القديمة العليا نُبْصِر اليومَ صعو بةَ العيش بدونها ، و يجب أن نَجِدَ سِرَّ استبدال غيرها بها خَشْيةَ الزوال.

والمحسنون الحقيقيون لبنى الإنسان ، وهم الذين يستحقون أن تقيم لهم الأممُ الشاكرةُ تماثيلَ فَخْمةً من الذهب ، هم أولئك السَّحَرةُ الأقو ياء المُبْدِعون للمُثُل العليا الذين تُنْجِب بهم البشر ية أحياناً ولكن نادراً ، هم أولئك الذين يُحْدِثون فوق سَيْل الظواهر الباطلة ، وهى كلُّ ما نَقْدِرُ على معرفته من الحقائق ، وفوق دُولَاب الدنيا المُسَنن الصُّلْب الجامد ، أوهاماً قو يةً مُهَدِّئة مُخْفِية عن الإنسان ما فى مصيره من نواحٍ قاتمة ، هم أولئك الذين يقيمون للإنسان منازلَ عامرةً بالآمال والأحلام .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحية السياسية وحدَها وجدنا تأثير المعتقدات الدينية عظيماً أيضاً ، وتقوم قوة المعتقدات التى لا تقاوَم على أنها العاملُ الوحيد الذى

يستطيع أن يُنْعِم على الأمة بوَحدة مطلقة من المنافع والمشاعر والأفكار حيناً من الزمن ، وهكذا تقوم الروح الدينية دفعةً واحدةً مقام تلك المتراكمات البطيئة الموروثة الضرورية لتكوين روح الأمة ، أجَلْ ، إن الأمة التى يهيمن عليها المعتقد لا تغيِّر مزاجَها النفسىّ ، غير أن جميع ملكاتِها تتَوجه بذلك إلى غرض واحد ، تتَوجه إلى نَصْر معتقدها ، فتصبحُ قوتها هائلةً لهذا السبب ، وفى أدوار الإيمان التى تتحول ذات حين تقوم الأمم بتلك الجهود العجيبة ، تقوم بشيْدِ الدول التى تُدْهِش التاريخ ، ومن ذلك أن بعض القبائل العربية التى اتحدت بفعل فكرة محمد قَهَرَتْ فى سنين قليلة أمماً كانت لا تَعْرِف منها حتى الأسماء فأقامت إمبراطورية واسعة .

ودرجةُ سيطرة المعتقدات على النفوس ، لا صفتها ، هى التى يجب أن يُلْتفَت إليها ، ولا فَرْقَ فى ذلك بين دعوتك مُولَكَ أو أىّ إلهٍ آخرَ أشدَّ قسوةً ، ويقوم نفوذ الإله على عدم تسامحه وعلى غِلْظته فى بعض الأحيان ، ولا تَمُنُّ الآلهةُ الكثيرةُ التسامح والحِلْم على عبادها بالقوة ، وقديماً ساد أتباعُ محمدٍ الصارمِ قسماً كبيراً من العالَم لطويلِ زمن ، ولا يزال هؤلاء الأتباعُ مرهوبين ، وأما أتباع بُدَّهَة (بوذا) الهادئ فلم يؤسسوا ما هو باقٍ فنَسِيَهم التاريخ .

إذَنْ ، مَثَّلَت الروح الدينية دوراً سياسيًّا مهمًّا فى حياة الأمم ، وذلك لأنها كانت العاملَ الوحيدَ القادر ، دائماً ، على التأثير فى أخلاقها بسرعة ، ومما لا شكّ فيه أن الآلهة ليست خالدة ، غير أن الروحَ الدينيةَ باقيةٌ ، والروحُ الدينية ، وإن كانت تَغفُو لحينٍ ، تَصْحُو عند ابتداع ألوهية جديدة ، والروحُ الدينية هى التى استطاعت أن تَقِفَ بها فرنسة منذ قرنٍ ظافرةً أمام أوربة المُدَجَّجة بالسلاح ، وبذلك قد رأى العالَم مرةً أخرى ما تَقْدِر عليه الروح الدينية ، وذلك لأن ديناً جديداً كان يقوم آنئذ

نافخاً من روحه فى أمة بأسرها ، نَعَمْ ، إن الآلهة التى بَرَزَتْ كانت من سرعة العَطَب بحيث لا تدوم ، ولكنها كانت ذات سلطان مطلق مدةَ وجودِها .

على أن ما فى الأديان من قدرة على تحويل النفوس مُؤقّتٌ ، ومن النادر أن تدوم المعتقدات زمناً كافياً فَتَبْلُغَ درجة من الاشتداد ما تتحول به الأخلاق تحولاً تامًّا ، فالحُلْمُ لايلبث أن يَذْوِيَ ، والمُنَوَّمُ لايلبث أن يَصْحُوَ قليلاً ، فَيَبْدُو أساس الأخلاق القديمُ مرةً أخرى .

ومع ما تكون عليه المعتقداتُ من قدرة عظيمة تلوح الأخلاق القومية ،دائماً، من خلال النَّمَط الذى تُنْتَحَل به هذه المعتقدات ومن خِلال المظاهر التى تُؤَدِّى إليها ، وانظروا إلى المعتقد الواحد فى إنكلترة و إسپانية وفرنسة تَجِدُوا الفروق عظيمة جدًّا ! وهل كان الإصلاح الدينىُّ ممكناً فى إسپانية ؟ وهل كانت إنكلترة تَخْضَع لنِير محاكم التفتيش الهائل ؟ أفلا تُرَى بسهولةٍ لدى الأمم التى انتحلت الإصلاحَ الدينىَّ أخلاقُ العروق الأساسية التى حافظت، بالرغم من تنويم المعتقدات،على صفاتِ مزاجها النفسىِّ الخاصة كالاستقلال والإقدام وعادة التعقل وعدم الخنوع لسيد ؟

ولا مِراءَ فى أن تاريخ الأمم السياسىَّ والفنىَّ والأدبىَّ وليدُ معتقداتها ، بيْدَ أن المعتقداتِ مع تأثيرها فى الأخلاق تَتَأثّر بالأخلاق تأثراً عظيماً ، و إذا سألتَ عن أخلاق الأمة ومعتقداتها وجدتَهما مفاتيحَ مصيرها ، والأخلاقُ ، لِمَا كان من عدم تَغَيُّرها فى عناصرها الأساسية ، ومن عدم تَغَيُّرِها وحدَه ، تَجِدُ التاريخَ محافظاً على شىء من الوَحدة على الدوام ، والمعتقداتُ ، لِمَا كان من تَغَيُّرها ، ومن تَغَيُّرها وحدَه ، تَجِد التاريخ حافلاً بالانقلابات .

وأقلُّ تَغَيُّرٍ فى معتقدات الأمة يُؤَدِّى إلى سلسلة من التطورات فى حياتها بحكم

الضرورة ، ومما رأيناه فى غُضُون فصل سابق أن رجال القرن الثامنَ عشرَ بفرنسة كانوا يَبْدُون مختلفين عن رجال القرن السابعَ عشرَ ، وما مصدر هذا الاختلاف ؟ تَجدُ مصدره فى انتقال النفس من اللاهوت إلى العلم بين قرن وقرن ، وفى معارضة التقاليد بالعقل ومعارضة الحقيقة المُنزَّلة بالحقيقة المُشاهَدة ، وفى تحول منظر العصر فى النظر إلى الأمور بسبب هذا التغير ، ونحن إذا ما درسنا نتائج هذا التَّغَيُّر أبصرنا أن ثورتنا الفرنسية الكبرى وما أسفرت عنه ، وما لا تزال تُسْفِرُ عنه ، من الحوادث هما نتيجةُ تطور للمبادئ الدينية .

واليومَ إذا كان المجتمع المُسِنُّ يَرْتَجُّ فوق أُسُسه ، وكانت جميع نُظُمه تَرْتَجِف ارتجافاً عميقاً ، فلأنه يَخْسَر بالتدريج ماقام عليه حتى الآن من المعتقدات القديمة، وهو إذا ما تَمَّ فَقْدُه لهذه المعتقدات حَلَّتْ محلَّه حضارةٌ جديدة قائمة على إيمان جديد بحكم الضرورة ، ومما يدل عليه التاريخ أن الأمم لا تعيش طويلاً بعد توارى آلهتها ، وأن الحضاراتِ التى قامت بفعل هذه الآلهة تموت معها ، فلا شىء أشدُّ تخريباً من عَفَر الآلهة المَيِّتة .

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم

ما تسفر عنه كل حضارة من تقدم كبير هو وليد صفوة قليلة من ذوى النفوس العالية على الدوام – طبيعة شأن هؤلاء – إنهم جماع مجهودات العرق كلها – أمثلة مقتبسة من الاكتشافات العظيمة – شأن عظماء الرجال السياسى – هم عنوان مثل عرقهم الأعلى – نفوذ كبار المتهوسين – يحول المخترعون من ذوى العبقرية الحضارة – التاريخ من صنع المتعصبين والمتهوسين .

عند ما بحثنا فى مراتب العروق وتفاوتها رأينا أن أعظم فارق بين الأوربيين والشرقيين هو ما لدى الأوربيين من صَفْوة رجال عالية ، ولْنُحاوِل أن نُبيِّن فى بعض السطور حدودَ شأن هذه الصَّفْوة .

يتألّف من كتيبة أفاضل الرجال الصغيرة التى تشتمل عليها الأمة المتمدنة ، والتى تكفى إزالتها فى كلّ جيل لخَفْض مستوى هذه الأمة خفضاً عظيماً ، تَجَسُّدُ قُوَى العِرْق ، وإلى هذه الكتيبة يَرْجِع الفضل فيما يَتِمّ من التقدم للعلوم والفنون والصِّناعة ، أى لجميع فروع الحضارة .

ويُثْبِت التاريخ أن كلّ تقدم مَدِينٌ لتلك الصَّفْوة القليلة العدد ، والجماعةُ مع استفادتها من ذلك التقدم لا تُحِبُّ أن يُجاوِز مستواها أبداً ، والجماعةُ هى التى كان ضحاياها من عظماء المفكرين والمخترعين فى الغالب ، ومع ذلك ترى أن ازدهار جميع الأجيال وجميع ماضى العِرْق وَقَعَ بفعل تلك العبقريات الرائعة التى هى أزهار عجيبة لها ، ومن أصحاب العبقرية يتكون مَجْدُ الأمة الحقيقىُّ ، ولكل فرد ، مهما كان

وضيعاً ، أن يباهىَ بهم ، ولا يظهر ذوو العبقرية اتفاقاً ولا بمعجزة ، بل يُمَثِّلون تاجَ ماضٍ طويل ، وهم خلاصةُ عظمة عصرهم وعِرْقهم ، وكلُّ مساعدةٍ على تَفَتُّحهم وارتقائهم تَغني مساعدةً على التقدم الذى ينتفع به جميع البشر ، و إذا ما تركنا أحلامَ المساواة العامة تُعمِى بصائرنا كنا أولَ ضحايا هذه المساواة ، والمساواةُ لا تكون إلا فى الانحطاط ، والمساواةُ حُلُمُ ذوى المدارك الهزيلة الغامضُ الثقيل ، والمساواةُ لم تتحقق فى غير عصور الهمجية ، ويجبُ ، لكى تسود المساواة العالَمَ ، أن يُخْفَض بالتدريج كلُّ ما فيه قيمة العِرْق إلى أدنى مستوى فى هذا العِرْق .

ولكن شأن ذوى النفوس العالية من الرجال إذا كان عاملاً عظيماً فى تقدم الحضارة فإنه ليس كما يقال عنه على العموم مع ذلك ، فتأثيرهم يقوم ، كما ذكرتُ ، على كونهم خلاصةَ مجهوداتِ العِرْق ، وترى اكتشافاتهم على الدوام نتيجةَ سلسلة طويلة من الاكتشافات السابقة ، وتراهم يَشيدُون بناء من حجارة نَحَتَها غيرُهم رويداً رويداً ، وقد اعتقد المؤرخون ، والمؤرخون مُبَسِّطُون إلى الغاية إجْمالاً ، أنهم قادرون على قَرْن كلِّ اختراع باسم رجل ، مع أن كلَّ واحد من الاختراعات العظيمة التى حَوَّلَت الدنيا ، كالطِّباعة والبارود والبخار والكهرباء ، ليس وليدَ دماغ واحد ، ونحن حين نَدْرُس تكوين مثل هذه الاكتشافات نُبصِرُ أنها نشأت ، دائماً ، عن سلسلة طويلة من الجهود التحضيرية ، والحقُّ أن الاختراع النهائىَّ ليس إلا تتويجاً لما تَقَدَّمه ، ومن ذلك أن ملاحظة غَليلو لِتَساوِى المدة فى تَمَوُّجات المصباح المُعلَّق مَهَّد السبيل لاختراع مقياس الزمان الدقيق (كُرُونُومِتْر) الذى أسفر لدى المَلَّاح عن إمكان اهتدائه إلى طريقه فى البحر المحيط ، ومن ذلك أن نشأ بارود المِدفع عن تحول النار اليونانية بالتدريج ، ومن ذلك أن الآلة البخارية تُمَثِّل مجموعةَ اكتشافاتٍ

تَطَلَّب كلٌّ واحد منها أعمالاً عظيمة ، وما كان ليونانيّ مُتّصف بعبقريةٍ تفُوق عبقريةَ أرشميدس مئة مرة أن يكتشف القاطرة لِما لا يكون لديه ما يساعده على تمثّلها ، وهو لـكي ينتهيَ إلى صنعها لا بُدّ له من أن ينتظر تحقيقَ الميكانيكا لمبتكراتٍ تقتضي جهودَ ألفي سنة .

وليس شأن أعاظم رجال الدولة السياسيّ أقلّ كثيراً من شأن أكابر المخترعين في استقلاله الظاهر عن الماضي ، وقد أغْشى ما لمُحَرِّكي الجماعات الأقوياء ، الذين يُحَوِّلون كِيانَ الأمم السياسيّ ، من سَنَاء صارخ أبصارَ بعض الـكُتّاب كـكوسّان وكارْلَيل وغيرِهما ، فأراد هؤلاء أن يجعلوا من أولئك أنصافَ آلهة تُغَيِّرُ بعبقريتها مصير الأمم ، ومما لا ريب فيه أنه يمكن أولئك أن يُـكَدِّروا صَفْوَ تَطَوُّر أحد المجتمعات ، غير أنهم لم يُعْطَوْا قدرةً على تغيير مجراه ، وما كان كرُومْويلُ أو نابليون ليستطيعَ بعبقريته أن يقوم بمثل هذا العمل ، وما كان نفوذ أعاظم رجال السياسة ليدوم إلا عند ما يَعْرِفون كقيصر ورِيشِلْيُو أن يُوَجِّهوا جهودَهم إلى ما يلائم مقتضيات الوقت ، وما كان سبب فوزهم الحقيقيّ إلا سابقاً لهم على العموم ، ولو ظهر قيصر قبل زمانه بقرنين أو ثلاثة قرون ما استطاع أن يُخْضِع الجمهوريةَ الرومانية لحـكم سيد واحد ، ولو ظهر رِيشِلْيُو قبل زمانه بقرنين أو ثلاثة قرون لعَجَزَ عن تحقيق الوَحدة الفرنسية ، وفي ميدان السياسة يُبْصِر رجال السياسة الحقيقيون ما سَيُولَد من احتياجاتٍ وما أعَدّه الماضي من الحوادث فيَهْدُون إلى الطريق التي يجب أن تُسْلَك ، ومن المحتمل أن كان الناس لا يَرَوْن تلك الطريقَ ، بَيْدَ أن مقادير التطور قَضَتْ بحَفْزِ الأمم إلى مصايرها التي تَوَلَّى أولئك العباقرةُ أمرَها حيناً من الزمن ، وأولئك العباقرة هم ، كأكابر المخترعين ، جِمَاعُ نتائجِ عملٍ سابق طويل .

ومع ذلك يجب ألّا يُذْهَب إلى ما هو أبعدُ مماتقَدّم فى تلك المقايسات بين صنوف عظماء الرجال ، فالمخترعون ، وإن كانوا يُمَثِّلون دوراً مهمًّا فى تطور الحضارة المقبل ، لا يُمَثِّلون أىَّ دورٍ مباشرٍ فى تاريخ الأمم السياسىِّ ، ولم يكن لدى أكابر الرجال الذين تَمَّ بفضلهم أهمُّ الاكتشافات المهمة ، المترجحةِ بين المِحْراث والبرق والمؤلَّفِ منها تراثُ البشرية العامُّ ، من الصفات الخُلقية ما يقيمون به دِيانةً أو يُدَوِّخون به دولةً ، أى ما يُغيِّرون به وَجْهَ التاريخ تغييراً واضحاً ، والمُفَكِّرُ يُبْصِر كثيراً ما فى المُعْضِلات من تعقيد فلا يكون ذا اعتقاد عميق ، والمُفَكِّرُ لا يَبْدُو له غيرُ القليل من الأهداف السياسية التى تستحقُّ شيئاً من جهوده فلا يتتبع أىَّ واحد منها، والمخترعون يستطيعون أن يُغَيِّروا الحضارة مع الزمن ، والمتعصبون وحدَهم ، وهم من ذوى الذكاء المحدود ، ولكن مع أخلاقٍ فعّالة وشَهَواتٍ قوية ، هم الذين يَقْدِرون على تأسيس الأديان وإقامة الدول وقلب العالم ، وقد لَبَّت ملايين البشر نداء بطرسَ الناسكِ فانْقَضّت على الشرق ، وأسفرت كلماتُ متهوس كمحمد عن خَلْق قوة كَفَتْ للانتصار على العالَمَ اليونانىِّ الرومانىِّ القديم ، وألقى راهبٌ غامضُ الأمر كلوثر أوربةَ فى النار والدم ، ولا يكون لصوت كصوت غَلِيلو أو نِيُوتُن سوى صَدًى ضعيفٍ بين الجماعات ، فالحقُّ أن عباقرة المخترعين يُعَجِّلون سَيْرَ الحضارة ، وأن المتعصبين والمتهوسين هم الذين يَخْلُقون التاريخ .

ومن أىِّ شىء يتألف التاريخ كما هو مسطور فى الكتب إن لم يكن من قصة طويلة لمنازعاتٍ قام بها الإنسان لابتداع مَثَلٍ عالٍ وعبادتِه ثم هَدْمِه ؟ وهل تَجِدُ أمام العلم الصِّرْف لِمِثْل هذه المُثل العُليا قيمةً أعظمَ من السَّراب الباطل الذى يُحْدِثه الضياء فوقَ الرمال المتنقلة فى الصحراء ؟

ومع ذلك ترى أن المتهوسين من مُوجِدى مِثلِ هذا السراب أو ناشريه هم الذين حَوّلوا العالَمَ تحويلاً عميقاً ، وهم لا يزالون يَحْنُون من أعماق قبورهم روحَ العروق تحت نِيرِ أفكارهم ويُؤثّرون فى أخلاق الأمم ومصيرها ، ولا نجهل أهميةَ شأنهم ، ولكن لا يَذْهَبْ عن بالنا أنهم لم يُوَفَّقوا فى إنجاز عملهم إلا لأنهم تقمّصوا مَثَلَ عِرْقهم وزمنهم الأعلى وعَبّروا عنه من حيث لا يَشْعُرون ، والأمةُ لا تُقاد إلا بتقمُّص أحلامها ، ومن ذلك أن موسى تَمَثَّل رغبة اليهود فى الخلاص التى كانت تنطوى عليها جِباهُهم المستعبدةُ أيام كانت تُمَزِّقها سِياطُ المصريين ، ومن ذلك أن بُدَّهَة (بوذا) وعيسى عَرَفا أن يستمعا لِما فى زمانهم من بُؤْس لا حدَّ له وأن يُعبِّرا بالدين عن ضرورة الإحسان والرحمة التى أخذت تَلُوح فى العالَم أيام الألم العامّ ، ومن ذلك أن حَقّق محمدٌ وَحدة أمته السياسية بما بَشَّر به من الوَحدة الدينية بعد أن كانت أمته تلك منقسمةً إلى ألوف من القبائل المتناجزة ، ومن ذلك أن نابليون تَقَمَّص المَثَل الأعلى فى المَجْد الحربىّ والزهو والدِّعاية الثَّوْرية ، أى تَقَمَّصَ مُمَيِّزاتِ ذلك الشعب الذى طاف به فى أوربة مدةَ خمسَ عشرةَ سنة سعياً وراء أشدّ المغامرات حماقةً .

إذَنْ ، ترى أن الذى يقود العالَم هو المبادئ ، ومن ثَمّ أولئك الذين يتقمّصونها ويَنْشُرونها ، والنصرُ يُكْتَب لتلك المبادئ عند ما تَجِدُ من المتهوسين والمؤمنين من يُصْغُون إليها ، ولا كبيرَ أهميةٍ فى أن تكون تلك المبادئ صحيحةً أو فاسدة ، فالتاريخُ قد أثبتَ لنا أن أشدّ المبادئ وَهْماً هى التى فَتَنَت الناس أحسنَ من سواها ، على الدوام ، فمَثّلت أهمّ الأدوار ، وباسم أكثر الأوهام خَدْعاً قُلِبَ العالَمُ وانهارت حتى الآن حضاراتٌ كان يلوح خلودُها وقامت حضاراتٌ أخرى ، وليس ملكوت السماوات كما قال به الإنجيل هو الذى أُعِدّ لضعفاء العقل ، بل

ملكوت الأرض هو الذى أُعِدّ لهم على أن يكون عندهم من الإيمان الأعمى ما يَقْدِرون به على رفع الجبال ، وعلى الفلاسفة الذين خَصّصُوا قروناً لهدم ما شاده المؤمنون فى يومٍ واحد أن يركعوا أحياناً أمام هؤلاء المؤمنين ، ومن المؤمنين يتألف قسمٌ من القُوَى الخفية التى تهيمن على العالم ، والمؤمنون هم الذين أوجبوا ظهور أهمّ الحوادث التى يُسَجِّل التاريخ مجراها .

أَجَلْ ، إن المؤمنين لم يَنْشُروا غيرَ الأوهام لا ريب ، بَيْد أن البشرية عاشت حتى الآن ، وستعيش على الراجح ، بتلك الأوهام المرهوبة المُغْرِية الباطلة ، وليست تلك الأوهام سوى ظِلال ، ويجب احترامها مع ذلك ، فبفضلها عَرَف آباؤنا الأمل ، وهُمْ ، بما كان من عَدْوِهم الجرىء الأهوج خَلْف تلك الظلال ، قد أخرجونا من الهمجية الأولى وقادونا إلى ما نحن فيه اليوم ، ومن المحتمل أن كانت الأوهام أقوى جميع العوامل فى نشوء الحضارات ، فالوهمُ هو الذى أوجب شَيْدَ الأهرام ، وهو الذى أدّى إلى سَتْرِ مِصْرَ بتماثيلَ حجريةٍ ضخمة مدةَ خمسين قرناً ، و بفعل الوهم شِيدَتْ كنائسُنا الكبرى فى القرون الوسطى ، و بفعل الوهم انقضّ الغرب على الشرق للاستيلاء على أحد القبور ، وأَسْفَر اتِّباعُ طائفة من الأوهام عن تأسيس أديان أخضعت نصفَ البشر لشرائعها وعن إقامة أعظم الإمبراطوريات وهدمِها ، وفى سبيل الغَوَاية ، لا الحقيقةِ ، بَذَلت البشريةُ مُعْظَمَ جهودها ، وما كان للبشرية أن تَبْلُغ الأهدافَ الوهمية التى تسعى إليها ، ولكنها وهى تَجِدُّ فى أَثَرها حَقّقت كلّ رُقِيّ لم تكن لتطلبه .

البَابُ الخامِسُ

انحلالُ أخلاق العُرُوق وَانحطاطُها

الفصل الأول

كيف تذوي الحضارات وتنطفئ

انحلال الأنواع النفسية – كيف يزول بسرعة ما اقتضى تكوينه قروناً كثيرة من القابليات الموروثة – يتطلب ارتقاء الأمة درجة رفيعة من الحضارة زمناً طويلا على الدوام ، ويتطلب هبوطها منها زمناً قصيراً فى بعض الأحيان – أهم عامل فى انحطاط الأمة هو انحطاط خلقها – كان عامل انحلال الحضارات لدى جميع الأمم واحداً حتى الآن – ما يبدو على بعض الأمم اللاتينية من عوامل الانحطاط – نمو الأثرة – نقص خلق المبادرة والإرادة – هبوط الأخلاق والأدب – الشبيبة الحاضرة – تأثير الاشتراكية المحتمل – أخطارها وقوتها – كيف تقود الحضارات التى تصاب بها إلى وجوه وحشية من التطور – الأمم التى قد تنتصر الاشتراكية فيها .

الأنواعُ النفسيةُ فى عدم الخلود كالأنواع التشريحية ، ولا تظلُّ أحوالُ البيئات التى يقوم عليها ثبات أخلاق الأنواع النفسية باقيةً على الدوام ، وتلك البيئات إذا ما تَغيَّرَت لم يَعتِّم ما تُمْسِكه من عناصر المزاج النفسىّ أن يخضع لتحولات راجعة مؤدية إلى زواله ، ولو نظرنا إلى السُّنن الفزيولوجية التى يَجْرِى حكمها على خليّات الدماغ كما يجرى على خَليّات الجسم الأخرى والتى تلاحَظُ لدى كلِّ كائن لَوَجَدْنا أن زوال الأعضاء يتطلب من الزمن ما هو أقلُّ جدًّا من الزمن الذى يقتضيه تكوينُها ، وكلُّ عضو لا يقوم بوظيفته لا يلبث أن يَعْجِزَ عن القيام بهذه الوظيفة من فَوْره ، ومن ذلك أن عيون الأسماك التى تعيش فى أَغْوَار الكهوف تَهْزُل مع الزمن فيصبح هذا الهُزال وِراثيًّا فى نهاية الأمر ، حتى إننا لو نظرنا إلى

قِصَر حياة الفرد لوجدنا أن العضو الذى تَطَلَّب تكوينُه ألوفَ القرون على ما يحتمل ، وذلك بملاءمات بطيئة ومتراكمات وراثية ، يَهْزُل بسرعة عظيمة عند ما ينقطع عن عمله.

وما كان مزاجُ الناس النفسىُّ ليَشِذَّ عن هذه السُّنَن الفزيولوجية ، فالخَلِيَّة الدماغية التى لا تُمَارَس تَقِف ، هى أيضاً ، عن القيام بوظيفتها ، وقد تزول بسرعةٍ قابلياتُ النفس التى اقتضى تكوينها عِدّةَ قرون ، ولا تَنْشَب الشجاعةُ وقوة المبادرة والإقدام وروح المخاطرة وغيرُها من الصفات الخُلقية أن تَمّحِىَ إذا لم يُتَحْ لها أن تُمَارَس ، وبذلك تُفَسَّر العِلَّةُ فى وجوب انقضاء زمن طويل على الأمة حتى ترتقىَ إلى درجة رفيعة من الثَّقافة وفى اقتضاء زمن قصير إلى الغاية حتى تَسْقُطَ فى هُوَّة الانحطاط.

ونحن إذا ما بحثنا فى الأسباب التى أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم ، وهى التى حَفِظ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم ، وَجَدْنا أن العامل الأساسىّ فى سقوطها هو تَغَيُّر مزاجها النفسىّ تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها ، ولستُ أرى أمةً واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها .

ووجهُ الانحلال واحدٌ فى جميع الحضارات الغابرة ، وهو من التشابه ما يُسْأَل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحةً واحدة وإن اشتمل على عِدّة مجلدات ، والأمةُ ، بعد أن تَبْلُغ تلك الدرجة من الحضارة والقوة حيث تَطْمَئِنُّ إلى أنها لا تكون عُرْضةً لهجوم جيرانها ، تَبْدَأُ بالتمتع بنِعَم السِّلم والتَّرَف التى يَمُنُّ الثَّراء بها عليها ، فتَذْبُل المزايا الحربية وتُوجِب زيادةُ الحضارةِ حدوثَ احتياجاتٍ جديدة وتَنْمُو الأَثَرة ، وأبناء الوطن إذ لا يبقى لهم بذلك من مَثَلٍ عالٍ غيرُ التمتع السريع بالأموال التى تُحَصَّل على عَجَل يتركون للدولة أمرَ إدارة الشؤون العامة فلا يلبثون أن يَفْقِدُوا جميع الصفات التى كانت سبب عظمتها ، وهنالك يُغِير على الأمة الكثيرة

التمدن جيرانٌ من البرابرة أو من شِباهِ البرابرة ذوو احتياجاتٍ ضعيفة إلى الغاية مع مَثَلٍ عالٍ قويّ جدًّا ، ثم يقيم هؤلاء حضارةً جديدة بأنقاض الحضارة التى قلبوها رأساً على عَقِب ، وعلى هـذه الصورة هَدَم البرابرةُ إمبراطوريةَ الرومان وهَدَم العربُ إمبراطوريةَ الفرس مع ما كان لدى تَيْنِكَ الإمبراطوريتين من تنظيمٍ هائل ، وليست صفات الذكاء هى التى كانت تُعْوِزُ الأممَ المقهورة لا ريب ، وما كان بين الغالبين والمغلوبين من فَرْقٍ فى ذلك لا يحتمل القياسَ ، وفى زمنٍ كانت رومة تَحْمِلُ فيه بذورَ الانحطاط القريبِ كانت رومةُ تشتمل على أروع الألبَّاء والمتفننين والأدباء والعلماء ، وإلى ذاك الدور من تاريخ رومة يَرْجِـع تقريباً جميعُ الآثار التى أوجبت عظمتها ، ولكن رومة كانت قد خَسِرَت العنصرَ الأساسىَّ الذى لا يقوم مقامَه أىُّ نُمُوٍّ فى الذكاء ، كانت قد خَسِرَت الأخلاق(1) ، وكان لدى الرومان الأوَّلين احتياجاتٌ ضعيفة جدًّا ، وكان لديهم مَثَلٌ عالٍ قوىٌّ جدًّا ، وكان هذا المَثَل الأعلى الذى هو عظمةُ رومة يستولى على النفوس فيستعدُّ كلّ رومانىّ للتضحية بأُسْرته وثروته وحياته فى سبيله ، ولَمَّا أضحت رومة قُطْبَ العالم وأغنى مدن الدنيا قَصَدها الغرباء من كلِّ صَوْب وحَدَب فنالوا حقوقَ الرومانىِّ منها فى نهاية الأمر، ولم تَمِلْ نفوس هؤلاء الغرباء إلى غير التمتع بتَرَف رومة فلم يبالوا بمجدها إلا قليلًا ، وهنالك غَدَتْ رومة فُنْدُقًا واسعاً، وهنالك عادت رومةُ لا تكون رومةَ ، وهى ، وإن لاحت ذاتَ حياةٍ إذ ذاك ، لم تكن إلا مَيِّتةً منذ زمن طويل .

وعِلَلُ انحطاطٍ كتلك تُهَدِّد حضاراتِنا الرفيعةَ ، وإلى تلك العلل تضاف عِلَلٌ أخرى صادرةٌ عن تطور النفوس بفعل الاكتشافات العلمية الحديثة ، والعلمُ قد جَدَّد

(١) قال مسيو فوستل دوكولانج : « لم يكن المرض الذى كان المجتمع الرومانى يألم منه هو فساد الطبائع ، بل فتور العزيمة ، ومن ثم وهن الأخلاق » .

مبادئنا ونزَع كلّ سلطان من مبادئنا الدينية والاجتماعية ، والعلمُ قد أثبت للإنسان مكانَه الضعيف فى العالَم وعدمَ اكتراث الطبيعة المطاقَ له ، والإنسانُ قد رأى أن الذى يُسَمِّيه حريةً ليس إلا جهلًا بالعِلَل التى تستعبده وأن من مقتضى طبيعته أن يُسْتعبد فى شبكة من الضرورات ، والإنسانُ قد أبصر أن الطبيعة تجهل ما نُسَمِّيه بالرحمة وأن كلّ تقدمٍ نشأ عن الطبيعة تمّ بانتخاب شديد مُؤَدّ بلا انقطاع إلى سحق الضعفاء فى سبيل الأقوياء .

وأوجبت جميع تلك المبادئ الجامدة الشديدة ، المناقضةِ لما تقوله المعتقدات القديمة التى فتَنَت آباءنا ، حدوثَ مصادماتٍ مزعجة فى النفوس ، وأحدثت فى بعض الأدمغة العادية من فوضى المبادئ ما يظهر أنه آية الإنسان فى هـذا الزمان ، وأدّت تلك المصادماتُ فى الشبيبة المتفننة والمثقفة إلى ضَرْب من عدم المبالاة القائمة الهادمة لكلّ عزيمة وإلى عجز تامّ عن الوَلُوع بأية قضية وإلى عبـادةٍ مباشرةٍ شخصية للمآرب دون سواها .

وفَسَّر أحدُ وزراء المعارف العامة ملاحظةَ أحد الكُتّاب المعاصرين الصائبةَ القائلة « إن الحسّ النِّسْبِيّ يهيمن على الفكر فى هذا العصر » ، فصَرَّح مسرورًا فى خُطبة له جاء فيها : « إن استبدال المبادئ النِّسْبِيَّة بالمبادئ المُجَرَّدة فى مختلف المعارف البشرية هو أعظمُ فَوْزٍ تمّ للعلم » ، ونحن نقول إن هذا الفَتْح الذى أُعْلِنَت جِدَّتُه هو قديم فى الحقيقة ، فقد أتَمَّته فلسفة الهند منذ قرون طويلة ، ولا نرى ما يقتضى التهنئة على ذُيُوعه فى الوقت الحاضر ، فالخطرُ الحقيقىُّ على المجتمعات الحديثة ينْجُم عن فَقْدِ الناس لكلّ ثِقَة بقيمة المبادئ التى تقوم عليها ، ولا أعلم منذ بدء العالم أن أىّ تمدن أو أىّ نظام أو أىّ معتقد وُفِّق للبقاء مستندًا إلى مبادئ

ليس لها غيرُ قيمة نِسْبِيَّة ، و إذا لاح أن المستقبل لتلك المبادئ الاشتراكية التي يرفضها العقل فذلك لأن هذه المبادئ وحدَها هي التي يتكلم الرُّسل عنها باسم الحقائق المطلقة ، وتُقبِل الجماعات ، دائماً ، على أولئك الذين يُحَدِّثونها عن الحقائق المطلقة ، وتحتقر الجماعاتُ ما سواها في كلِّ وقت .

وعلى من يَوَدُّ أن يكون من رجال الدولة أن يَعْلَمَ كيف يَنْفُذ روحَ الجماعة و يدركُ أحلامَها و يتركُ المُجَرَّداتِ الفلسفيةَ ، والأمورُ لا تتغير أبداً ، وما يُصْنَع من المبادئ عنها هو الذى قد يتغير كثيراً، وفي هذه المبادئ يجب أن يُعْرَف كيف يُؤَثَّر .

ولا ريب في أننا لا نعلَم من العالَمَ الحقيقيِّ سوى الظواهر، سوى أحوال وجدانية ذاتِ قيمة نِسْبِيَّة كما هو واضح ، بَيْد أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الوِجْهة الاجتماعية أَبْصَرْنا للجيل المُعَيَّن أو للمجتمع المُعَين من أحوالِ العيش ومن سُنن الأخلاق ومن النُّظُم ما هو ذو قيمة مطلقة ما دام ذلك المجتمع لا يَقْدِر على البقاء بغيره ، و إذا ما غَدَت قيمة هذه المُقَوِّمات موضعَ جَدَلٍ ، و إذا ما ساورَ الشكُّ النفوسَ ، قُضِيَ على المجتمع بالهلاك .

هذه حقائقُ يمكن أن تُعَلَّم بإقدام ، ولا تَجِدُ علماً يَقْدِر على إنكارها ، ولا تؤدى مخالفتها إلا إلى نتائجَ مضرةٍ ، وما يَبُثُّه اليومَ بعضُ ذوى الرأى من العَدَمِيَّة الفلسفية في أناسٍ من ضِعاف النفوس يجعل هؤلاء يستنبطون من فَوْزهم كونَ نظامِنا الاجتماعيِّ ذا جَوْرٍ مطلق وكونَ جميع المراتب مخالِفَةً للصواب ويُوحِي إليهم بحقد على الأمور الحاضرة ويقودُهم إلى الاشتراكية والفوضى تَوًّا .

ورجالُ الدولة المعاصرون شديدو الاعتقاد بتأثير النُّظُم ضعيفو الإيمان بتأثير المبادئ ، والعِلْمُ يَدُلُّهم، مع ذلك، على أن النُّظُم وليدةُ المبادئ وأنها لا تستطيع البقاء

من غير استناد إليها، فالمبادئ هى المُحَرِّكات الباطنية للأمور، والمبادئ إذا ما زالت تَقَوَّضَت أركان النُّظُم والحضارات الخفيةُ ، ومن أحرج الساعات فى حياة الأمة الساعة المرهوبة التى تَهْبِط فيها مبادئها المُسِنَّة إلى ظلام المَدْفَن حيث تَرْقُد الآلهة المَيِّتة .

وإذا ما طَرَحْنا العِلَلَ جانباً وأوضحنا المعلولاتِ وجَدْنا انحطاطاً بَيِّناً يُهَدِّد تهديداً جِدِّيًّا حياةَ مُعْظَم الأمم الأوربية الكبرى ، ولا سيما الأممُ التى تُعْرَف بالأمم اللاتينية ، والتى هى لاتينيةٌ فى الحقيقة بالتقاليد والتربية إن لم تكن بالدم ، فهذه الأممُ تَخْسَر كل يوم قوةَ المبادرة والإقدامَ والإرادةَ والقدرة على السَّيْر ، ويكاد قضاء احتياجاتِها المادية الزائدة يصبح مَثَلَها الأعلى الوحيدَ ، وفيها تُبْصِر انحلالَ الأسْرة وتداعِىَ المُقَوِّمات الاجتماعية ، وفيها تَرَى انتشار السُّخْط والارتباكِ بين جميع الطبقات من غَنِيِّها إلى فقيرها ، ويُشْبِهُ الرجل المعاصر السفينةَ التى أضاعت بوصلتَها فهامَتْ على وجهها كما تشاء الرياح ، فتراه تائهاً كما تَهْوَى المصادفةُ فى الفضاء الذى كان عامراً بالآلهة فجعله العلم غامراً ، وتراه قد خَسِرَ الإيمان ففقَدَ الأملَ دفعةً واحدة ، ويلوح أن الجماعاتِ ، بعد أن أصبحت سريعة الانفعال شديدة التقلب، وبعد أن عاد لا يزجرها زاجرٌ ، مَقْضِىٌّ عليها بأن تكون مذبذبةً ، بلا انقطاعٍ ، بين أشدِّ ضُرُوب الفوضى وأثقل ضروب الاستبداد ، أَجَلْ ، تُثارُ الجماعاتُ بالألفاظ، ولكن آلهتها فى يومٍ لا تلبث أن تَغْدُوَ ضحايا لها ، والجماعاتُ تَبْغِى الحريةَ بحرارة فى الظاهر ، والجماعاتُ تَرْفِض الحريةَ على الدوام فى الحقيقة، فتَطْلُب من الدولة بثباتٍ أن تصنع لها قيوداً، والجماعاتُ تُطِيع بِعَمًى أكثرَ الطُّغاة غموضاً وأضيقَ المستبدين نظراً ، وأما المُتَفَيْهِقون الذين يعتقدون قيادتَهم للجماعات مع أنهم يسيرون وراءها على العموم فإنهم يَخْلِطون

ما يَحْفِزها ، دائماً ، إلى تبديل سيدها من النَّزَق وعدم الصبر بروح الاستقلال الحقيقية التى تحُول دون الخُنُوع لأىّ سيدٍ كان .

ومهما يكن نظام الدولة السياسىّ الاسمىّ فإن الدولة تُمَثِّل الألوهية التى تَتَوجه إليها جميع الأحزاب ، فمن الدولة يُطْلَب ما تَثْقل وطأتُه كلَّ يوم من التنظيم والحماية وما يتناول أدقَّ شؤون الحياة من الشَّكْليَّات البزنطية الجائرة ، وتَعْدِل الشبيبةُ بالتدريج عن الأعمال التى تتطلب تميزاً ومبادرة ونشاطاً وجهوداً شخصية و إرادة ، وتَفْزَع الشبيبة من أصغر التَّبِعات ، وتكتفى الشبيبة بأحقر مناصب الدولة ذاتِ الرواتب، و يَجْهَل التجارُ طُرُقَ المستعمرات ولا يَعْمُرُ المستعمراتِ غيرُ الموظفين[1] ، وتُبْصِر لدى رجال الدولة قيامَ المناقشات الشخصية الفارغة إلى الغاية مقامَ النشاط والعمل ، وتُبْصِر لدى الجموع قيامَ الحماسات أو الغَضَبات مقامَ النشاط والعمل ، وتُبْصِر لدى المُثقَّفين قيامَ ضَرْبٍ من الحُنُوِّ الدامع العاجز الغامض وقيامَ المناقشاتِ الكامدة حَوْلَ بُؤْس الحياة مقامَ النشاط والعمل ، وتُبْصِر فى كلِّ مكان نُمُوَّ

---

(١) أنقل العبارات البارزة الآتية من الخطبة التى ألقاها فى ٢٧ من نوفبر سنة ١٨٩٠ وكيل وزارة المستعمرات مسيو إتيان ، وهى :

« يبلغ عدد سكان كوشنشين ١٨٠٠٠٠٠ شخص ، ومن هؤلاء السكان ١٦٠٠ فرنسى ، ومن هؤلاء الفرنسيين ١٢٠٠ موظف ، ويدير شؤونها مجلس استعمارى منتخب من قبل هؤلاء الموظفين ال ١٢٠٠ ، ولها نائب ، ثم تودون ألا تسود الفوضى ذلك البلد !

« . . . والآن ، أتعرفون ما يؤدى إليه ذلك النظام ؟ هو يؤدى إلى الظاهرة القائلة إن الموظفين يستنفدون تسعة ملايين من ميزانيتكم التى خفضت إلى ٢٢ مليوناً .

« وفى سنة ١٨٧٧ حاولت أن أقلل عدد الموظفين ، فأنقصت المال المخصص لهم إلى ٣٥٠٠٠٠٠ فرنك من ٩ ، وقد اتخذت هذا التدبير فى شهر أكتوبر ، ثم حل شهر ديسمبر فسقطت الوزارة التى كنت منها ، فلما كان شهر مارس التالى عاد جميع الموظفين المسرحين إلى مناصبهم » .

أثَرةٍ لا حدَّ لها ، وعاد الفردُ لا يبالى بغير نفسه ، وتُلْقى الوجداناتُ سلاحَها ، وتَهْبِط الآداب العامة وتنطفئ مقداراً فمقداراً ، ويَفقِد الرجل كلَّ سلطان على نفسه ، وغدا الرجلُ جاهلاً كيف يَضْبُط نفسَه ، ومن لم يَعْرِف أن يَضْبُط نفسَه لم يَلْبَث أن يَضْبُطه الآخرون .

ومن العسير تغييرُ تلك الحال العامة ، ويجب للوصول إلى ذلك أن تُحَوَّل تربيتُنا اللاتينية المحزنة قبل كلِّ شيء ، فهذه التربيةُ تُجَرِّد من كلِّ مبادرة وكلِّ نشاط أولئك الذين قد يتصفون بشيء منهما وِراثةً ، وهى تُطْفِئُ كلَّ بصيص من الاستقلال الذهنيِّ ما دامت لا تَهَب للشبيبة من المطامح غيرَ الفوز فى المسابقات الكريهة ، وتلك المسابقاتُ ، وهى لا تتطلب غيرَ جهود الذاكرة ، تُؤَدِّى من حيث النتيجةُ إلى وَضْعها على رأس كلِّ عملٍ أصحابَ الأدمغة الذين أوجب استعدادُهم المنحطُّ للتقليد عجزَهم عن الاستقلال الذاتىِّ والجهدِ الشخصىِّ ، ومن قَوْل أحد المُرَبِّين الإنكليز لفيزُو حين زيارة هذا الأخير لمدارس بريطانية العظمى : « إنى أحاول أن أصبَّ الحديد فى روح الأولاد » ، فأين ما يُحَقِّق به مثلُ ذلك الحُلْم لدى الأمم اللاتينية من المُرَبِّين والبرامج ؟ ومن المحتمل أن يُؤَدِّيَ النظام العسكرىُّ إلى تحقيق ذلك ، والنظامُ العسكرىُّ وحدَه هو الذى يستطيع أن يكون مؤثِّراً فى ذلك على كلِّ حال ، ومن أسباب النهوض الرئيسة عند الأمم التى يعتريها الوهن هو تنظيمُ الخدمة العسكرية العامة الشديدة فيها وكونها مُهَدَّدةً بحروبٍ طاحنة دائماً .

وبذلك الانحطاط الخُلُقىِّ العامِّ ، وبعجزِ أبناء الوطن عن ضَبْط أنفسهم بأنفسهم ، وبعدم اكتراثهم الذى يَنِمُّ على الأَثَرة ، تبدو الصعوبةُ لدى مُعْظم الأمم اللاتينية فى العيش تحت قوانينَ حرةٍ بعيدة من الاستبداد والفوضى ، ومن السهل أن ندرك

كونَ تلك القوانين مُحَبَّبَةً بعضَ الشيء للجماعات مادامت القيصرية تَعِدُ الجماعاتِ بالمساواة فى العبودية على الأقل إن لم تَعِدْها بالحرية التى لا تبالى بها أبداً ، و إنما الذي يَعْسُر فَهمه هو أن تُبصِر الطبقاتِ المُنَوَّرةَ تَرْضَى النُّظُمَ الجُمهوريةَ بأقصى الصعوبة ، وذلك ما لم تَنْظُرْ إلى ثِقَل المُؤَثِّرات الموروثة . أفلا تُتاحُ بمثل هذه النُّظُم لذوى الأفضلية ، وذوى الذكاء على الخصوص ، فُرْصَةُ الظهور ؟ إن عَيْب هذه النُّظُم الحقيقىَّ الوحيدَ لدَى طُلَّاب المساواة بأىِّ ثمن هو أنها تُؤَدِّى إلى تكوين أرِستوقراطيات ذهنية قوية ، و بالعكس تَرَى أن أشدَّ النُّظُم ضَيْماً من ناحية الخُلق وناحية الذكاء هو النظامُ القيصرىُّ بأنواعه ، والنظامُ القيصرىُّ ليس له من المزية إلا أنه يُؤَدِّى بسهولة إلى المساواة فى النذالة والضَّرَاعة فى المَذَلَّة ، والنظامُ القيصرىُّ شديد الملاءمة لخسيس الاحتياجات فى الأمم التى هى فى دور الانحطاط والتى تَمِيل إلى العودة إليه على الدوام ، وتنجذب هذه الأمم إلى رِيشِ خُوذَةِ أىِّ قائدٍ كان ، فإذا كانت الأمة فى ذلك الوضع جاءت ساعتها وانقضَى زمنها .

و يعانى نظامُ الأجيال القديمة ، الذى أبصر التاريخُ ظهورَه فى الحضارات عند أقصى فجرها وأقصى انحطاطها ، تطوراً واضحاً فى الوقت الحاضر فتراه اليومَ يُبْعَثُ باسم الاشتراكية ، وسيكون هذا التعبير الجديد لاستبداد الدولة أقسى أطوار النظام القيصرىِّ لا ريب ، وذلك لأنه ، وهو غيرُ شخصىٍّ ، يَتَفَلَّتُ من جميع دواعى الوَجَل التى تَرْدَعُ أقبح الطُّغاة .

وتبدو الاشتراكيةُ فى الوقت الحاضر أشدَّ الأخطار التى تُهَدِّدُ الأمم الأوربية ، فبها سَيَتِمُّ ، لا ريب ، ذلك الانحطاطُ الذى يُعِدُّه كثيرٌ من العِلَل ، وهى نذيرُ خاتمة بعض حضارات الغرب على ما يحتمل .

ويجب ألَّا يُنظَر إلى التعاليم التى تنشرها الاشتراكية لِتَبَيُّنِ أخطار قوتها ، بل إلى ما توحى به من الإخلاص ، فالاشتراكيةُ معتقدٌ جديد لتلك الجماعة العظيمة من المحرومين طيبَ العيش والذين توجب أحوال التمدن الحاضر الاقتصاديةُ فيهم حياةً قاسية إلى الغاية ، وستكون الاشتراكية ذلك الدينَ الجديد الذى سَيَعْمُرُ السماواتِ الخاويةَ ، وستقوم الاشتراكيةُ عند جميع أولئك الذين لا يحتملون البؤسَ بلا وَهْمٍ مقامَ الجنَّات الساطعة التى كانوا يُبْصرونها من زجاج نوافذ كنائسهم ، ويَرَى ذلك الكيانُ الدينىُّ المقبلُ زيادةَ عدد المؤمنين به يوماً فيوماً ، وهو سيكون له شهداء عما قليل ، وهنالك يصبح من المعتقدات الدينية التى تُثِير الأممَ والتى هى ذاتُ سلطان مطلق على النفوس .

ومن الواضح أن تؤدِّىَ عقائدُ الاشتراكية إلى نظام منحطٍّ من العبودية قاتل لكلِّ قوةِ مبادرةٍ وكلِّ استقلالٍ فى النفوس الخاضعة لسلطانه لا ريب ، ولكن هذا الوضوحَ يبدو ، فقط ، لعلماء النفس المطلعين على أحوال عَيْش الناس ، وبصائرُ مثلُ هذه مما يمتنع على الجماعات ، وإقناعُ الجماعات يستلزم براهينَ أخرى ، وهذه البراهينُ لم تُقْتَبس من دائرة العقل قطُّ .

ولا مِرَاء فى مخالفة العقائد التى تُبْصِر ظهورَها للذوق السليم ، ولكن ألَمْ تكن العقائد الدينية التى سَيَّرتنا فى قرون كثيرة مخالفةً للذوق السليم أيضاً ؟ وهل منعها ذلك من إخضاع أشدِّ العباقرة بصيرةً لأحكامها ؟ ألاَ إن الإنسان فى موضوع المعتقدات لا يُصْغِى إلاَّ إلى صوت مشاعره اللاتَذَبْهِيَّة ، ألاَ إن هذه المشاعرَ ميدانٌ مبهم لا مَحَلَّ للعقل فيه مطلقاً .

إذَنْ ، هنالك عِدَّةُ أمم أوربية ستُحْمل على الخضوع لطور الاشتراكية المرهوب

بفعل المزاج النفسي الذى أورثها إياه ماضٍ طويل ، وستكون الاشتراكية إحدى مراحل الانحطاط الأخيرة ، والاشتراكيةُ حين تَرُدُّ حضاراتٍ كثيرةً إلى وجوه منحطة من التطور تجعل الغاراتِ المخربةَ التى تهددنا أمراً سهلاً .

وإذا عَدَوْت إنكلترة لم تجِدْ فى أوربة عِرْقاً يَحُوز من الإقدام الكبير والمعتقدات الثابتة ومن الاستقلال الخلقى ما يكفى للخلاص من ذلك الدين الجديد الذى نُبْصِر ظهورَه ، وإذا ما نُظِر إلى نجاح المذاهب الاشتراكية فى سواء ألمانية رُئِى أن ألمانية ستذهب ضحية الاشتراكية ، ومما لا شكّ فيه أن الاشتراكية التى سَتُفْضى بها إلى الخراب سَتَضْفُو عليها صِيَغٌ عابسة صارمة تَصْلُح لمجتمع خيالى لا يُنْتجه البشر أبداً .

ومع ذلك ستكون الاشتراكيةُ نظاماً جائراً لا يُكْتَب له دوام ، وهى ستجعل الناس يأسفون على عهد طِيبِرْيوس وكاليغولا ، وستعيد إليهم ذلك العهد ، ومما يُسْأل فى بعض الأحيان : كيف كان الرومان فى زمن الأباطرة يُطِيقون بسهولةٍ نَزَواتِ أمثال ذَيْنك الجبَّارَين القاسية ؟ والجواب عن هذا هو أن الرومان أيضاً عرَفُوا النفى والطرد بفعل المنازعات الاجتماعية والحروب الأهلية فخَسِروا أخلاقهم ، فعَدُّوا أولئك الطغاةَ آخِرَ وسيلةٍ للنجاة ، وكان الرومانُ يَصْبِرُون على أولئك لعدم معرفتهم كيف يستبدلون غيرَهم بهم ، وهم لم يستبدلوا غيرَهم بهم فى الحقيقة ، فقد جاء بعدهم دورُ الدَّوْس الأخيرُ تحت أقدام البرابرة ، جاءت نهاية العالَم ، فعلى هذا المدار يدور التاريخ فى كلِّ زمان .

الفصل الثاني

خلاصات عامة

ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب أنه ليس سوى خلاصة قصيرة ، سوى إجمال تركيبي للمجلدات التي خصصناها لتاريخ الحضارات ، فمن الصعب ، إذن ، تكثيف الأفكار التي اشتمل عليها تكثيفاً آخر ، وتراني أحاول ، مع ذلك ، أن أعرض المبادئ الأساسية التي تنم على فلسفة هذا الكتاب في قضايا موجزة إلى الغاية :

— لكل عِرْق صفاتٌ نفسية ثابتة ثباتَ الصفات الجثمانية تقريباً ، والنوعُ النفسيّ ، كالنوع التشريحيّ ، لا يتحول إلا ببطء عظيم .

— يُضاف إلى الصفات النفسية الثابتة الموروثة التي يتألف من اجتماعها مزاج العِرْق النفسيّ عناصرُ ثانويةٌ ناشئة عن مختلف تَغَيّراتِ البيئات ، وذلك كما يَحْدُث لدى جميع الأنواع التشريحية ، وتتجدد تلك العناصر الثانوية بلا انقطاعٍ فيكون للعِرْق بذلك تَغَيّرٌ ظاهرٌ على شيء من الاتساع .

— لا يُمَثِّل المزاج النفسيّ للعِرْق خلاصةَ أفراده الأحياء وحدَهم ، بل يُمَثِّل، على الخصوص ، المزاجَ النفسيّ للأجداد الكثيرين الذين أعانوا على تكوينه ، والأمواتُ ، لا الأحياء ، هم الذين يُمَثِّلون أهمَّ دور في كِيانِ الأمة ، والأمواتُ هم مُوجِدُو أدب الأمة وعواملِ سَيْرها اللاشعورية .

— تلازم الفروقُ التشريحية العظيمة التي تَفْصِل بين مختلف العروق البشرية

الفروقَ النفسية التى لَا تقِلُّ عنها أهميةً ، والعروقُ ، إذا ما قابلنا بين ذوى المستوى المتوسط من أبنائها ، بَدَت الفروقُ النفسية بينها ضعيفةً فى الغالب ، وتبدو هـذه الفروق عظيمة عند المقابلة بين أعلى العناصر فى تلك العروق ، فهنالك يُرى أن الذى يَمِيزُ العروقَ العليا من العروق الدنيا على الخصوص هو اشتمال العروق العليا على ما لا تحتويه العروق الدنيا من ذوى الأدمغة النامية إلى الغاية .

— تسود الأفرادَ الذين تتألف منهم العروق الدنيا مساواةٌ واضحة ، والعروقُ ، كلما ارتقت فى سُلّم الحضارة ، اختلف أفرادها شيئاً فشيئاً ، ويتجلى أثر الحضارة المحتومُ فى تفاوت الأفراد والعروق ، فإلى التفاوت الزائد ، لا إلى المساواة ، تَسِيرُ الأمم إذَنْ .

— حياةُ الأمة وجميعُ مظاهر حضارتها صَدًى لروحها ، وهما دلائلُ منظورةٌ لأمر حقيقىّ غير منظور ، وما الحوادثُ الخارجية إلا صورةٌ ظاهرة للحِكْمةِ الخَفِيَّة التى تُعيِّنها .

— أخلاق الأمة على الخصوص ، لا المصادفةُ ولا الأحوالُ الخارجية ولا النُّظُمُ السياسية ، هى التى تُمَثِّل الدورَ الأساسىَّ فى تاريخها .

— بما أن عناصر حضارة الأمة دلائلُ خارجيةٌ على مزاجها النفسىّ وعُنوانُ طُرُزٍ لإحساسها وتفكيرها فإنها لا تنتقل ، من غير تغييرٍ ، إلى أمم أخرى ذاتِ أمزجة مختلفة عن مزاجها ، والعناصرُ الوحيدة التى يمكن أن تنتقل هى الأشكالُ الخارجية السطحية التى لا أهمية لها .

— تؤدى الفروق العميقة التى تَفْصِل بين الأمزجة النفسية لمختلف الأمم إلى تَبَيُّن هذه الأمم للعالَم الخارجىّ على وجوهٍ شديدةِ التباين ، وينشأ عن هذا شدةُ اختلافها

فى طُرُز الشعور والتمييز والسَّيْر ، ومن ثَمّ اختلافها فى جميع المسائل عند المصاقبة ، وما مُعْظم الحروب التى تملأ التاريخ إلا ناشئاً عن تلك الاختلافات ، وما حروبُ الفتوح والحروب الدينية وحروب الأُسَر المالكة فى الحقيقة إلا حروبُ عروق على الدوام .

— لا ينتهى جَمْعٌ من الناس مؤلفٌ من أصول مختلفة إلى تكوين عِرْق، أى إلى حيازة روح عامة ، إلا إذا اكتسب ، بتوالد مُكَرَّرٍ فى عِدّة قرون وبحياة متشابهة فى بِيئات متماثلة ، مشاعرَ واحدةً ومصالحَ واحدةً ومعتقداتٍ واحدة .

— لا تَجِدُ لدى الأمم المتمدنة عروقاً طبيعية ، بل تَجِدُ عندها عروقاً مصنوعة نشأت عن أحوال تاريخية .

— لا يُؤثِّر تَغَيُّر البِيئات تأثيراً عميقاً فى غير العروق الجديدة ، أى عند اختلاط العروق القديمة التى أسفر توالدها عن انحلال أخلاقها الموروثة ، فالوِراثةُ وحدَها هى التى تَقْدِر على مكافحة الوِراثة ، ولا يؤدى تَغَيُّر البِيئة إلى غير التخريب فى العروق التى لم يَقْضِ التوالد على ثبات أخلاقها ، وأَهْوَنُ على العِرْق القديم أن يَهلك من أن يخضع لتحولاتٍ تستلزمها ملاءمةُ بِيئاتٍ جديدة .

— تكون حيازة الأمة لروحٍ جامعة متينةِ التركيبِ آيةَ بلوغ هذه الأمة أَوْجَ عظمتها ، ويكون انحلالُ هذه الروح نذيرَ انحطاطها ، ويكون دخولُ عناصرَ أجنبيةٍ فى الأمة من أصحّ الوسائل لبلوغ مثل هذا الانحلال .

— تَخْضع الأنواع النفسية لعوامل الزمن كما تَخْضع الأنواعُ التشريحية ، فهى تَهْرَم وتموت مثلَها ، وقد تزول تلك الأنواع بسرعة مع أنها تتكون ببطء كبير على الدوام ، فيكفى أن يقع اضطرابٌ عميق فى قيام أعضائها بوظائفها حتى تُعانِيَ تحولاتٍ

راجعةً مؤديةً إلى هلاكٍ سريع فى الغالب ، فالأمم ، و إن اقتضى اكتسابها لمزاج نفسىّ قروناً طويلة ، تفقد هذا المزاج فى وقت قصير أحياناً .

— يجب أن توضع المبادئ بجانب الأخلاق كعامل رئيس فى تطور الحضارة ، ولا تؤثّر هذه المبادئ إلا بعد أن تتحول بتطور بطىء إلى مشاعرَ فتصبحَ جزءاً من الأخلاق ، فهنالك تتفلت من تأثير الجَدَل ولا تزول إلا بعد زمنٍ طويلٍ ، وتُشْتَقُّ كل حضارة من عدد قليل من المبادئ الأساسية التى يُجْمَع عليها .

— تجدُ المبادئ الدينية بين أهمّ المبادئ التى تُوَجِّه الحضارة ، وعن مختلف المعتقدات الدينية نشأ ، على وجهٍ غيرِ مباشر ، مُعْظَمُ الحوادث التاريخية ، وقد اقترن تاريخ البشرية بتاريخ آلهتها ، وكان ظهور آلهة جديدة دليلاً على فَجْر حضارة جديدة فى كلّ وقت ، والآلهةُ ، وهى أبناء أحلامنا ، تَبْلُغ من السلطان ما يُؤَدِّى معه تغييرُ اسمِها وحدَه إلى قَلْب العالَم من فَوْره رأساً على عَقِب .

الفهرس

المقدمة

مبادئ المساواة فى الزمن الحاضر

وعوامل التاريخ النفسية

الباب الأول

صفات العروق النفسية

الفصل الأول

روح العروق

الفصل الثانى

حدود تغير أخلاق العروق

الفصل الثالث

نظام مراتب العروق النفسىّ

الفصل الرابع

تفاوت الأفراد والعروق التدريجى

يكون التفاوت بين أفراد العرق الواحد بنسبة ارتقاء هذا العرق — ما بين أفراد العروق المتأخرة من مساواة نفسية — يجب تقدير الفروق بين العروق بالمقابلة بين طبقاتها العليا ، لا بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى — يؤدى تقدم الحضارة إلى زيادة التفاوت بين الأفراد ، وإلى زيادته بين العروق — نتائج هذا التفاوت — الأسباب النفسية التى تحول دون اتساعه كثيراً — أفراد العروق العليا كثيرو التفاوت ذكاء وقليلو التفاوت أخلاقاً — كيف توجب الوراثة رجوع الأفضليات الفردية فى العرق إلى مثاله المتوسط — تؤيد المشاهدات التشريحية ما بين العروق والأفراد والجنسين من التفاوت النفسى التدريجى . . (٥٥ — ٦٢).

الفصل الخامس

تكوين العروق التاريخية

كيف تكونت العروق التاريخية — الأحوال التى تؤدى إلى امتزاج عروق مختلفة لتكوين عرق واحد — تأثير عدد الأفراد المتواجهين وتفاوت أخلاقهم وبيئاتهم ، إلخ . — نتائج التوالد — أسباب انحطاط المولدين العظيم — تقلب ما يسفر عنه التوالد من الأخلاق النفسية الجديدة — كيف تثبت هذه الأخلاق — أدوار التاريخ الحرجة — التوالد عامل جوهرى فى تكوين العروق الجديدة وهو ، أيضاً ، عامل قوى فى انحلال الحضارات — أهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — لا تؤثر البيئات إلا فى العروق الجديدة التى

الباب الثانى

كيف تتجلى الأخلاق النفسية للعروق فى مختلف عناصر الحضارات

الفصل الأول

عناصر الحضارة مظهر خارجى لروح الأمة

الفصل الثانى

كيف تتحول النظم والديانات واللغات

لا تستطيع العروق العليا والعروق الدنيا أن تحول عناصر حضارتها فجأة — ما تبديه الأمم التى غيرت دياناتها ولغاتها وفنونها من مناقضة ظاهرة لذلك — ما اعتور البدهية والبرهمية والإسلام والنصرانية من تحولات عميقة بحسب العروق التى انتحلتها — ما يعتور النظم واللغات من تغير بحسب العروق التى انتحلتها — نبم الألفاظ التى تعد متقابلة فى مختلف اللغات على آراء وطرز تفكير مختلفة جداً — تعذر ترجمة بعض اللغات لهذا السبب — السبب فى أن حضارة الأمة فى كتب التاريخ تبدو ، أحياناً ، خاضعة لتحولات عميقة — حدود تأثير الحضارات تأثيراً متقابلا . . . . (٨٥ — ٩٦)

الفصل الثالث

كيف تتحول الفنون

تطبيق المبادئ السابقة على دراسة تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التى تشتق منها فنونها — ما صارت إليه هذه الفنون بانتقالها إلى مختلف العروق كالإثيوبيين والأغارقة والفرس — تأخر الفن الإغريقى فى دوره الأول — بطوء تطوره — انتحال الفرس للفن الإغريقى والفن المصرى والفن الآشورى وتطور هذه الفنون لديهم — يتوقف ما تعانيه الفنون من التحول على العرق ، لا على المعتقدات الدينية — أمثلة من التحولات العظيمة التى خضع لها الفن العربى بحسب العروق التى دانت بالإسلام — تطبيق مبادئنا فى البحث عن أصول الفن فى الهند وتطوره — استقت الهند واليونان من مصادر واحدة ، غير أنهما انتهتا إلى فنون لا نسبة بينها بسبب تباين عروقهما — التحولات الواسعة التى خضع لها فن البناء فى الهند بحسب العروق التى تسكنها وعلى الرغم من تشابه المعتقدات . . . . (٩٧ — ١١٣)

الباب الثـالث

اشتقاق تاريخ الأمم من أخلاقها

الفصل الأول

كيف تُشْتَقُّ النظم من روح الأمم

الفصل الثانى

تطبيق المبادئ السابقة على البحث المقارن فى تطور الولايات المتحدة بأمريكة والجمهوريات الإسپانية الأمريكية

الفصل الثالث

كيف يؤدى تغيير روح العروق إلى تغيير تطور الأمم التاريخى

تأثير العناصر الأجنبية يحول روح العرق وحضارته — مثال الرومان — لم تسقط حضارة الرومان بالمغازى الحربية ، بل بمغازى البرابرة السلمية — لم يفكر البرابرة فى هدم الإمبراطورية قط — لم تكن لغاراتهم صفة الفتوح — كان رؤساء الفرنج الأولون يعدون أنفسهم موظفين فى خدمة الإمبراطورية الرومانية — احترم أولئك الرؤساء حضارة الرومان على الدوام ، وهم لم يفكروا فى غير إدامتها — لم يعدل رؤساء البرابرة عن عد القيصر رئيساً لهم إلا من القرن السابع — لم يكن تحول الحضارة الرومانية التام نتيجة هدم ، بل نتيجة انتحال حضارة قديمة من قبل عرق جديد — المغازى الحديثة فى الولايات المتحدة — المنازعات الداخلية وما توجبه من انقسام إلى دول مستقلة متنافسة — مغازى الأجانب فى فرنسة ونتائجها . . . . . (١٣٣ — ١٤٠)

الباب الرابع

كيف تتغير أخلاق العروق النفسية

الفصل الأول

شأن الأفكار فى حياة الأمم

المبادئ الموجهة للحضارات قليلة العدد على الدوام — بطوء نشوئها وبطوء زوالها — لا تؤثر المبادئ فى السير إلا بعد تحولها إلى مشاعر — تصبح المشاعر إذ ذاك جزءاً من الخلق — الحضارات تكون على شىء من الثبات بسبب بطوء

تطور المبادئ — كيف تستقر المبادئ — لا تأثير للمعقول فى ذلك — تأثير التوكيد والنفوذ — شأن المؤمنين والرسل — ما يعتور المبادئ من تشويه بهبوطها إلى الجماعات — لا يلبث المبدأ الذى يجمع عليه أن يؤثر فى جميع عناصر الحضارة — يكون لأهل كل جيل بفعل وحدة المبادئ إدراكات متوسطة يتماثلون بها فى أفكارهم وأعمالهم — نير العادة والرأى — لا يخف ذلك النير إلا فى أدوار التاريخ الحرجة حيث تخسر المبادئ القديمة نفوذها من غير أن تقوم مبادئ أخرى مقامها — الدور الحرج هو الدور الوحيد الذى يباح فيه الجدال فى الآراء — لا تدوم العقائد إلا بعدم الجدال فيها — لا تستطيع الأمم أن تغير مبادئها وعقائدها من غير أن تغير حضارتها . . . . (١٤٣ — ١٥٦)

الفصل الثانى

شأن المعتقدات الدينية فى تطور الحضارات

تأثير المبادئ الدينية العظيم — يتألف من هذه المبادئ أهم عنصر فى حياة الأمم — يشتق معظم الحوادث التاريخية ، كالنظم السياسية والاجتماعية ، من مبادئ دينية — يولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة على الدوام — قوة المثل الدينى الأعلى — تأثيره فى الأخلاق — هو يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد — تاريخ الأمم السياسى والفنى والأدبى هو وليد معتقداتها — يؤدى أقل تغيير فى حال معتقدات الأمة إلى سلسلة من التحولات فى كيانها — أمثلة مختلفة . . . . (١٥٧ — ١٦٢)

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم

ما تسفر عنه كل حضارة من تقدم كبير هو وليد صفوة قليلة من ذوى النفوس العالية على الدوام — طبيعة شأن هؤلاء — إنهم جماع مجهودات العرق

الباب الخامس

انحلال أخلاق العروق وانحطاطها

الفصل الأول

كيف تذوى الحضارات وتنطفئ

الفصل الثانى

للأستاذ المترجم :

١ – روح الشرائع (جزءان)		لمونتسكيو
٢ – العقد الاجتماعى		لجان جاك روسو
٣ – أصل التفاوت بين الناس		» » »
٤ – إميل أو التربية		» » »
٥ – كنديد أو التفاؤل		لفولتير
٦ – تلماك		لفنلون
٧ – ابن رشد والرشدية		لإرنست رينان
٨ – حضارة العرب	(طبعة ثالثة)	لغوستاف لوبون
٩ – حضارات الهند		» »
١٠ – روح الجماعات	(طبعة ثانية)	» »
١١ – السنن النفسية لتطور الأمم	(طبعة ثانية)	» »
١٢ – فلسفة التاريخ		» »
١٣ – روح التربية		» »
١٤ – حياة الحقائق		» »
١٥ – الآراء والمعتقدات	(طبعة ثانية)	» »
١٦ – روح الثورات والثورة الفرنسية	(طبعة ثالثة)	» »
١٧ – روح الاشتراكية		» »
١٨ – روح السياسة		» »
١٩ – اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى		» »
٢٠ – مجالى الإسلام		لحيدر بامات
٢١ – النيل		لإميل لودفيغ
٢٢ – البحر المتوسط		» »
٢٣ – كليوباترة		» »
٢٤ – بسمارك		» »
٢٥ – نابليون		» »
٢٦ – ابن الإنسان		» »
٢٧ – الحياة والحب		» »
٢٨ – حياة محمد	(طبعة ثانية)	لإميل درمنغم
٢٩ – تاريخ العرب العام		لسيديو
٣٠ – حديقة أبيقور		لأناتول فرانس
٣١ – الآلهة عطاش		» »
٣٢ – ابن خلدون (فلسفته الاجتماعية)		لبوتول
٣٣ – أصول الفقه الدستورى		لإيسمن

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

